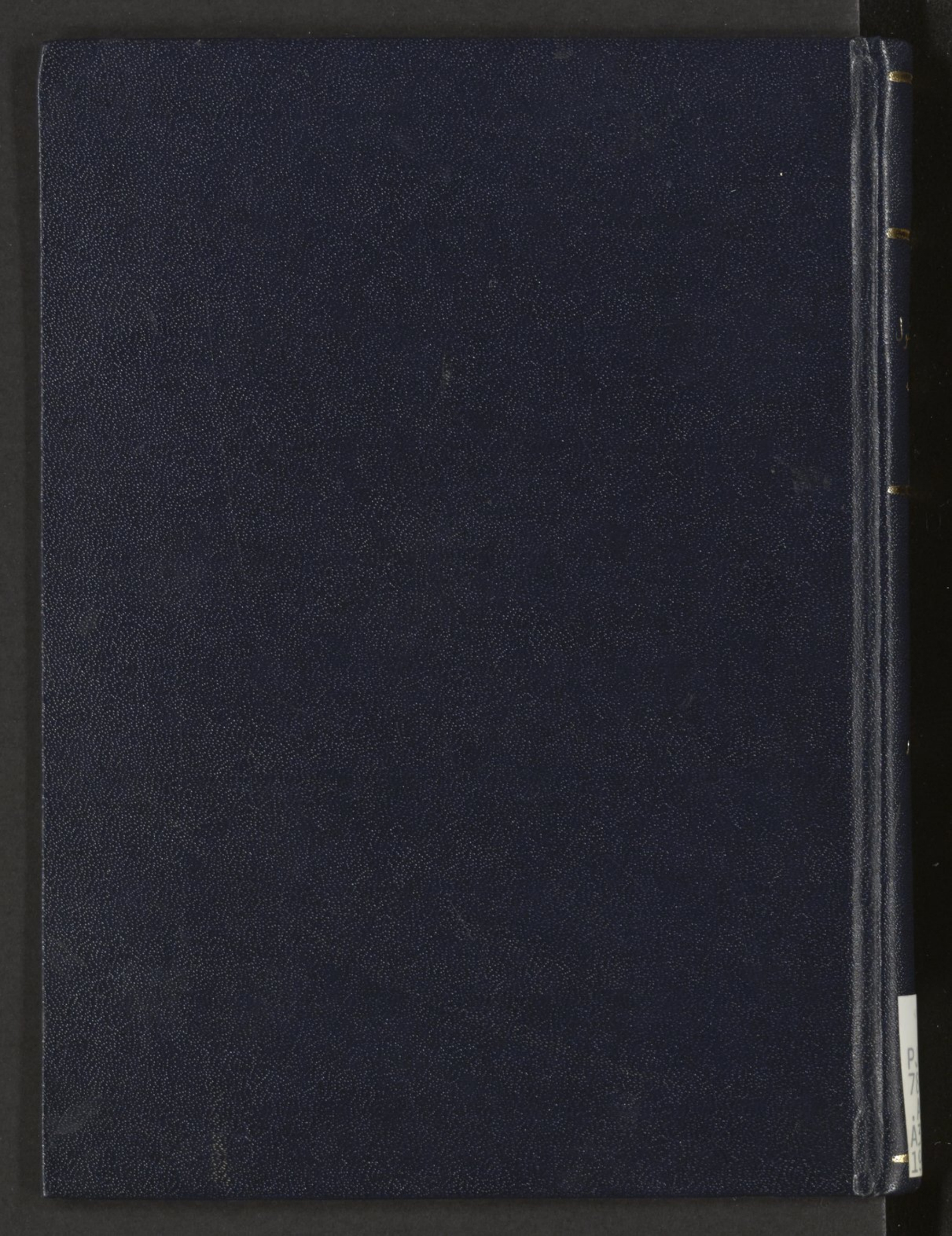
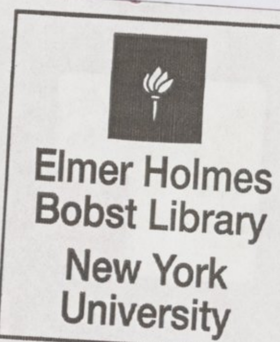
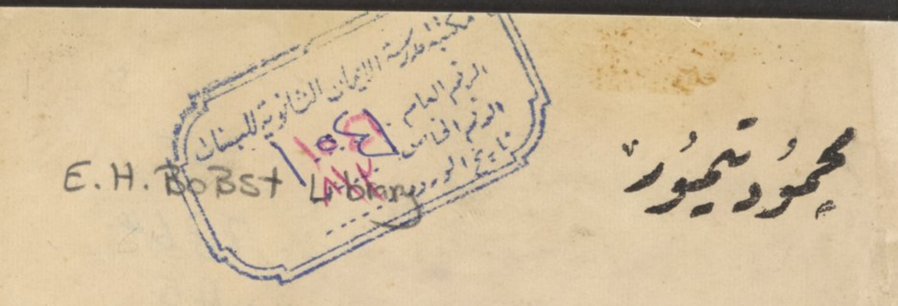



BOBST LIBRARY
3 1142 03286 0689

Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University







محمود تيمور

أبو الهول يطير

طبعة ثانية منقحة مزيدة

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ حارة الشابورى بالحلمية الجديدة

PJ
7864
.A5
A38
1949

الطبعة الثانية ١٩٤٩

منقحة ومزيدة بما يتفق ومشارب الطلاب والطالبات

إهداء

إليكَ ...

إليكَ يا أعزَّ من أحببته ، ويا أعزَّ من فقدتُه .

إليكَ أنتَ ، يا مَن لا أسميك .. . فإن اسمكَ لم يعُد يجرى على لسانى منذ أضعتُكَ .

إليكَ أخطُّ هذه الرسائل .

إنى لأبعث بها واحدةً تِلوَ الأخرى ، لعلى أتنسَّم من توجيهها إليكَ بردَ السَّلوى ؛ وإنها استطالعُك فى عالَمك العُلوِىّ ، لعلها تحمل إليك خوالجَ القلب ونجوَى الضمير !

تهتاجُ بين جوانِحى رغبة متقدة فى الكتابة إليكَ ، فى مخاطبتكَ .. . فى فكِّ الإسار عن نفسى التى تتنزَّى فى القيود والأصفاد !

لقد أسكنتُ هذه النفسَ قُمْقُماً من قماقم « سليمان »، وأحكمتُ سدَّه بالرصاص، وقذفتُ به فى قاع المحيط، هنالك تحت أعماقِ الماء، حيث يتكدَّس الظلامُ والصمتُ طبقاتٍ فوقَ طبقات.

ظلَّتْ تلك النفسُ حبيسةَ قمقمها ثلاثَ سنينَ طوالاً كأنها دهور تتلاحق، ولكن فى هذه الساعة التى أزْمِعُ فيها سفراً لا أدرى ما ذا يكون مصيرى فيه، تنبعثُ صرخةٌ يضطربُ لها ذلك القمقم، صرخةٌ تنفذُ من الرصاص، وتخترق أطباق الصمت والظلام، وتشقُّ أعماق الماء: فإذا هى تبلغ أذنى، وإذا هى تملأ سمعى بالدَّوِىّ.

إنها رغبة النفس فى أن تناجيك، فى أن تتصلَ بك، فى أن تفنَى فيك!

ثمة اتصالٌ دائم بينك وبين هذه النفس السَّجينة، بيد أنه اتصال صامت، لا كلمةَ فيه تقال، ولا لفظةَ فيه تُدوَّن. أما اليوم فإن هذه النفسَ شيِّقةٌ إلى أن تتكلم.. وإنى لتارك لها هذه الأوراقَ البيض، لتخطّ فيها ماتهفو إلى الإفضاءِ به إليك!

تلك هى الرحلة الأولى التى تتخلَّف فيها عن مرافقتى ، فلقد نَعِمْتُ بصحبتكَ فى أسفارى جميعاً .

أنت تتخلَّف عنى اليوم على الرَّغْم منك ، وأنا أرحَلُ الساعةَ بدونك على غير إرادةٍ منى .

إنها يا بُنَىَّ مشيئةُ القَدَر ، ومَنْ ذا يردُّ القَدَرَ إذا شاء ؟ ولكن أىُّ تخلُّفٍ منك ؟ وأىُّ رحيل منى ؟

إننا نَقِيسُ القُرْبَ والبُعْدَ فى هذه الدنيا بمَنْطقِنا القاصر ، ونظرنا الكليل .

أثمةَ رحيل يَنْأى بى عنكَ حقا ؟

ربما ضَمَّنى ، أنا وإنسان آخر ، مكان واحد ، مكان ضيِّق لا يتسعُ لأكثر من شخصين ، فأشعر مع ذلك بِبُعْدِ الشُّقَّة بينى وبينه ، بل إنى لا أحسُّ لهذا الجليس من وجود ؛ على حين أنه قد يفصلُنى عنكَ شاسعُ الأرجاء وهَوْلُ الطريق ، فأحسَّ كأنكَ تَلْمِسُنِى ، وأشعر بِنَسَمات أنفاسِكَ تصافحُ وجهى !

لا رحيلَ يا بُنَىَّ ولا تخلُّفَ ...

إننا نصطنعُ المألوفَ من الكلام ، ونُساير المتعارَفَ من الألفاظ ، حتى يكونَ حديثُنا بين الناس غيرَ مُسْتَغْلِق ولا

مستغرَب ولا مكروه ... ولعمرى ... لو تركْنا لأرواحنا حريةَ التعبير لاتخَذْنا لغةً لا تصلح إلا فى مخاطبةِ الأرواح للأرواح!

لا رحيلَ يا بُنَىَّ ولا تخلُّفَ ...

أنتَ فكرة خالدة تحومُ فى مخيّلتى لا تبرحها أبدا.

أنت نجوى تهجس فى صدرى فى تعبُّد وتبتُّلٍ صباحَ مساءَ.

أنت خفقة القلب تجمَّعتْ فيها عناصرُ حياتى.

إنى لأزمع الرحيلَ، لا تسريةً عن النفس، ولا إشباعاً لفضول، بل لأرافقَ شخصاً عزيزَ المكانة فى قلبينا يلتمسُ الشفاءَ فى تلك البلادِ القاصية.

أَما كانَ أحرَى أن تكون أنتَ مكانى، ترعى هذا العزيز فى غُرْبته، وتدَعنى مكانكَ أتوسَّدُ الثَّرَى عنكَ؟

قسَماً يا بُنَىّ ما كنت أطلبُ من الله أمنيةً أجلَّ من تلك، ولكن الله يصرّفُ الأقدارَ وَفْقَ مَشيئته التى نُسْلِمُ لها القياد، وإن كانت عقولُنا القاصرة تَعْيَا عن إدراك ما فى هذه الأقدارِ من حكمة وما لها من مرمى.

إنها إذاً مشيئةُ الله، أن أرحلَ أنا وتبقَى أنتَ: كما كانت مشيئتُه من قبلُ أن ترحلَ أنتَ عن دنيانا، وأن أبقَى أنا فيها أقضِى أياماً أخرَ!

وإنها كذلك مشيئةُ الله : بينما يدعوك إلى جوارِه الأعلى ، مخلّفاً قلوبَنا فى ظلمة وعُبوس ، إذْ يبعثُ إلينا نجماً صغيراً* ما فتِيءَ نورُهُ الوادِعُ منذ بزَغ يحاولُ جاهداً أن ينيرَ هذه القلوب ، وأن يُهدِيَ إليها راحةَ الرضا بما هو مكتوب ومقسوم . .

بذلك الصغير الذى راح ينمو بيننا ويتفتّحُ كتَفتُّحِ الزهرةِ باكرَها الطَلُّ ، بدأنا نستعيدُ طفولتَكَ المحبَّبَة ، ونعرِضُ أطوارَ حياتِكَ البهيجَة .

لقد ظهرتْ بيننا المعاطفُ الصغيرة ، والقُبَّعاتُ العريضة ، والأحذيةُ الدقيقة .

لقد تراءتْ فى حديقة المنزل تلك المَرْكبَةُ التى تُدْفَع باليد مرتقبةً خُطا الطفل الجديد .

لقد تعالَتْ فى أجواء المنزل جَلبَةٌ صاخبة مُشْبَعَة بالحياة والبهجة ، لتوقظَ المنزلَ مما ران عليه من ركود وخمول .

ها أنتَ ذا تعودُ إلينا يا بُنَيّ .

تعود إلينا بابتساماتِكَ الوضَّاحة ، بضحكاتِكَ الرنّانة ، بعبَثِكَ المُستظرَف ، بمرَحِك الحيّ .

---

* يعنى الكاتب ابن ابنته

يا لله ... كأنك بيننا لم تفارِقْنا ، وكأننا معك لم نَفْقِدْكَ !

إننى حين أقْبِلُ على ذلك الصغير ، فيَّاضَ الحنين ، أضمُّه إلى صدرى وألْثمه ، يُخيَّل إلىّ أنى أضمُّكَ أنتَ يا بُنَىّ وألْثمُكَ .

كنتَ دائماً طفلاً أمامَ عينىّ .

إن الوليدَ ليظلُّ صغيراً فى نظرِ والديه ، وإن شَبَّ شبابه ، وإن علتْ به السنُّ ، وإن علاَهُ المشيب .

إنه هو هو ذلك الصغير الذى نُزعِجُه دوْماً بالعَطْف والتَّفَقُّد والنُّصْح المملول !

أنتَ طفلى ، وستلْبَثُ طفلى أبداً ، صبيًّا كنتَ أم كهلا ، حيًّا كنتَ أم فى عِدَاد الراحلين !

وهل كنتَ إلاّ طفلاً وأنت على فِراشِ مرضِكَ الأخير ؟

لقد كنتَ ترنو إلىّ ، وتطلبُ منى أن أحوطكَ بما ألِفْتَه منى من حُنُوّ ، وتسألنى أن أخففَ عنك ماتعانِى من تباريح الألم . ولطالما قلتَ لى : متى أغادر سرير المرض ، وأعاودُ مألوف العيش ؟ فكنتُ أؤكّدُ لك أنَّ الشدةَ زائلة ، وأن الصحةَ مقبِلة ، وإنْ هو إلا يومٌ أو بعضُ يوم .

كنتُ أردِّدُ ذلكَ لكَ بلساني ، فأما قلبي فإنه كان يحسُّ هولَ الفاجعة من بعيد . . .

كان مَثَلي كمَثَلِ ذلك الحيوان الذى يحسُّ بغريزتِه هبوبَ العاصفة العاتِيَةِ ، قبلَ أن تسجِّلَ آلةُ الرَّصْدِ ما فى الجوِّ من انقلاب !

كنتُ أحسُّ أنكَ تُوشِكُ أن تنسابَ من بين يَدَيَّ انسيابَ الماءِ من بين الأصابع ، حتى حلَّ اليومُ الذى وجدتُ فيه يدى قد صَفِرَتْ منك ، فجاهدتُ لأُبقِيَ فى راحتى ما أستطيعُ إبقاءَه ، ولو بضعَ قطرات . . . ولكن ذهبَ الجهد والجهاد عَبَثاً ، فإن أديمَ يدى كان قد جَفَّ وتشقَّقَ من لفَحاتِ الهجير ، فلم يَعُدْ لأيةِ قطرةٍ مكانٌ فيه !

لقد تطايرتَ من بيننا ، يا بُنَيَّ ، كما يتطايرُ العِطْرُ من قارورة رُفِعَتْ سِدَادتها ، فلم نَعُدْ نراكَ بأبصارنا ، ولكننا ظَلِلْنا نَشَمُّكَ طِيباً يشيعُ فيما حولَنا من أجواء .

لم لا أضعُ صورتَكَ هنا لتُزَيِّنَ هذا الحديثَ وتجمِّله ؟ إنها فكرةٌ خامرتْ رأسى وقتاً ، ولكنَّ العَزْمَ على إنفاذها أعْوَزَنى .

إنى لأجاهِرُ بضعفى وجُبنى حِيالَ هذا العزْم ، فليس لى من قوة ولا من جَلدٍ أستعينُهما على مواجهةِ رَسْمِك يا بُنَىّ !

إن صُورَك ماثلةٌ فى ركن خاصٍّ بها ، ماثلةٌ فى محراب أقامَهُ لك شخصٌ عزيزُ المكانةِ فى قلبَينا .

هو محرابُه القدُسِىّ ، يَقضِى فيه الساعاتِ رانياً إليكَ ، يَرْشُفُ الألمَ قطراتٍ على مهَل فى نَشْوة واستعذاب !

أما أنا فكلما مررتُ بهذا المحراب عامداً أو غيرَ عامد ، زاغَ عنه بصرى وازْوَرّ .

إن « الرجلَ » منا ليجعجعُ بشجاعته ، ويعتدُّ بقوته ، ولا يفتأ يزهو ويفاخر ، حتى إذا لمحَ طيفَ الألم يتخايَلُ أمام عينيه ، فرَّ منه ما وَسِعَه الفِرَار .

ولكن « المرأةَ » تستمرئ الألمَ ، وتُقدِم عليه ، ولا تبغِى به فى النوائبِ والأرزاءِ بديلا .

. . . .

تلك خطراتٌ جاشَ بها القلبُ يا بُنَىّ ساعة الرحيل ، أناجِيكَ بها حينَ أستودِعُكَ الله .

وإلى اللقاءِ القريب !

محمود نجور

٤ ابريل سنة ١٩٤٦

أى بُنَىَّ :

فى صباح اليوم المتمِّ للثلاثينَ من مارس المنصرم ، دقَّ جرسُ « التليفون » ، وأحطتُ علماً فى لهجةٍ بالغةِ الأدب وإن كانت لهجةً حاسمةً بموعدِ قيام الطائرة ، فإذا به بعدَ أربعةِ أيام .

أيّةُ طائرة ؟ وأيةُ أيام أربعة ؟

وتذكرتُ أنى سجلتُ اسمى فى القنصلية الأمريكية للظفر بالأسبقيَّة فى ركوب الطائرة . . كان ذلك منذ أشهر تقضت دون أن يتخلَّلها حديثٌ فى هذا الصدد ، حتى غَرَبَ عن بالى أنى مقبلٌ على سفر .

ها قد تبيَّن الأمر ، فإذا هو جدٌّ لا هزلَ فيه . . . بعد أربعة أيام أطيرُ إلى « نيويورك » . . . ولكن هل تكفى هذه الأيامُ

الأربعةُ فى إعداد عُـدَّة الرحيل ؟ ألا أراجعُ ولاةَ الأمر لتأجيلِ الموعد؟... عبثٌ ما أفكِّر فيه !... إنها أوامرُ يتلقاها طُلاَّب الرحلة من مكاتب الشركات كما يتلقَّى الجندىّ أوامر القوَّاد. أليس العهدُ قريباً بحالةِ حرب ؟ !... إذن فلنذعِنْ لهذا الأمر صاغرِين صابرين إذا طَمِعْنا فى تحقيق مانصبو إليه.

ونهضتُ أعمل... ينبغى أولا أن أحصُرَ ما يجب علىَّ أن أقوم به، وإذا بالمطالبِ والشئون قد تشابكتْ وأخذ بعضُها بتلابيبِ بعض. فبأىِّ شىء أبدأ ؟ وأىَّ شىء أؤخِّر ؟

وبذاتُ جهدى فى حَصْر الأعمال.. ومَثَل لخاطرى على الفوْر إعدادُ الحقائب، أستغفرُ الله بل إعدادُ حقيبةٍ واحدة لى، ومثلِها لزوجى... حقيبةٍ من الوزن الخفيف، لا تزيدُ زِنَتُها على خمسةٍ وعشرين كيلو... الأمر إذاً هيِّن، إن نصفَ ساعة أو نحوَ ذلك ليكفى لإعداد متاعٍ لا يزيد وزنُه على هذا العدد.

واطمأنَّ قلبى، وهدَأ بالى... يبدو لى أن أهبَةَ السفر ليست من التعقيد على النحو الذى كنتُ أتصوَّره...

وما كدتُ أستريح إلى هذا الخاطر، حتى وقعَ بصرى على إضمامةٍ منتفخة تحوى بعضَ الأوراق الخاصةِ بإدارةِ أعمالى..

وانسرحتُ أفكّر . . . يجب أن أُصفّيَ هذه الأعمال ، وأن أَكِلَها إلى من يحسِنُ إدارتَها فى غيبتى . . . ها هو ذا عملٌ ليس بالهيّنِ الميسور ، ولكن إنجازَه لا بدَّ منه على أيّة حال !

وماذا بعدُ ؟ وهنا انبرى أمامى شَبَحُ لجنة العُمْلَة ، ومن ورائه تبدو أشباحٌ أخرى : المصارِف ، مكاتب الصيارفة ، دار شركة الطيران ، وما إليها . . . وما لبثَتْ هذه الأشباحُ تتدافَعُ دونى وتتواثب ، يحاول كلٌّ منها أن يكونَ أولَ آخِذٍ بخِناقى !

وفى أثناء هذا الهَرْج والمَرْج أحسستُ دبيباً فى دُرْجِ مكتبى ، وهمْساً يَرِفُّ على مسْمَعِى ، وإذا بى أنصت إلى من يقول : أنا رائدُكَ الأولُ . . . أنا مفتاحُ الطريق . . . لن تستطيعَ بغيرى سَفَراً !

فجذبتُ الدُّرْجَ إلىّ ، فإذا بِجَواز السفر يعلو هامته جدٌّ مُمْعَتِنٌ . فمددتُ إليه يدى فى تَخَشُّع ، ثم انثنيتُ أميطُ عنه الغُبار !

أمامى تلك الأيامُ الأربعة ، لإنجاز هذه المهام وما يتصلُ بها أو يتفرّع منها . . . ومن هذه الفترةِ القصيرةِ يومُ الجُمُعَة الذى تُغْلِقُ فيه مصالحُ الحكومة أبوابَها ، ويومُ الأحد الذى تأخذُ فيه المصارفُ ومكاتبُ العملة قسطها من الراحة والتعطّل .

فليكنْ ... أمامي يومان ، ثمانٍ وأربعون ساعةً طوالٌ عِراضٌ مهما نقتطعْ منها ساعاتِ نوم واستجمام فالبركةُ فيما يبقى !

وشمَّرْتُ عن ساعد الجدّ ، وأطلقتُ ما أختزِنُه من قوة ونشاط وحماس ، وانطلقتُ أعمل . . . كان مَثلي كمَثل تلك الأشباح السِّينمَيَّة حين يُخْطِئ العاملُ في تحريكها فتلمَحُها على الستارةِ البيضاء خواطفَ مضطربات !

وانكببتُ على الاستمارات أستوِى في تحريرها ، فما أكاد أفرُغ من واحدة حتى تعترضَني الأخرى . أما الإمضاءاتُ فكنت أبعثرُها ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال . وجعلتُ أذرَعُ الطريقَ بين لجنة العملة والمصارف وبين المصارف ولجنةِ العملة مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ ... إن شركة الطيران تستمسكُ بموعدها لا تتأخر عنه ، وإن المَصرِفَ لا يحوّل مليما واحداً إلا بتصريحاتٍ مستوفيةٍ للشروط ، مذيلةٍ بإمضاءات معترفٍ بها على أوراق رسمية ، ولكن لجنةَ العملة لا يعنيها من ذلك كلِّه شيء ، فأعضاؤها الموقَّرون في شُغُل بشئونهم وآفاقهم عن ضيقِ الوقتِ ودقةِ الموعدِ وتعجّلِ الناس !

وتعلمتُ بين عَشِيَّةٍ وضحاها كيف أكونُ هجّاما لجوجا

مِلْحَاحاً ، واستبانَ لى ما لهذه الصفاتِ المباركةِ من فوائدَ طالما أنكرتُها وأنحيتُ باللائمةِ على ذَوِيها ...

ثم ألفيتُنى بغتةً ، وانا أتلقَّط « الدولاراتِ » من مكاتب الصيارفة ، قد أصبحتُ بالرغم منّى خبيراً فنّيًّا فى العملة الأمريكية ، أميّز بين « الدولار » الجيّد والزائف ، الحَرْبِىّ والمدَنىّ ، المُبَاح والمحظور !

وأحسستُ بأعصابى تنهار ...

إنها حربُ أعصاب فى مُقْتَبَلِ ساعاتِ السَّلْم !

وأخيراً تمّ كلُّ شىء بما يُشْبِه المعجزة ، ووجدتُنى مزوّداً بكل ما هو مطلوبٌ من التصريحات والمستندات والمُعدَّات . . .

وألقيتُ نظرةً خاطفةً على مِحْفَظَةِ جيبى ، فإذا هى قد تورَّمت ، وإذا بسطحها قد بدا عليه ما يُشْبِهُ التضاريس والهِضَاب !

وحلّت ساعةُ الميزان ، فمرَرْنا بحقائبنا فى الطريق إليه كأننا نجتاز الصِّرَاط .

ثم صَعِدْنا فى السيارة الحافلة معرُفْقَةِ السفر ، وبدأنا نتعرّف إليهم بنظراتٍ حَيِيَّة متعثِّرة ، وكأنَ لسانَ حالنا يقول : أمقبِلون نحن على سفر يسلِمُنا إلى عالمنا المنشود ، أم على سفر يصيرُ بنا إلى عالم الخلود ؟

وتحركتْ السيارةُ الحافلة ، تتأثَّرُها سياراتُ المودِّعين ، وكانت الساعةُ قد جاوزت الواحدةَ بعد منتصَفِ الليل .

وقضينا الوقتَ فى صمت لا يقطعُه إلا نِثارُ ألفاظ وظلالُ ابتسامات تضطربُ بها الشِّفاه ...

ودخلْنا مطارَ « بين فيلد » تلك المدينةَ التى شيَّدها الأمريكيون فى أحرج ساعات الحرب ، تلك المدينةَ العامرةَ الزاخرةَ تخترقُ رحابَها الطرقُ الفسيحةُ المعبَّدة ، تلك المدينةَ التى تبدو فى ظلمة الصحراء المترامية وقد أضاءتْها سواطعُ المصابيح الكهربيَّةِ معلقةً فى الفضاء أو متناثرةً على أديم الأرض .

واقتادونا إلى « الجمرك » . . . وما إن بلغتُ حوزتَهُ حتى ثارتْ فى نفسى ذِكْرَياتٌ غيرُ محبَّبَة .

« الجمرك » . . . هو تلك الساقيةُ العظيمةُ تدورُ رَحَاها فى قوة وجبَروت ، ولكنها فى واقع الأمر تدورُ على نبع غاضَ ماؤه ، وإنك لتسمعُ نَعيرَ هذه الساقية يشقُّ أجواز الفضاء ، ولا تلمَحُ لمائها من أثر !

« الجمرك » ... هو تلك المؤسَّسَةُ التى أنشأها قوم حاقدون على البشريَّة ، فاتخذوها أداةَ تنكيل ، وسوطَ عذاب !

إجراءاتٌ تافهة تُثيرُ الضحك إن لم تُثِر الغيظ وتُرْهق الأعصاب .

وظهرت الاستمارات عوداً على بدء . .

علينا أن نحررها ، وأن نستوفيها بإجاباتٍ غاية فى التفاهة ...

وَحنَيْنا هاماتِنا نكتُب ونُمْضِي ، وأحياناً نسأل :

ما المرادُ بهذا السؤال ؟ وكيف يكونُ عنه الجواب ؟

وارتفعتْ يدُ الضابط بالخاتَمِ العظيمِ تضرِبُ هنا وهنالك فى مهارةٍ حرِيَّة بالتقدير . . إنه ليضربُ ضرباً محكماً كأنما يسدِّد الطعنَ فى ميدان القتال... وأخذ الضابطُ الهُمام يجفِّفُ ماتفصَّد من جبينه فى زَهْو المنتصرِ الغلاَّب... ألم يؤدِّ عملاً بالغَ الجلالة عظيمَ الخَطَر ؟ إن ورقةً تخلو من ضربة واحدة من خاتَمِهِ العظيمِ كفيلةٌ أن تَقْضِيَ على صاحبها التاعِسِ بالحِرْمان !

ثم اتجهنا إلى الخِوان الطويلِ صُفَّتْ عليه الحقائب ...

هذا ضابطٌ آخرُ تَشمَّر واهتَمَّ ، وأخذ يتصايح :

تلك الحقيبةُ تُفْتَح ، أما هذه فتُحملُ إلى الخارج ، ماذا فى هذه اللَّفيفة ؟ حذَارِ أن يكونَ فى ذلك الصُّندوق شيء محظور !

فلا تكاد الكلماتُ تتناثر من فمه ، حتى تتحركَ الحقائبُ

وما إليها من الأمتعة غادية رائحة كأنما تحركها يد ساحر!

ومثلنا أمام الخوان، كلٌّ منا يرتقب نوبته، فدهمني شعورٌ ممضّ، شعورُ بريءٍ تُهدَرُ كرامته، يرى نفسه في قاعةِ محاكمة وموقفِ اتهام؛ كأنه أحدُ مهرّبي المخدّرات!

وأخيراً أفرِج عنّا، فخرجنا «طابوراً» من بَهْوِ «الجمرك» ومن حولنا الأهلُ والرِّفاق... خرجنا إلى ساحةِ المطار، فإذا «أبو الهول» رابضٌ أمامنا، باسطٌ جناحيه، على أهْبَةِ الطيران.

كان باسمه التاريخيّ العتيق وهيكله العصريّ الحديث، كأنما يجمعُ بين جلال الماضي التليد ومدنيّة الحاضر المشرقةِ الزاهية...

إنه رمزُ حضارتين عظيمتين: حضارة «مصر» العريقةِ، وحضارة «أمريكا» الفتيّة المتوثّبة.

ولبثتُ لحظةً أتأمّله.

لستَ جماداً يا «أبا الهول»!

ما أنتَ إلا مخلوق حيّ، طائرٌ ضخم من فصيلة النسور والعِقبان، بل أنت أخو الرُّخّ وصِنوُ العنقاء، طائرٌ هائلٌ الجِرْمِ مما تدورُ عليه أساطيرُ الأوّلين..

نحن مقبلون على أن نحيا معك فى أسطورة جديدة نخطها معاً فى سفر الوجود !

ما أبهاك فى لونك الفضى !

إنك لتتألق وسط الظلام كشعاع الفجر ينتظر خلف أستار الأفق البعيد .

سنسلمك أرواحنا أيها الطائر العظيم ... فهى وديعتك ، إن شئت أضعتها هباء ، وإن شئت كنت لها نعم الحافظ الأمين .

وتلفت حولى ، فإذا بى أنا وزوجى يحيط بنا المودعون .

إذاً حانت ساعة الوداع ...

وشعرت بغتة كأن قلبى تعصره يد قاسية ...

وثارت بى فجأة ذكريات ... ذكريات يزحم بعضها بعضا ... ذكريات شتى جليلة وتافهة !

فى هذا الموقف الدقيق تتخايل لنا حادثة قديمة ليست بذات بال ، أو يبدو لنا وجه نعجب كيف انفسح له مجال الظهور ؟

وتتداعى المشاهد فى مخيلتنا ، وتتلاحق سراعاً ، حتى

تتجمّع كلّها وكأنها تدور حولَ مِحْوَرٍ واحد ولا تفتأ تَدُور .

وننظر إلى المودّعين نظرةً ساهمة ، ونبدأ نودّعهم مصافحين أومقبّلين ، وتثُورُ فى النفس رواقدُ الشجون ، وينكشفُ للمرء منا تفاهتُه العجيبة، وتنهارُ فى لحظاتٍ تلك الشجاعةُ التى نتغنّى بها مُفاخِرين ، فنغدو نحن الرجالَ أمام وَداعِ طفل صغير قد تصاغرْنا وأصبحْنا فى مثل حجْمه وعقْله وشعوره !

أى بُنَىَّ :

إن وَداع الأحياء رائع مُثِيرٌ لِأَخْفَى كوامن الشعور ، ولكن ثِقْ أنه لا يُقاس بشىء أمام وَدَاعِ « الراحلين » !

إننا حينَ نودِّعُ الحَىَّ فإنما نشاهدُه ونَلْمِسُه ونناقلُه الكلام ، أما « الراحلُ » فإنما نستشعرُ وجودَه فحسب . . . إنه يبدو من أغوار الظلمات ليطالعَنا من بعيد ، متخذاً له مكاناً نائياً عن الزحمة والضوضاء ، لا نشافهُه بحرف ، ولا نودِّعه بقُبْلة ، ولا نبادلُه شيئا حتى الإشارة والتلويح !

ثمةَ نظرات صامتة ، تصحَبُها ابتسامات رقيقة كلُّها صفاء وحنين .

هذا الطيفُ الرقيقُ يظلُّ فى أفقه ، لا صلةَ بيننا وبينه إلا صلةُ الروح بالرُّوح . . .

أى بُنَىَّ :

« ها هو ذا كلُّ شىء قد اختفَى من حولنا ، فلم يعد إلا أنت
وأنا وحدَنا .

لقد تزايلتْ أصواتُ الأحياء بما تحملُ من تحية وتوديع ،
وبَقيتَ أنتَ .

أنتَ الوحيدُ الذى ما زلتُ أراه .

إنك لتملأُ علىَّ الرِّحابَ والآفاقَ .

وإنى لأحسُّ وجودَك إحساساً كلُّه صدق ويقين ..

وجودَك مادةً متجسِّدَةً لا طيفاً من عالمَ الرُّوح !

حقًّا إن الموتَ لأعجزُ من أن يفرِّقَ بين حبيبَيْن .

إنه ليوهمُنا أنه أقام بيننا الفواصلَ والحدود .

زُورٌ وبُهْتان !

ما أغفلَك أيُّها الموت ...

تحسَب أنك انتصرتَ ، وما أنتَ إلا منهزم مقهور !

... وصعِدْنا فى الدَّرَج ندخُل « أبا الهول ».

وغِبْنا فى جَوفه، فكأنّما التقمَنا حُوت !

وطافتْ بمُخيِّلَتى قصةُ « يونُس »، فساءلتُ نفسى:

أيكون حالُنا كحالِه، ومآلُنا كمآلِه ؟

وقصدتُ أحدَ المقاعد، فتهالكتُ عليه.

وسمعتُ صوتَ الباب يُدْفَع بشدَّة، فإذا هو يفصِلُ بيننا وبين عالمِ الأرض !

وتراءتْ لأعيننا جملةٌ مكتوبةٌ بأحرفٍ من نور :

« التدخين غيرُ مباح ... لِيَشُدَّ كلٌّ منكم حِزامَه ».

وسرعانَ ما شاهدتُ شابًّا طلقَ المحيَّا فى حُلة رمادية رسميَّة تنطقُ كلُّ جارحة فيه بأنه أمريكىٌّ أصيل، فدنا منى فى تلطّف، وأخذ يُعيننى على عَقْدِ النِّطاقِ حولى، فأصبحتُ إلى مقعدِى مشدوداً لا أستطيعُ البَراحَ.

وبدأتْ المحرِّكاتُ تُدَوِّى، وأحسستُ « أبا الهول » يتحرَّك، وما هى إلا أن رفعَ هامتَه، فإذا نحن بعدَ لحظات نشقُّ الأجواء صُعُداً إلى السماء، تحيِّينا بسَماتُ السَّحَر !

٦ ابريل سنة ١٩٤٦

كانت أصوات المحرِّكات ما برحتْ تَطِنُ وتُدَوِّى ، والطائرة تمرُق فى أجواز الفضاء مُروقَ السهم، بل مروقَ النور ، وأنا ممدَّد على مقعدى الفسيح الوَثير ، ذلك المقعد الطيِّع الوديع ، فإنك بلمسة واحدة تُحيله سريرا ممهَّدا ، وبحركة خفيفة تُعيده مقعَداً كما كان . . .

وشعَرْتُ بجفنَيَّ يتثاقلان ، فأنفَذْتُ بصرى فى جَهد من الطاقِ المجاور لى ، لكى أستوضحَ مكانَنا فى الجوّ ، قبل أن أستسلمَ للسُّبات ، فلم يطالعْنى إلا ظلام بدأ يشِفّ وترقّ غلالته . ولمحتُ ابتسامةَ الفجرِ تلُوح فى حياء وخفَر من وراء الأفُق ، كما تلوحُ ابتسامة العذراء خلفَ النِّقاب !

ورَجعتُ البصرَ أردّده فيما حولى ، يحدونى فضول ، فلم أجدْ إلا أجساداً ترامت فوقَ المقاعد . . . ولا حظت اختفاء

اللوحِ المضيء الذى كان يُعلِنُ حظرَ التدخين ويأمر بشدِّ الأحزمة .

وبدت حسناءُ أمريكيةُ السَّحنة تتدانَى منى فى حُلَّتها الرمادية الرسميَّة ، لتُعينَنى فى تلطُّف على فكِّ النِّطاقِ ، ولتبسُطَ على رُكبتىَّ دِثاراً من الصوف ... إن النساءَ حقًّا بقلوبهِنَّ الرِّقاق لماهراتٌ فى فكِّ إسارِ السَّجِين ، وتفريجِ شدَّةِ المكروب ، وإنهنَّ بغريزتِهنَّ الأصيلةِ لماهراتٌ أيضاً فى تَصْفيدِ القلوب !

وأخذَ الكرَى يغالِبُنى ، فشعرتُ بجفْنَىَّ يتراخيان .. وإذا بِشبحَىْ الفتاةِ والفتى الأمريكيَّيْن فى لَبُوسِهما الرمادىِّ يتخايلان أمامى متزايليْن ... إنهما أقربُ ما يكونان شَبهاً بكواكب « السينما » الأمريكية ، فى وسامتهما ، فى رشاقتهما ، فى شمائلهما العِذَابِ ... أفى طائرةٍ نحنُ تقصِدُ موطنَ « السينما » أم نحن فى « هُليود » نفسها نشتركُ فى تمثيل « فِلْم » عظيم ؟ !

واستبدَّ بى الكرى ، وأحسستُ قُشَعْريرةَ البردِ تنتظِمُنى ، فتجمَّعْتُ على مقعدِى أتلفَّفُ بالدِّثار ، وأسلمتُ نفسِى لنومٍ عميق .

وأيْقظنى صوتٌ يقول : « أثينا » بعد دقائق .

واستمرَّ الصوتُ يردِّد قوله وقتاً ، وإذا باللوْح المضىء يعود ، فقرَأنا : «التدخينُ غيرُ مباحٍ . ليشدَّ كلٌّ منكم حزامَه».

وامتدتْ يدى إلى النِّطاق أشُدُّه ، وألفيتُ أشعة الشمس قد تسللَت من الطاقات ، وأخذتْ تعبَثُ بنوم النائمين !

«أُتِينا» بعد دقائق . . .

نظرتُ فى ساعة يدى ، فألفيتُها الثامنةَ صباحاً .

لقد عبرْنا سمــاءَ « بحر الروم » فى ثلاثِ ساعات ونصفِ ساعة..

يا سبحانَ اللهِ ! . . . هذا البحر العظيمُ تعبرُه البواخرُ فى أربعةِ أيام ، وكانتْ مراكبُ الأقدمينَ تعبرُه فى أربعةِ أسابيعَ : فها هو ذا الأسبوعُ ينطوِى فى يوم ، وها هو ذا اليومُ ينطوِى فى ساعة ! . . .

ماذا يخْبأ لنــا العقلَ البشرِىّ من أعاجيبَ ؟

ماذا يفْجَؤُنَا به الزمن من أحداثِ الغد ؟

ماذا يكون من الأمرِ إذا تمَّ اختراعُ القذائفِ تدفَع بالطائرة من أقصَى الأرجاءِ إلى أقصاها فى غَمضةِ عين ؟ . . .

ربِّ ارحم الأرضَ من عقولِ شياطينِ البَشَر !

وتطلعت من الطاقِ ، فرأيتُ « أتينا » تَنْبَسِط تحتَ أنظارِنا بأبنيتها المتواضعَة الساذَجة ، وخُلْجَانها الرشيقة المُتعرِّجَة ، وحقولها التى تتخلَّلُها المروج ، وجبالِها التى يبدو بعضُها مُورقاً غيرَ ماحِل .. وتَراءى لنا « الأوكروبل » بأعمدَته كأنَّه على البُعد يَخِفُّ لاستقبالِنا طاوِياً إلينا سوالفَ العصور !

وما هى َإلا أن أسفَّت الطائرةُ تصافِحُ الأرضَ .

ونزلنا . .

إنها « أوربا » التى نخطُو عليها ، وكنا قبلَ سُوَيعاتٍ نخطو على أرض « مصر » . . .

أى « مصرُ » ياوطنى الحبيبَ : إنه ليفصلنى عنك الآنَ بحر موَّاج عجَّاج ، أميال وأميال ، وإنى لأَحِسُّ على الرغم من مُثُولِ الطائرةِ لعينى ، ودلالةِ الساعةِ على قِصَرِ الزمن بينك وبينى ، أنكِ قد أصبحتِ بعيدةَ المنالِ منِّى !

ورأيتُنى أدلفُ إلى مَقْصَف المطار : بَهْو ساذَج غيرُ فسيحِ الجنَبات ، مُدَّتْ فى أرجائه الأخونةُ المستطيلة . وقبلَ أن أملأ منها عينى وجدتُها قد غَصَّتْ بالقُصَّاد ، كأنهم سِرْب من الجراد يُطْبِقُ على حقل خَصيب . . . ووقفتُ خلفَ خِوان

أتلفَّتُ حولي في عجَب ، وسُرعانَ ما ظهرتْ غادتان إغريقيتان تحملان صِحافَ الأطعمة وأكوابَ الأشربة تطوفانِ بها على الجالسينَ في سرعة خاطفة . وما هي إلا أن انطلقتْ الأيدي تغدو وتروح بين الصِّحاف والأفواه ، وانثنت الأسنان تطحَن وتلوك ، وسمعتُ قرقرةَ «القهوة» تُسْكَبُ في الأقداح ، وتندلق في الأشداق ...

وبينما كان يجْري ذلك في حركةٍ دائبة ، ظَلِلْتُ في موقفي خلفَ الخِوَانِ ، تتطلّع عيناي في صَمْتٍ وسكون .

وأخيراً سمعتُ صوتاً دَفِيناً يتعالَى من صميم أحشائي ، وكأنه يقول : أتَظَلُّ ترقُبُ المعرَكةَ دون أن تخوضَ غِمارَها ؟!

وشعرتُ على الفور بالحَمِيَّةِ تتَّقِد بين أضالعي ، فصحَّحتْ عزيمتي على أن أعْملَ . فلبثتُ أترصَّدُ لغادتَيْ المقصف ، كلما طلعتْ إحداهما ناديتُها أذَكِّرها بأن ثمةَ جنديًّا قد أخلفه الحظّ ، ورمَى به في ساقةِ الرَّكْبِ ، يطلُبُ النزولَ إلى الميدان ، ليشتركَ في الضرب والطّعان ... ولكن ندائي لم يَلقَ أذُناً صاغية ... كانت الغادتان لا تُعيرانِ وجودي أيَّ التفات ، إنهما تذهبان وتئُوبانِ كأنهما دُميتان صَمّاوان !

ليستْ بكما رِقّةٌ يافتاتَىْ المقصَف، وليس لَكُما مَسحة من جمالِ الإغريقِ التَّلِيد !

أينَ ما تَغَنَّى به شعراء الزمن من تلك الرِّقّة وذلك الظَّرْف ؟ أين قَوامُ « فِينُوس » الذى فَتَنَ الأجيالَ ، وغدا مِقياساً للوَسَامةِ والفُتُون ؟

لستما إغريقيَّتَيْن وحقّ الآلِهَة !. . . ما أنتما إلا مخلوقتان يونانيّتان صُبَّتا فى قوالبَ أمريكيَّة زائفة !

وكاد يُدْرِكُنى اليأس، وحسِبْتُ أنى لن أصيبَ فَطُورى، وأنى سأقضى فترةً فى صيام . . . ليس علَىَّ فى ذلك من ضَيْر ، فلأجرِّبْ حظّى من الصوم فى غير إبّانه ! . .

وبدأتُ أستعيدُ ماوعَتْه الذاكرةُ مما تَفِيضُ به صُحُفُنا المصريةُ فى مُسْتَهَلِّ شهر رمضان من فلسفة الصَّوم : وما يُفِيئُه على الجسد من بركة وخير . . . وكنتُ أجترُّ هذه الخواطرَ فى استمتاع ، وأهْضِمُها على مَهَل !

وصحوتُ من تفكيرى على يد كريمة تجتذبنى إلى مكان تخلّى عنه صاحبُه ، يدِ زوجى وهى تقول :

أسْرِعْ ، فليس فى الوقت متّسَع . . .

يبدو لى أن زوجى لم تشاركنى التفكيرَ فى فلسفةِ الصوم ، وما فيه من تطهيرٍ للنفس وإصلاحٍ للجسد !

وأقبلتُ على الطعام والشراب . . . إنه طعام أمريكىّ من الصّنف الشائع : عصير « جريب » ، « فروت » ، ضرب من الفَطائر مشربَ بسائل البيض ، قهوةٌ فيها مِزاجٌ من لبن ، إلى شَذَرَاتٍ من زُبْد ، وقليل من مُرَبَّيات .

وفَنِيَتْ الخمس والثلاثون دقيقةً التى منحناها للراحة فى « أتينا » ، فارتفع صوتٌ يدعونا إلى مغادرة المقصف ، وهُرِعْنا إلى الطائرة . . .

صوتُ الباب يُقفلُ ، ذلك الفاصلُ الحديدىّ بيننا وبين عالمِ الأرض .

المحرّكاتُ تُدَوّى .

عُروجٌ إلى السَّماء . .

حللْنا « أتينا » ورحلنا عنها ، دون أن تكتحِلَ أعينُنا بمرأى شىءٍ منها .

أحسنُ ما ظفرْتُ به من « أتينا » هو تلك الذّكريات التى طافتْ برأسى ، فارتقتْ بى وقتاً إلى سماواتِ « الأولمب »

أشهد الروائعَ من أساطير الأوَّلين .

هذه إحدى مساوىء الرِّحْلة بالطائرة ! . . . إن الطائرةَ لتمرُّ بكَ على المدائن مَرَّ البرْق ، فلا ترَى منها إلا ظلالها ، أما معا لِمُها ومجا لِيها فلا تستمتعُ منها بقليل ولا كثير .

وغَلبنى الكرى ثانيا . .

ويحَكَ من زائر بغيض فى هذه الساعة الفريدةِ أيها النومُ العتىّ ! . . . إنك لتحرِمُنى أن أشهدَ ما يجرى حولنا وما يلوحُ تحتنا من ملكوتِ الله ! .

وما كدتُ أراجعُ يقظتى ، وألقى بنظرةٍ من الطاقِ حتى طالعنى بحرٌ تسبَح فيه جُزر تسترعِى الانتباه بجمالِ أوضاعها ، ورشاقةِ حجُومِها ، كأنى أقلِّب الناظرَ فى مصوَّرِ جغرَافىٍّ مجسَّم مما تتحلى به المتاحِفُ الحديثة .

ثمَّ ما عتَّمْنا أن وجدْنا أنفسَنا نحلّق فى آفاق « إيطاليا » : جبال وسهول ومروج .

فسرَّحْتُ عينىَّ ترتويان من خِلاَبةِ هذه المفاتن ...

وما بلغتْ الساعةُ منتصَفَ الواحدة بعد الظهر ، حتى تجلَّت « روما » بمبانيها العظيمة ، وقِبَابِها الرائعة

هبوط ...

خروجٌ إلى مَبْنَى المطار... لم يَرُعْنا منه جديد. أمامه ساحة محدودةٌ مُسَوَّرة، أطلقونا فيها لنَروضَ أقدامَنا على الخطْو، فكنّا فيها بين ذهاب وأوبة نمُدُّ أبصارَنا فيما حولنا نستطلعُ الجديدَ من الوجوه، فكأننا قطيعٌ من الحيوان فى حَظيرةٍ تنظُرُ إلى نَفَرٍ من المتفرّجين!

وقضينا فى تلك الحظيرة الآدميَّة ساعةً، ثم عُدنا إلى الطائرة، وعادت هى تستأنفُ التحليق.

وخلوتُ إلى نفسى أقيِّدُ خواطرى، وأنا ممدَّدٌ على ذلك المقعدِ السِّحرىّ، وما هى إلا أن صافح أذنى صوتٌ رقيق يسترعى انتباهى، فإذا الغادةُ الأمريكيةُ ذات الحُلَّة الرمادية الرسميَّة تضعُ على ركبتىَّ صينيَّةً صينيةً بلَّوْرِيَّةً يتأرّجُ منها شَذَا الطعام. وجعلتُ أتطلّع إلى الصينيةِ معجباً بها... لقد قُسِّمَتْ أقساماً تمتازُ بالدِّقَّة والأناقة والنظافة: هنا موضع يحتلُّه إناء الحَساء، يرافقه موضعٌ لقدح القهوة، يناصِرُه موضعٌ ثالثٌ لكوبٍ مُلِىءَ بعصير «الطماطم»، وهناك ركن يَزْخَر بلحم وأشتات من الخُضَر، وعن كَثَب منه كُوبٌ من الورق يحوِى جانباً من المربَّى، وقطعةٌ رشيقةٌ من الفطير.

ها قد بدأنا نتذوق معالِمَ « أمريكا » . . .

وانبريت أتناولُ طعــامى فى شهيَّة نادرة ، تغمرنى طُمَـأنينة ودَعة .

أين وَجْبَـةُ « أتينا » المرهِقةُ الخاطفةُ من هذه الوجبةِ الهنيـئةِ المُريحة ؟ !

وآنَسْتُ فى حركة الطائرة اضطراباً كاد ينفلت منه كُوبُ عصيرِ « الطماطم » من يَدِى ... فتلفّتُّ أتبيَّنُ الأمرَ فى انزعاج، فإذا بالطائرة لا تفتأ تضطرب ... تُصَوِّب وتُصَعِّد... وتذكّرْتُ ما سمعتُه قبلاً فى شأن « جيوبِ الهواء » التى إذا صادفَتْها الطائرة فى تحليقها تعثَّرتْ خطاها .

وتكرَّر هذا الاضطرابُ وقتاً ونحن نترنَّحُ فى مقاعدنا ، وحِيالَنا الصوانى تتراقَص ، فنحاولُ أن نتابعَ أكْلَنا ، نوهِمُ النفسَ أنْ ليس فى الأمرِ ما يَرِيبُ !

وألقيتُ بنظرة من الطاق ، فألفيتُ الطائرةَ تعلو على السُّحُب ، تمرُّ من فوقها فى زَهو وخُيَلاء .

ومرَّ ذو الحلة الرمادية الرسميّة بجانبى ، وابتسامتُه تحلّى

مُحَيَّاه ، فوجدتني أستوقفه لأحظى منه بكلمة يَطمئِنُّ إليها القلبُ ... فقلتُ :

رِحلة لطيفة !

— من ألطف الرحلات . . . إننا نعلو على سطح البحر نحوَ ثلاثةِ آلافِ متر ، ونسير بسرعةِ مائتَيْ ميلٍ في الساعة .

وتبادلْنا رقيقَ الابتسام .

وعدتُ إلى كُوبِ « الطماطم » أشْتَفُّ ما فيه ، وعادت الطائرةُ تعابثُنا بخطاها المتعثرات .

ماذا بك يا « أبا الهول » ؟

لقد كنتَ رزيناً وقُورا ، فما بالُك تخلعُ ثوبَ الرزانة والوقار ، وتمضى متراقِصاً متخلِّعاً ؟

معذرةً ! . لا تَراقُصَ منك ولا تخلُّعَ ، إنك تُريدنا على أن نحسَّ وجودَك ، وتعرِّفُنا أن أرواحَنا رَهْنُ مشيئتِك ، وأنك شديدُ البأسِ في مجابهةِ الطبيعة ومناوأةِ الرياح !

على أن « أبا الهول » ما لبث أن عاودَه وقارُه واتزانُه ، فاستأنفنا الأكلَ في هدوء واطمئنان .

ولاحتْ معالِمُ « سويسرا » تحت الأنظار . . جبال

شوامخُ تعتمُّ قِممُها بناصِع الجليد، كأنها نُسّاكٌ من الشيوخ متعبِّدون عليهم جلالة ومهابة، ترفّعوا عن زَحْمَة الحياة وضجيج الأرض، تَخلوْا إلى أنفسهم معتكفين.. . وهنا وهنالك نُقَط متناثرة، تلك هى البُحَيْرَاتُ السويسرية، تَشْخَص إلينا ملتمعةً كأَنَّها أعينُ الغوانى تحاولُ أن تُوقِعَنا فى حبائل الفتنة والسِّحْر!

واجْتَزْنا المِنْطَقة السويسرية، وانثنَتْ تحيينا سماء «فرنسا»...

لقد قطعت الطائرةُ فى رحلتها شوطاً طيِّباً.

وأصبحنا نحن رُفقةَ السفر، نشعُر بأننا أسرة واحدة، تربطنا أواصرُ مودَّة وصداقة ليستْ وليدةَ ساعات، فإننا لَيُحَيِّي بعضُنا بعضاً من قريب أو من بعيد، بمناسبة أو بغير مناسبة؛ وإننا لنتهادَى الابتسامات، وإن لم يكُنْ ثمةَ ما يبعثُ على الابْتسام. وقد يرى أحدُنا حَلقةً من رفاق يخوضُون فى حديثٍ ذى شأن، فيُقْحِم نفسَه بين المتحدِّثين، ويطارحهم الرأى، ويبادلهم النِّقاش، دون أن تكونَ له بهم سابقُ معرفة أو مخاطَبة!

لقد شمِلَ الطائرةَ جوٌّ من ملاطَفةٍ وإيناس... كُنَّا أفراداً

متباينين ، مختلفين أشدَّ اختلاف ، بينَنا المُسْلِمُ والمسيحيّ والإسرائيلي ، المِصْرِيّ والأمريكيّ والفرنسيّ واليونانيّ والإيرانيّ ، الكاتبُ والطبيبُ والدبلوماسيّ والاقتصاديّ ، الصبيّ الناشئ والفتى الفارعُ والرجلُ الناضج والشيخ الهرِم.

وعلى الرَّغْم من ألوانِ هذه الفروقِ لم نكن نحسُّ إلا أننا لِآدمَ ننْتَسِب، وأننا إخوةٌ متوافقون ، لا حِقْدَ ولا منافسةَ ولا كبرياء ، ولكنْ تعاوُنٌ وتآلُفٌ ووِئام .

بُورِكَ فيكَ « أبا الهول » !

لقد صهَرْتَ في بُوتَقَتِكَ الفِضِّيَّة فُروقَ الجنس والسنّ والدين ، وأحلتَنا أناساً من طراز أرفعَ وأسمى من طراز البَشر !

وسمعْنا صائحاً يقول :

سَنَهْبِطُ « باريس » بعد هُنَيْهة .

ووجدتُني أتحسَّس وجهي ، فاصطدمتُ بتلك الشَّعَرات الخَشِنة تملأ عارِضي . . .

وَيلاه من تلك اللِّحَى الكريهةِ التي تطلِق لنفسِها حريةَ النُّمُو في غير حياء ولا تورُّع . . .

لقد نسيتُك ياصاحبى !

سأقصِد توًّا إلى المَغسِل لأزيلكَ فى طرْفةِ عين ...

ولكن أنَّى لى أن أتركَ تلك الجلسة المريحة على مقعدى الوثير ، وأنا أهيمُ فى آفاقٍ من الذِّكْرَياتِ والأخيلةِ أفسح مما تَهيمُ فيه الطائرة من آفاق ؟

أنى لى أن أتركَ مكانى حيث أستمتعُ بما أطلُّ عليه فى مجلسى من روائعِ المشاهد ؟ ...

أىُّ ضَيْرٍ فى أن نُرْجِئَ أمرَ اللحية إلى حين ؟

ولاحتْ « باريسُ » تحتَ الأنظار ، « باريسُ » العظيمة ، غانيةُ المدائن ، وفاتنةُ الحواضر ، ومَحطُّ الرِّحال من كل صوْب وحدَب !

ما كدنا نطأ الأرضَ الفَرَنسِيَّةَ ، حتى صاح بنا صائح يقول : الرحيل بعد ثلاثة أرباع الساعة .

فأسرعْنا إلى ساعاتنا نتبيَّن فيها الوقت ، فإذا نحن فى منتصَف السادسة ، ولكن سرعانَ ما نبهتْنَا ساعةُ المطار إلى أن الوقتَ هو منتصَف الخامسة ، فأدركْنَا أن الستينَ دقيقةً هى فرقُ الوقت بين « مصر » و « باريس » .

وخطونا إلى مَبْنَى المطار ، فما راعنا إلا ذلك الصوتُ العَتِيُّ يصيح مجلجلا : المبيتُ الليلةَ فى « باريس » !

وتبادلْنا نظرات العَجَب والدهشة ...

لم يكن فى بَرْنَامَج الرحلة أن نقضىَ ليلةً فى مدينة النور .

فِيمَ هذه المفاجأة ؟ أَجدٌّ أم ؟ وعرفْنا بعد طول التَّحَرِّى والاستقصاءِ أن ليس الأمرُ إلا نزوةً من نَزَوَاتِ الطَّيَرَان !

ودخلْنا قاعةَ «الجمرك» لننالَ قسطَنا من العذَاب والإعْنَات .

وظهرت الأختامُ تضربُ صحائفَ الجوازات ، ونُشِرَت الحقائبُ على الخِوَان ، ووقفْنا أمامها صفًّا كصفٍّ المسجونين ، كلٌّ ينتظر دَوْرَه وحسابَه !

وتركْنَا القاعةَ يقودُنا رجلٌ رَبْعَةٌ أشقَرُ يحمل فى يده

قائمةً بأسمائنا، وكانت القائمةُ لا تفارق كفَّه، وهو لا يفتأ يردِّد النظرَ فيها، يحاول أن يَحُلَّ طلاسِمها...ووقفَ بنا أمام السَّيارةِ الحافلة التي أُعِدَّتْ لنقلنا إلى المدينة، وبدأ يُلْقِى علينا تعليماتِه فى شأن المَبِيت والغُدُوّ إلى المطار... كان يُلْقِى هذه التعليمات بلغةٍ فَرَنْسِيَّة صحيحة، ولكن بلهجةٍ غيرِ باريسية... لعله من سكان «الألزاس» وما إليها: عينٌ زرقاء، وشعر مُذَهَب، ومُحَيًّا سَمْح صَبِيح...

وصَعدْنا فى السيارة، فوقف الرجلُ ببابها ينادِى الأسماء، يستوثِقُ من وجودنا، كأننا تلامذةُ مدرسةٍ يريد أن يُثْبِتَ الحاضرَ منهم ويعرفَ المتخلِّفَ.. كان يلفظُ الأسماء فى تحريف يبلغُ حدَّ الشذوذ، فيثيرُ عاصفةً من الدُّعابة والمَرَح ذكَّرَتنى معابثاتِ الصِّبية لأساتذتهم فى معاهد التعليم، ولكن الرجلَ كان يتلقَّى هذه المعابثات بصبرٍ واحتمالٍ جديرَيْن بالتقدير.

وانصرفَ عنَّا الرجل يستوفى الغائبين، يتصيَّدهم فيما يلوح له من المَظَانّ، فلما استتمَّ العدد تحركتْ السيارة الحافلةُ تقطعُ ضواحىَ «باريس».

وجُسْنا خلال الطُّرُق الفِسَاح تقوم على جانِبَيْها الأبنية،

الشواهق ، وجعلنا نطوف بأبصارنا فى تلك الأرجاء .

أىُّ منظر هذا ؟ ثمة ركودٌ وتجهُّم وعُبوس يبدو على الجمادات كما يبدو على الأحياء سواء بسواء .

أفى « باريس » نحنُ حقاً ، وفى فصل الربيع ؟

لم نكنْ نشهدُ من مجالى ذلك الربيع إلا شُجَيرات مورقةً مِنْ حولها نثارُ أزهارٍ تعالجُ فى جهدٍ أن تتفتحَ فى إشراق !

وبلغْنا الفُندُقَ ، وكان فى جوار نهر « السين » . فندق من فنادق « باريسَ » الفخمة المشهورة ، اختارته لنا شركةُ الطيران لنقضىَ فيه ليلةَ الانتظار ، دون أن تسألنا على المَبيت فيه أجراً .

وحللْنا الفُنْدُقَ ، فاستبان لنا من أولِ نظرةٍ فيه أنه أشْبه شىء بشيخٍ طحنَتْه السِّنون ، شيخٍ عليل مهدَّم ، يحاولُ أن يحتفظ بأناقته . . .

كان كأنه ذلك « الجنتلمان » الهَرِمُ الذى أفلسَ بعد يَسار ، وما برحَ يُصِرُّ على الظهور أمامك فى لَبُوس السهرة ، بشَملته التقليديةِ ، وعصاه السوداءِ ذاتِ المَقْبِض المُفضَّض . . .

وصعدْنا إلى الغرفة ، فكان أولَ عمل قمتُ به أن أطحتُ بتلك اللحية الكريهة التى عدَتْ طورَها !

ولما استوفينا حاجتنا من الراحة، هبطنا إلى ردهة الفندق.

إلى أين؟

إلى «الكافيه دلابيه» ... لنتناول قدحاً من تلك القهوة الممزوجة باللبن، مفخرة هذا المشرب البعيد الصيت ... ولنحظى بجلسة نستعيد فيها ذكريات الماضي المحبب، وننقل النظر في الغادين والرائحين من أهل «باريس»، نتملى ما يبدونه من رشاقة وأناقة وظرف، وهم يتزاحمون على طوار الطريق يغمرهم فيض الأنوار.

إلى «الكافيه دلابيه».

وغادرنا الفندق نطلب سيارة أجرة.

ليس ثمة من سيارات ترى!

إذن فلنترجل حتى تصادفنا إحدى السيارات، إن المشى في هذه الطرق الفسيحة الجميلة وفي تلك الساعة الهادئة الوادعة رياضة مستحبة ...

وجعلنا نسير ونسير، ولا نجد لتلك السيارة المنشودة من أثر.

وكان الطريق يكاد يكون مقفراً من المارة، والسكون يبلغ أن يكون مخيفاً يبعث الوحشة في النفوس.

أفى « باريسَ » الضاحكةِ نحنُ حقًّا ؟

وبدأنا نخترقُ ساحةَ « الكونكورد » التى كانت فى الزمن السالف تتألّق، وتلبَسُ حُلّةً بهيّةً من الزُّخْرف، فإذا بها اليومَ قد رانَ عليها خمول، لا يُرى فيها إلا مصابيحُ هزيلة شحيحةُ الضوء.

وبدَتْ المِسلّةُ المصريةُ وَسْط ذلك التّجَهُّم شامخة متطلعة فى ترفُّع وإباء كالنبيلِ المُصَفَّد بالأغلال . . . إنها هى وسط الظلام والسكون ، كما كانت هى وسط الأنوار السواطعِ والحركةِ الدائبَة ... هى هى تلك الصَّمُوتُ الأبِيَّةُ تنتظرُ فى صبرٍ وأناةٍ ساعةَ الخلاص ، ساعةَ الأوبةِ إلى أرضِ الوطن !

والسيارةُ ... أين هى ؟

لا ظِلَّ لسيارة ، ولا ظلَّ لسائر !

وتابَعْنَا خطانا صامتَيْن ، وقد بدأنا نُحِسُّ الحسرةَ والإشفاق . وقطعنَا شارع « رويال » ومررنا بكنيسة « المادلين » وكانت مَهيبةً فى كآبتها ، كأنها غَضَبى تَنْعَى على الإنسان ظلْمَه لأخيهِ الإنسان !

وأفضَى بنا الطريقُ إلى شارع « الكابوسين » : ما أشبهَ الطرقَ بعضَها ببعض فيما يُخَيِّم عليها من إقفار وإظلام وخُمود .

وهذه وِجْهاتُ المخازن والمتاجِر التي طالما تبرَّجتْ للناظرين والرُّوَّاد في نضارة وتأنّق ، وتحبَّبتْ إليهم بابتسامِها الخلاَّب في لُطْف وإيناس ، يُخيَّلُ إليَّ أني أراها اليوم تَزِيغُ ببصرها عنا وتنزَوِي منكمشةً في خَجَل واستحياء ، كأنها تستنكفُ أن تكشفَ بأساءها لأنظارِ ذوِي الفُضول !

وأخيراً انتهينا إلى « الكافيه دلابيه » وقد شكَتْ أقدامُنا بُعدَ الشُّقَّة وطولَ المسير .

واخترْنا مجلسنا على الطَّوَار : حولنا موائدُ منثورةٌ لا يَعْمُرها إلا قليل من الرُّوَّاد ، ومَن هم ؟ أكثرُ من نرَى ضُباطٌ أمريكيون ومن على شاكلتهم ، يقضُون الوقتَ في ذلك الجوِّ المُوحِش الكئيب .

وأقبلَ النادلُ في سُترَته البيضاءِ التقليديةِ ، فما إن رأيناه حتى بادرناه بالطَّلب : قهوة ممزوجة باللبن ، وفطيرة « الولش » .

إنكَ إذا ذكرتَ « الكافيه دلابيه » فأنتَ لا بدَّ ذاكرٌ حتماً هذَيْن الصِّنْفين الكريمين من الطعام والشراب .

ووقف النادلُ يقلب فينا نظر المستطلِع ، ثم همهم :

يبدو لى أنكم غُرَباء!

وانحنَى علينا هامساً: هل لكم فى نصيحة؟

ثم انثنَى يقول: لدينا شىء يسمَى قهوة، ولكنه ليس بالقهوة، ولست أدرى مِمَّ يصنعونه؟ شراب لا يُساغ!

— وفطيرة «الواش»؟

— لم يَبقَ لها من وجود... لقد اختفتْ منذ أعوامٍ!

فقلتُ له وأنا أزدردُ ريقى:

ماذا تنصح لنا أن نطلُبَ؟

— كأساً من شراب... إن «باريس» لا يُعييها أن تقدِّم لكم كأساً لذةً من الخمر!

— ولكننا لسنا من مُعاقِريها... وفوق ذلك نريد أن نَتبلَّغ بشىء.

— إذن عصِير فاكهة، وقطعة من فطير متواضع.

— أحضِرْ لنا ما بدا لك.

وغاب عنا النادلُ، وتلفتُّ حولى أتطلَّعُ إلى جِيرَتِنا فى القهوة، فإذا بفرنسى تجهم المُحَيَّا عن كَثَب منا يخالِسُنا النظر، ويُرْهفُ إلى حديثنا السَّمع، وكأن لسانَ حالِه يقول:

ما لهؤلاء الغرباءِ يَطرُقُونَ بلادَنا ويزاحمونَنا على ما بَقِيَ لنا من مأكلٍ وشراب ؟!

وأقبلتْ علينا حاملةُ الفطائر ، تحمل الصينيةَ المعهودة ، فحاولْنا أن ننتقِيَ شيئاً من قليلِ ما حوَتْ ، وبعد جهدٍ جهيد وقع اختيارُنا على قِطَعٍ عِجَافٍ . . .

إن الفطائرَ كصاحبتِها تصدُّ النفسَ ، وتقتُلُ الشهيَّةَ !

وحاولْنا أن نَقْضَمَ من الفطير جانباً ، فأعْيَتْنا الحيلة ، فتركناه فى غيرِ أسفٍ عليه .

وظهر النادلُ يحمل عصيرَ الفاكهة ، وأفرغ فى أقداحِنا قارورتَيْن صغيرتين ، ثم وقف يتأمّلنا ، فقلتُ وأنا أُصعِّد النظرَ فى وجهه الكاسِف المهزول :

شَدّما تغيرتْ « باريس » يا صَاحِ !

فأجابَ شاردَ النظرات :

شد ما تغيَّرَتْ . . شَدَّما !

ثم توهجتْ عيناه بغتةً بوَمِيض قوى ، وقال فى لهجة الواثقِ المؤمنِ :

ولكن « فرنسا » ستسترد نشاطها ومظاهرَ حيويتها بعد قليل ... كل شيء سيعودُ إلى سابقِ عهده .

— حتى القهوة الممزوجة باللبن ، وفطيرة « الولش » ؟!

فابتسمَ في ظرْف ، وأجاب :

كلّ ما كان يروقُك هنا ستراه لا محالةَ ... أراهنُك على أن عاماً واحداً كفيلٌ بعَودِ كلّ شيء إلى حاله !

— أحسَبُك متفائلا ...

— وكيف لا نكون متفائلِين ، وقد اجتزْنا أعظمَ الشدائِد والأهوال ، وخرجْنا منها سالِمين ؟

— لقد مرّت بكم محنةٌ قاسيةٌ .

— إنها لأكبرُ محنةٍ مرّتْ « بفرنسا » منذ أقدمِ العصور ... ولكن ثقْ مع ذلك أننا نحن جيشَ المقاومةِ لم نلْقَ صعاباً يَعجِزُ عنها احتمالُنا ، فقد مارَسْنا الصِّعابَ قادِرين !

ورأيتُ النادِلَ الباريسيّ تتقلّصُ قسماتُ وجهه تارة وتنبسطُ أخرى ، وتتّقد عيناه طوْراً وتخبُوانِ مرة ، وهو يسترسلُ في الكلام يصفُ عهدَ الاحتلال الألمانيّ وما اضطلعَ به جيشُ المقاومة ... كان يتدفّقُ في حديثِه أيّما تدفّق ، الجملُ والألفاظُ تتواثبُ ويصارعُ بعضُها بعضاً في حرارةٍ وسرعةٍ واختلاط ،

حتى إنى لم أعُدْ أُلاحقُه فى الفَهْمِ أو الإِستماع ... ولكنه مع ذلك كان رقيقَ الأدبِ فى حديثِهِ ، يخاطبُكَ بلهجةِ الفرنسىِّ ذِى القلبِ الإنسانىِّ الكبير .

إن الفرنسىّ فى « باريس » إذا حدَّثكَ راعكَ بما يصطبغُ به حديثُه من صِبْغَةٍ رفيعة . إنه يجيدُ التحدُّثَ عن الحرّيةِ والمساواةِ والإخاء ، تلك المبادىء الأصيلةِ والأُسسِ القويمةِ التى نهضَتْ عليها الثورةُ الفرنسيةُ الخالدةُ الذكرِ والأثر !

ليتَ شِعرى أىُّ فرنسىٍّ إذن ذلك الذى نلقاه فى مثل « تونُس » أو « الجزائر » أو « مرَّاكُش » ، ذلك الذى إذا تحدَّثَ إليك حولَ هذه المبادىء الإنسانيةِ لوَّنها بألوانِ المُصوِّرات الجغرافيَّة البغيضة ، وكساها حُلةً من لُغةِ المؤتمرات السياسيةِ الدوَّارة ، ذلك الذى يبدو أمامَك دائماً فى زِيِّهِ العسكرىِّ صُلْبَ الوجه خَشِنَ الصوت يأمُر ويَنْهى غاشماً متحكماً يحاولُ الإقناعَ بمنطِقِ الحديدِ والنار ؟!

وجازَ بنا بائعُ صُحُف ، ينادى بلهجتِهِ التقليديَّةِ ، فابتَعنا منه صحيفةً يوميَّةً من أمهاتِ الصحف الباريسية ، فألفيناها ورقةً واحدةً تكدَّستْ فيها الأخبارُ والموضوعاتُ تكدُّساً يُعشى

النَّظر... ياسبحانَ الله !... لقد علَّمتكَ الأحداث أيها الباريسيُّ الثرثارُ أن تعرفَ فضيلةَ الإيجاز !

نهضنا تاركين « الكافيه دلابيه ».

إلى أين ؟ ... أإلى الفُندق ؟ إلى مصاحبةِ ذلك « الجنتلمان » الهرِم الذى أفلسَ بعد يَسار ؟

وحوَّمتْ فى الخاطِر أفكار شتى ...

لِمَ لا نَغتَنِمُ الفرصةَ ، فنجوبَ أحياءَ « باريس » ؟

إذن إلى سيارةِ الأجرة . . . ولكن أين ذلك الصديق الذى صدَّعنَّا ولم يشأ أن يطارِحنا وُدّاً بودّ ؟ إنه كثير التَّجَنِّى على مُرِيديه ، لا يظهَرُ أمامنا إلا كما يلوحُ البرقُ الخاطف !

ووجدْنا حِيالَنا مَركْبَة أجرة .. وجعلنا نتفحَّصُ المركبة وقتاً ذاهلَيْن ... أفى « باريس » نحن أم فى « السنغال » ، أم فى « فاشودة » ؟ ! . . . لقد عادَ أُحوذىُّ الباريسىُّ إلى الظهور بعد أن طال اختفاؤه أعواماً مديدة ... لقد طُورِدَ بقسوة من العاصمة حتى أُقصِىَ عنها ، ولم يَبْقَ له ظلٌّ فيها ، وهاهو ذا الآنَ يُبعثُ من جدَثِه الغابِر ليثأرَ لنفسِه ..

إنه يعودُ ، ولكن على أىّ نحوٍ يعود ؟

من أين جئتَ بمركبتك أيهذا الحوذىُّ المحطَّم ؟ لابد أنك ابتَعْتها من سُوق الأسْقاط وباليات السِّلع !... إنها خليط غريب من حضارات متداعية ، تكاد كلُّ قطعة منها تمثِّلُ عهداً بعينه ... إنها أشبهُ شيء بثَوْبٍ تكاثرَتْ فيه الرِّقاع وتبايَنتْ .

حتى الحصانُ ، ذلك الهيكلُ الضَّخمُ الأعجفُ ، يخيَّلُ إلينا أنه فى مظهرِهِ مسْكُوفِىٌّ أصيل ، جرجره « نابليون » فى عودته الخائبة من « روسيا » فبقِىَ لسوءِ حظِّه نَسْياً مَنْسِيًّا طوالَ تلك السنين ، فلما اشتدتْ إلى مثلِه الحاجةُ فى هذه الأيامِ الشِّدادِ ، جِىءَ به يمثِّلُ دَوره القديم !

لن نردَّ ابتسامتَك المتغضِّنة على وجهكَ المحتقِن ، المُشْربِ بأرْدإ الأنبذةِ ، أيُّها الحُوذِىُّ الخرِبُ !

وصَعِدْنا فى المرْكبة ، ونحن نتحسَّسُ مقاعدَنا ، حتى لا نَهْوِى بها ، أو بالأحرَى لا تهوِى بنا !

وأطلَّ علينا الرجلُ من عرْشه المتزلزل الأركان ، وأخذ يقلِّبُ فينا عينيْه المحتقنتيْن الناصلتيْن هنيهة ، ثم همهم بفرنسية متآكِّلة .

الجولةُ بستمائة « فرنك » .

فقلت له فى دهشة :

الجولة بستمائة « فرنك » ؟ ... ثقْ يا صديقى أننا لسنا من « الأمريكان » !

فأعاد الرجلُ جملَته وهو يتعالى على عرشه ، ووجهُه المربدُّ يزدادُ تجعُّدا ، ولم يشأْ أن يزيدَ حرْفاً ...

ثم بدتْ منه إشارة أشعرَتْنا بأن صديقَنا الحُوذِىَّ دكتاتورى المَنْزَع ، لا يقبَلُ مساومةً فيما يُصْدِرُ من أحكام !

يأبى هذا الأحمقُ إلا أن نكونَ « أمريكانيين » أثقلتْ « الدولاراتُ » محافِظَنا ، فمضينا نبعثِرُها يمنةً ويَسْرة ...

فلنكن كذلكَ ساعةً فى ضيافةِ ذلك الحوذِىِّ المخمور !

وبدأت المركبةُ تُكرْكر ، يتحاملُ بعضُها على بعض ...

وقطعْنا شارع « الطليان » ... ما برِح هذا الشارعُ محتفظاً باسمه فى « باريس » على الرَّغم مما كان من أحْدَاث !

وأفْضَيْنا من ساحة إلى درْب ، ومن درْب إلى ساحة ...

إنه هو هو ذلك التجهُّمُ والعُبوسُ والجمودُ يسايرنا حيثُ نكون . ثمةَ مشاربُ مقفرةٌ على مراحلَ من الطريق ، تنبعثُ منها أحياناً فلولُ أضواء تتسرَّب هنا وهنا لك تَنْشُد الرُّوَّادَ فى جُهْد ، حتى

إذا ما خاب مسعاها تمزَّقتْ أشلاء ، وضاعت في الفضاء !

وقد صادَفْنا في بعضِ الطريق مراقص كانت في عهدِها الغابر آهلةً بالقُصَّاد ، زاخرةً بالحركة والصَّخب، فبدتْ لعيوننا في أبهائها أشباحٌ ترُوح وتغدو ، أشباحٌ هزيلاتٌ شواحبُ ، أولئك هنَّ غواني اليوم من الصبايا القاصرات ، كن يترددَّن بين موائدَ شاغرة صامتة ، فإذا لمحن قادماً هزَّه الشوق إلى مثلِ هذه المراقِص ، تهافَتن عليه تهافُتَ الفَراش على النور .

وقد يتَّفِقُ لنا ونحن نمخُر الطريق بمركبتنا العرجاءِ أن نلاقي مركبة أخرى تحمِل ثُلَّةً من الأجانب ، يجولون مثل جولتنا، ثلةً أوقعهم سوءُ الطالع في يد أحمقَ آخرَ على غرارِ صاحبنا الحُوذيِّ المخمور ، لن يعفيَهم من تلك « الفرنكات » السمانة التي فُرضتْ علينا إتاوةً ظالمة ، فإذا بنا نبادلُ هؤلاء الرفاق على البُعدِ تحيَّةَ اللقاءِ متصايحِين ، كما يتبادلُ النَّواتيُّ — إذا تلاقتْ سفائنُهم وَسْط العُبابِ — تحايا الأمانِ والسَّلام !

وما هي إلا أن تُتابع كلُّ مركبة جرجرتَها ، وتعودَ إلى القفْر الممدُود نشقُّ غياهبه ! . . .

وقفلنا إلى الفندق ، فصعدنا إلى حجرتنا ، وما لبثنا أن تهيأنا للنوم متعبين .

وأشرق علينا صبحُ اليوم الخامس من « إبريل » فتناولنا فطوراً حوى خبزاً أسمر ، وقليلا من الزُّبد ، وقهوة لها من القهوة لونُها واسمُها .

وهبطنا بعد فترة إلى ردهة الفُندُق ، نتأهب للرحيل .

ولبثنا ننتظر ... كنا أُسرة الطائرة ، تحتل كلُّ رُفقة منا ناحيةً من الردهة وبجانبها أمتعةُ السفر ... وقد يخِفُّ أحدُنا للسؤال عن موعِد قيام الطائرة ، ومتى يحينُ أن نغادرَ الفندق ؟

ولكن سرعانَ ما ينقلبُ المسئولُ سائلا ، وتدورُ الأسئلة المضطربةُ والأجوبةُ المبهمةُ في حلقة مُفرغة لا يُدرَى أين طرفاها . . . وانتهى بنا الأمرُ إلى أن أصبحَ كلٌّ منا قانعاً بأن يوجّهَ سؤالهَ إلى نفسه ، وأن يتولَّى هو بنفسِه الجواب !

وطال بنا الانتظارُ ، حتى دبَّ في قلوبنا دبيبُ اليأس .

أثمةَ ليلةٌ أخرَى سنقضيها في عاصمة الصمتِ والظلام ؟!

وبعد لأي ظهرَ الرجلُ الربعةُ الأشقرُ ذو العينين الزرقاوين ، رائدُنا إلى الطائرة ؛ فهرعنا إليه ملهوفين نستقى

منه الخبر ، فأشار إلينا إشارة اعتزاز ، وابتسامتُـه الهادئة تترقرقُ على مُحيَّـاه ، ثم قال فى تـؤَدَة :

سنبرَحُ الفندقَ بعد ربع ساعة ... السيارةُ الحافلةُ بالباب .

وما كاد ربعُ الساعة ينقضِي حتى كنّا جميعاً حشْوَ السيارة ، والرجلُ ببابها ينادِي أسماءَنا على منهاجِه المدرسىّ !

وتحركتْ السيارةُ تخترقُ « باريس » ، وقد أوشكتْ الشمس أن تتوسَّطَ كَبِـدَ السماء ، فمررْنا بتلك الطرق الفِسَاحِ ذَوات الشُّـجَيرات المورقة والأزاهر المتفتحةِ التى تحاولُ أن تُثْبتَ حلولَ الربيعِ حيثُ لا ربيع !

ودخلْنا المطار ...

وتمّت الإجراءاتُ المعهودةُ على أسلوبِها المملول !

وخرجْنا إلى الساحة ، إذ كانَ صديقُنا « أبو الهول » رابضاً يبسُط لنا جناحَيْه فى تحية وتَرْحاب .

واحتوانا صدرُه الرَّحيب ، وقصدَ كلٌّ منا مَقْعدَه ، فتبَـدَّت نُـزَلاءَ جُدُداً حلّوا محلَّ من تخلّف عنّا من الرِّفاق .

وتعالى « أبو الهول » فى أطباقِ الجوّ ، وأخذتْ « باريس » تحتَ أنظاره تتضاءلُ وتتزايلُ .

وتراءت لنا بين الفينة والفينة من خلال السحاب المهلهل سهول « فرنسا » المترامية تبعث إلينا تحية وداع .

ثم بدأنا نطرق أبواب « بريطانيا » في معقلها الأشم ، ببحرها الغضوب ، وصخرها المتجهم النفور .

وبعد ساعات ثلاث على متن الهواء حللنا بلدة « شانون » من أرض « إرلندة » ، وكان الجو بارداً ، والسماء متلفعة بغيومها الثقال .

وغادرنا الطائرة إلى مبنى المطار ، فألفيناه على نسق جميل من النظام والترتيب . وقضينا في المقصف ساعتين تناولنا فيهما وجبة الغداء ، ونعمنا بقسط من الراحة .

وعدنا إلى « أبي الهول » ، فوجدناه قد تملأ من شبع وري ، وتزود زاداً يستطيع به أن يواصل الصوم ساعات غير قصار ...

نحن الآن بصددِ رحلة لا تستغرق أقل من إحدى عشرة ساعةً ! نعبُرُ فيها « المحيطَ الإطلنطى » أو كما يسميه العرب : بحْر الظُّلمات .

هيَّا « أبا الهول » ، على بركةِ الله !

وتسامَى بنا صديقُنا الكبيرُ يضرِبُ فى عُرْض الأفُق وقدا تَّقدَ حميَّةً وحماسةً ، ورأينا السُّحُب تنبسِطُ على صفحة المحيط ، وتغدُو كأنها بساطٌ من جلِيد ... وقد يلتبِسُ الأمر لعينِ الرائى ، فيحسَبُ أن ذلك السحاب المنتشر ليس إلا المحيطَ قد راعه « أبو الهول » الذى اقتحمَ عليه سماءه ، فارتفع بمَوْجه الأشهَبِ وعُبا به الصَّخابِ ، يريدُ أن يناقشَه الحساب !

ولبثْنا نطيرُ فى سهولةٍ ويُسْر ...

إن « أبا الهول » رَزِينٌ مُجِدٌّ فى سيره ، يريد أن يثبتَ لنا أن ليس فى الكون شىءٌ يتعذَّر عليه ، وأنَّ عُبورَ المحيط ليس إلا نزهةً طيبةً رائقة ...

حقًّا إنها لنزهةٌ ليس فيها ما يُعكِّرُ الصَّفوَ ، فقد امَّحى من أذهاننا ما كان مستقرًّا فيها من أهوالِ عبور المحيط ، وما يعترِضه من مخاطر ... إن « لندبرج » كان أحكم الناسِ رأياً حين راح

ينتزعُ من الأذهان برحلتِـه الموفقةِ أوهامَ الخوف والحذرِ من بحرِ الظلمات ، فاستطاعَ بتجربة جريئة أن يصلَ بين قارتَين عظيمتين ، بل دُنْيَيَيْن حافلتين : دُنْـيا المـاضى ودنيا المستقبل !

وظلت الشمسُ تسايرُنا طويلاً من الوقت ، فلم تأذَنْ لنفسِها فى المغيب إلا بعدَ التاسعةِ والنصفِ ، وانتشر على أطرافِ ذلك البساطِ الثلجىِّ الناصعِ لهيبُ أنفاسِها المحترقة ، فهبَّ الليلُ يرسلُ شَمْلَتَه الحالـكة يحاولُ أن يطفِىءَ بظلامه لهِيبَ تلك الأنفاس !

ووجدتُنى أضغـطُ زرَّ المقعد ، فمال بى طيّعاً إلى الوراء ، ومددتُ على ركبتَىَّ دِثارِى يحْمِينى من هجمةِ القُرِّ ، ثم أطبقتُ جفنَىَّ أستدْنى هادىءَ النُّعاس .

وبين سُدولِ الليل المتراخيةِ هبَطْنا مطارَ « جندار » فى الأرضِ الجديدة .

وحملتنا سيارةٌ حافلة ، ومضتْ بنا تجتازُ طُرُقاً ودُروباً تقومُ على جوانبها بعض أبنية مختلفة . وعرَفنا أننا فى بقعة منعزلة عن العُمران ، مستعمرة من مستعمراتِ الجوِّ . . . إنها أشبهُ شىء بقرية تـكتفى نفسَها بنفسِها ، فيها المقْصَفُ والنادى والفندقُ

والمستشفى والمصنعُ ، وكلُّ ما يسُدُّ حاجةَ الطائرةِ وراكبها .

وبدتْ لى هذه المستعمرةُ كئيبةً عابسة ، على الرغمِ مما يبدِّدُ حلوكةَ الليل فيها من مصابيحَ فيّاضةِ الضوء .

وأبلغتْنا السيارة الحافلةُ مَقصَفَ المطار ، فخطونا على أرض خضَّبَتْها قَطرات المطر ، وكستْ حواشيها بقايا الصَّقيع .

وصافحَ وجوهَنا هواءٌ قارس ، فحَثَثْنا الخُطا إلى المَقصَف نلتمسُ الدِّفءَ ... إنه لمقصَفٌ فسيحُ الجوانب ، أُقِيمَ من الخشب الغليظ ، على نحوٍ ساذَج قَرَوِىّ ، كلُّ ما فيه يكفُلُ راحةَ المُتْعَبِ المَكدُود .

ونظرت فى ساعة يدى ، فوجدتُها الخامسة ، وتطلعت حولى ، فلم أجدْ أثراً لتباشيرِ الصباح . إنه ليلٌ دامسٌ ثقيل الوطأة .

وغمرتنى الحيرةُ هنيهة ، ثم حانت منى التفاتةٌ ، فصادفتُ ساعة الحائط تعلِنُ أن الوقتَ منتصَفُ الليل ! ...

ووقفت لحظةً أرْجِعُ البصرَ بين ساعةِ يدى وساعةِ المقصَف ، ثم انسرحتُ أفكر ...

هنا يعودُ المرءُ إلى عهد التلمذة ، ويستنجدُ بما عَلِق بذاكرته من معلومات جغرافيَّة فى شأنِ دوَرانِ الأرض حول الشمس ، واختلافِ الزمن بين قارَّة وأخرى .

وطالَ بى الاستذكار والتفهُّمُ والموازنة ، فتبرَّمَ رأسى بهذا العَبَث ... إنه منتصَفُ الليل وكفى ! ... علىَّ أن أضبِطَ ساعة يدى راجعاً بها القهْقرَى خمس ساعات ... هاقد أُضِيفتْ إلى صفحاتِ الليل صفحات جُدُد لم تكنْ فى الحسْبان .

يالله ! ... أما لِهذا الليلِ من آخِر ؟

ودخلنا المقصفَ نتناولُ الفطُور ، ثم تركْنا قاعةَ الأكل إلى بَهْوِ الجلوس ، نترامَى على مقاعِده المُريحة ، كأننا فى ضيافةِ فلاَّحٍ ثرِىّ من أعيانَ تلك الناحية ... وأخذ يَطْرقُ أسماعَنا نقْرُ كُرَاتِ «البليار» يتلاعَبُ بها بعضُ الرِّفاقِ تزجيةً للوقت ... ولستُ أدرى أأخَذَتنى فى مجلسِى سِنَةٌ من نوم أم ظَلِلْتُ ساهراً يقظَانَ ؟ ولكنى أعلم عِلم اليقين أنى قضَيت وقتى ملازماً مقعدِىَ الفسيح لا أرِيمُه ، مُطلِقاً لأفكارى حرِّيَّة التحليق .

إنها القارَّةُ الثانيةُ التى أهبطُها فى رحلتى هذه ... قارة الدنيا الجديدة ... إننا على شاطئها نقِفُ وِقْفةَ الفُضُولى يتطلّع فيما حوله ، كأنما يحاولُ أن ينفُذَ ببصره إلى عُباب ذلك المجهول المترامى الأطراف ... إننا على شاطِئها نقفُ وقفةَ الرائد

الكشّاف حين تلامِس قدمُه أول مرةٍ شاطئ الجزيرة المنشود. فهو يُحِدُّ بصره طامحاً أن يقرأ في تلك الأرضِ العذراءِ الحافلةِ بالكنوزِ صحيفةَ أقداره... يقف صامتاً يتأهّبُ لحياة جديدة، ويرحّب باستقبال ما يصاحِبُه به الغدُ من مفاجآت وأحداث، ويهيئ نفسه للتأقلُمِ في هذا المُقامِ الجديد، ويؤمّلُ أن يرجع إلى وطنه وقد أصابَ ما سمت إليه نفسُه من مآربَ ورغاب.

وسمِعْنا مُضخّمَ الصوت يُذيعُ:

رُكّاب «أبي الهول» إلى «نيويورك»... دنت ساعة الرحيل.

فماجَ البهوُ بمن فيه، وتعالى الضجيج، وقمنا نحمِلُ لفائفنا إلى الباب، فإذا بالسيارةِ الحافلة في الانتظار.

واستقبلَنا الهواءُ القارسُ يلسَع وجوهَنا، ورأينا الأرض ما برحت بَليلة، ونثير الصقيع ما زال على حواشيها. فهُرعنا إلى السيارةِ نلوذُ بأحضانها. وعُدْنا نجتازُ تلك القريةَ الكئيبة بل تلك الثُّكْنةَ المُوحِشة التي تبدو منكمشة تحتَ أنقاضِ الشتاء!

وفي الساعة الثانيةِ صباحاً كان «أبو الهول» يدوّي بصوتهِ

الغليظ ، مودِّعاً تلكَ البقعةَ بما يَغشَاها من ظلمة وعُزلَةٍ وصمت.

أمامنا سُوَيعات ، ثم نُلاقى « نيويورك » ... لقد قارَبتْ الرحلةُ ختامَها ، فلأزَجِّ ما بقىَ من الوقت فى أىّ شىء ... هل أقرأ ؟ ووجدتنى أستلّ « المختار » كأننى أستمدُّ منه عَوْناً على مواجهة موطِنه الأصيل . وجعلتْ يدِى تعبَثُ فى سرعةٍ ببعضِ صحائفه تقلِّبُها واحدةً بعد الأخرى ، وما لبثتُ أن ألقيتُ به جانباً ... لا سبيلَ إلى المطالعة ، فلأعالِجْ النوم ... حتى هذا يَتأبَّى علىّ . إن يقظَةً نادرةً تَسْرِى فى أعصابى جميعاً .

وهذا الليل ، إنه يتطاولُ ، ولا يزالُ يتطاولُ !

لَكأنَّ « أبا الهول » يغتصبُ لنا من الزمن وقتاً نُضيفُه إلى يومِنا الذى نعيشُ فيه !

وفطِنتُ إلى سلاحٍ ماضٍ يَقطعُ الوقتَ قطْعاً ... إنه الثرثرةُ باركَ اللهُ فيها ، فلأكُنْ ثرثاراً يَتصيَّدُ الموضوعاتِ ويجعلها مَرِنةً مطَّاطةً تطاوعُ جذْباً وإرخاء ... ويبدو لى أن هذه الفكرةَ ما كادت تُحوِّمُ فى خاطرى حتى انتقلت عدْواها إلى الرِّفاق ، فإذا كلُّ ركنٍ فى الطائرة يسترسِلُ فى ثرثرة

وتضاحك ، وإذا الوقتُ ينفرطُ عِقدُه في سهولة ويُسر ، وإذا بسِنا الفجر يقتحمُ علينا خلوتنا .. لقد أزعجناهُ عن رُقاده بما أفضنا فيه من لغوِ الحديث ، فباكرَنا معاتباً غضبانَ !

ودانَينا سماءَ « نيويورك » ، وجعلتُ أدلي ببصري لأتبيّن شيئاً ، فلم يتوضَّحْ لي إلا مُروج وسهول ومناقعُ ماء ، يسايرُها بحرٌ بعيدُ الأطراف .

وبعدَ قليل أخذتْ الطائرة تُصوِّب ...

نحن الآن في مطار « لاجوارديا » العظيم .

تركنا الطائرة مهرولين . . . وما إن خطوتُ بضعَ خُطوات حتى تذكَّرْت ذلك الصديقَ الكريم الذي كان هاديَ الطريق ، ونِعْمَ الرفيق .

كبيرٌ علينا ألا نودّعك « أبا الهول » .

وألقيتُ عليه نظرةً أحيِّيه تحيةَ إقرار بالجميل ، ولكنى رأيتُ الرفاقَ يَحُثُّون الخطا ، فخشيتُ أن أتخلّفَ عنهم ، ولم أملكْ إلا أن أسارعَ إليهم .

واعجباهُ « أبا الهول » ! . . . أين هذا من موقفنا منكَ

يوم بدأنا صحبتَك، زاخرةً نفوسُنا بأدقّ العواطف لكَ، متعلّقةً أفئدتنا بكلّ نأمةٍ تَصْدُر عنك ؟

معذرةً أيها السيدُ النبيل ! . . . إننا الآنَ فى شُغُلٍ عنكَ بجديدِ ما نستقبله . . .

لسنَا ننكرُ صنيعَك الجميلَ ، ولسنا ننْسى صحبتَك الصافية طَوَال هذه الرحلة ؛ ولكنها يا صديق سُنَّةُ الكون ، تَخلّ عنك الملامَ ! . . .

اجتزْنا مَمشىً مُظللا ، كأنه عريشُ بستان ، ثم بلغْنا مَبنى المطار . . .

حُجر ومَمرّات تمتازُ بالطابع الأمريكي ، ساذَجةٌ في جمالها وحُسنِ تنسيقها .

وحللْنا حجرةً ليست بالفسيحة ننتظر ، وتفرّق في جوانبها الرّفاقُ جماعاتٍ شُغِلت كلٌّ منها بشأنها . . .

ولبثنا ننتظر ، وطال علينا الأمَد ، فلُذْنا بسلاحنا الماضي الكريم : الثرثرة ، نَنفي بها عن نفوسنا مَلل الانتظار .

وكان يمُرُّ من بيننا أمريكيٌّ فَتِيٌّ من موظفي المطار ، يخطو بين الجماعات خُطاً متّزنة ، غير موجِّهٍ نظره إلى أحد ، ولا يكاد يَطويه البابُ حتى يعود ثانيةً يذْرَعُ الحجرةَ ويجُوسُ خلالها لا يعنيه من أمرِنا شيء ، وكان كلّما ظهر تعلقتْ به أنظارُنا تستنجدُه . وظل بين جيئةٍ وذُهوب على نحوٍ أثار السُّخْطَ والعجب . أفي شغُلٍ عنا هو حقا ؟ إن بين هؤلاء الموظّفين من يُشبِعُ بمثل تلك المظاهر الكاذبةِ رغباتِ نفسِه الطّموح !

وأخيراً تعالى صوتٌ ينادِى أسماءنا.

ومَثَلْنا لحظاتٍ قصيرةً أمام الطبيب، ذلك الفتى الفارع، المشرقِ الوجه، يؤنِسُنا بابتسامةِ ترحيب، ويُعفينا من مُضايقات الفحص والسؤال!

وتجمَّعنا فى مقصفٍ على الأسلوب الأمريكىِّ أنيقٍ رشيق، تبلَّغنا فيه بأشتاتٍ من الشطائر والفطائر، واحتسيْنا أقداح القهوة.

وتمت إجراءاتُ «الجمرك» على أيسر وجه، حتى إنى راجعتُ نفسى فى أمرِ هذه المؤسَّسةِ، وبدا لى أنها مؤسَّسةٌ عظيمةٌ، جليلةُ الفائدةِ والنفع!

وانصرفنا عن «الجمرك» خَلفَنا الزنوج يحملونَ حقائبَ المتاع، وركِبنا سيارةَ أجرة ذكَّرَتنا بفخامتها وأناقتها مركبةَ الخيل التى طافت بنا أحياءَ «باريس».

«وبِضدِّها تتميَّزُ الأشياء»!

وأحسستُ مشاعرى تهتزُّ وتهتاجُ اهتياجَ مشاعِر الطفلِ أمام جديد مستور بدأ يتكشَّفُ له.

وثارت بى ثورةٌ تطلُّع وفُضول، فكنتُ ابعثِرُ النظرات

حولى فى تعجُّلٍ ، أخشى أن يُفلِتَ منى شىء ، فإذا بى يَشِدُّ عن نظرى أعظمُ شىء ... إنها رقعةٌ من الأرض شاسعة ، خُطَّت فيها طُرق ممدودةٌ معبَّدةٌ تنتهبُها السيارات انتهابا . وإنها جسورٌ عظيمة تعلو بنا وتهبطُ ، تتقاذَفُنا جسراً بعد جسر . ولكن أيَّةُ جسورٍ هذه ؟ أعلَى الماء هى أم على أَديم الأرض ؟ لا أكادُ أتبيَّنُ الأمر !

وبدأنا ندخُل مِنطقة المبانى ، فكلَّما أوغلْنا فيها تكاثَفت وتعالت ، ورأينا الطُّرُقَ تزدحِمُ بالسابلة ، فأخذتْ سيارتُنا تهدّئ من سيرها ، حتى ألفينا أنفسَنا بين نواطحِ السحاب ..

وخُيِّل إلىّ أننا فى سفينةٍ بدأتْ تجتازُ خليجاً تقومُ على جانبَيه شوامِخُ الجبال !

إنه حقّاً لشعورٌ غريبٌ ذلك الذى يستولى على المرء حين يَشرئبُّ بعُنقِه وهو يمرُّ بين هذه الصُّروح الشاهقة . . .

إن المرءَ ليُحسُّ نفسَه قد تصاغرَ وتكمَّشَ أمام تلك المدينة الماردة العاتِية ...

فى لحظةٍ واحدةٍ تتجلى لنفسِك عظمةُ « أمريكا » الجبارة . هذه الآطامُ العاليةُ تركِّزُ لك فى مظهرِها حقيقةَ « أمريكا »

بمدنيَتها ، ثروتها ، عقليَّتها ، نشاطها ، جاهها ، طموحها ، ماظهر من ذلك كله وما بطن .

هذه الآطام كأهرام « مصر » تختزلُ لك فى مظهرها الرائع مدنيّة « مصر » الغابرة . . . إنها لتصوّرُ لك فى لحظة دقائق تلك المدنيةِ وأسرارَها ، فتعلمُ جليًّا أن القبرَ كان كلّ شىء فى « مصر » السحيقةِ ، فهو مُستودَعُ العلمِ والفنّ ونظامِ الحكم : الحىّ يعملُ جاهداً فى إعداده دارَ قرار ، والميّتُ ينعم به مثوى حتى يحينَ ساعةُ البعثِ والخلاص .

ما أروع الحجارة الصامتةَ فى الإبانةِ والإفصاح !

إنها باقيةٌ على الدهر ، إذا استلهمْنا منها معالِم الماضى فقد أمنّا الزّلل والعِثارَ فى تمثّلِ حياةِ الأقدمين . .

إنها لتكشِفُ أدقّ خوالجِ النفسِ البشريةِ ، ظاهرها الواضحِ وباطِنها الدفين .

هذه نواطحُ السحابِ يقوَامها الفارعِ تستعْلِى ولا تنى تستعْلِى ، فهى تُفصحُ لك عن مركّبِ النقصِ فى النفس الأمريكيْة ، تكمنُ فيها نزْعةُ تلك الأمةِ الفتيّة الناهضة التى أصابت ثروةً واقتداراً ومكانةً لاتزاحِمُها فيها أمةٌ أخرى على

بساط المعمور... نزعةٌ كأنها تريدُ أن تصرخ قائلةً للملأ :

لستُ إلا أمةً عظيمةً زعيمة !

إنها لتحسُّ أنظارَ البريطانيين ما زالتْ ترمُقها بنظرة إشفاقٍ لا تخلُو من حسد ، نظرة الوصِيِّ وقد نفضَ يده من الوَصاية على قاصرِه الذى بلغ سنَّ الرُّشد .

ذلك القاصرُ الذى مافتِيءَ يذكرُ لوصِيِّه ضُروباً من القسوة والحِرْمان ، يعلو بهامتِه اليوم متحدِّياً ، يريد أن يمدَّ قامتَه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ليُثْبِت أنه أصبح نِدًّا قويًّا لوصيِّه فى الزمنِ السالف !

على أن الأمريكىَّ والإنجليزىَّ ، على الرغم مما بينهما من تنافُس وتسابُق ، تصلُ بينهما وشائجُ وثيقةٌ من لُغة وعقليَّة وجِنْس ، فهُما فى المِحْنة يتساندان ويتآزران ، وينسى كلٌّ منهما عَهْد الوصايةِ وما يدور حول تَرِكتِها من حزازاتٍ وأضغان !

وأثارَنى عن تأمُّلاتى وقْفةُ السيارة .

لقد بلغنا بابَ الفُنْدق .

ودلفْنا إلى الرَّدْهةِ الكبرى ، وكان علينا أن نلبث حتى نتبيَّن أمر الحجرة التى اُعِدَّت لنزولنا .

ووقفت أتأمّلُ الرَّدْهة المُضاءَة بالكهربا ، ومن يختلف إليها من الناس .

وراعتني المصاعِد لا تهدَأُ لها حركة ، فهي دائبةُ الصعودِ والهبوط ، لا تكاد تُفرِغُ حمولتها حتى تغصّ بحمولةٍ أخرى من تلك البضاعةِ البشريّةِ الرائجةِ السُّوق في هذا المكان !

وأخذتْ عيني رُكناً رشيقاً يُنيره ضوءٌ جذّاب ، تمثّل لي مَسْرَحاً يَستهوي أعينَ النَّظَّارة ، فتدانيتُ منه ، فتبيَّن لي أنه حانوتٌ حوى طَرَفاً من كلِّ شيء ... إنه سوقٌ مصغَّرةٌ تُسعِفُ كلَّ طالب بما يطلُب ، فمن لفائف تبغ ، إلى كتُب وصُحُف ، إلى حلوى أفانين ، إلى لُعَب وتحَف وطرائف . فقصدْتُ إلى معرِض الكتب أقلِّبُ فيه البصَر ، وما هي إلا أن بدا لي رجلٌ في مقتبلِ العمر ، باشٌّ المُحيّا ، وديعُ النظرات . فبادرني بقوله :

طاب يومُك يا سيدي . . يلوحُ لي أنكم من نزلاء الفُندقِ الجدُد .

— قدِمْنا الساعةَ ...

— أأوَّلُ زَوْرَة هي « لنيويورك » ؟

— إنها أولُ زَوْرَةٍ « لأمريكا » كلها .

— من أيِّ المواطنِ أنتم قادِمون ؟

— من « القاهرة » .

— حقًّا إنها لشُقةٌ بعيدةٌ قطعتموها .

— لم تستغرقْ رِحلتُنا أكثرَ من ثمانٍ وأربعينَ ساعة .

فأخذَ الرجلُ يحملِقُ فينا دَهشاً ، ثم ما لَبِثَ أن ابتسَمَ قائلا :

إنها لإحدى مُعجِزاتِ الطَّيَران ... أرجو لكم إقامةً طيِّبة !

— نشكُرُ لك .

— لقد أحسنتمْ اختيارَ الفُنْدُق حقًّا .

— إنه اختيارُ صديقٍ كريم ، حجزَ لنا أماكننا فيه .

— لقد كفاكُم مُؤْنَةَ البحْثِ ومتاعبَ الاختيار .. يتعذَّرُ

أن يجدَ القادِمُ سَعةً في فنادِقِ « نيويورك » على كثرَتِها .

وتلفَّتُّ أردِّدُ البصر حولي في الدَّهْشة ، فعاجَلني الرجلُ

بقولِه :

إنه فُنْدُقٌ مُريحٌ على صِغَره ... ستَّ عشرةَ طبقةً تحوي

أربعَمائةِ حجرة .

— أصغيرٌ هذا ؟

– إذا قِيس بكِبْرِيَاتِ الفنادق ... ولكن موقعه يجعله ممتازاً .. إنكم فى « الشارع الخامسِ والأربعين » قلب المدينة الخفّاق: خطوتان إلى الأمام تُسلمانِكم إلى « الشارع الخامس » أعظمِ شوارع « نيويورك » ، بل سيدِ شوارعِ العالمِ كلّه .. خطوتانِ إلى الوراء تسلمانكم إلى « برودواى » أكبرِ ملتقى للملاهى وأفتنِ معرِضٍ للأنوار فى العالَمِ أجمع... موفّقٌ حظكم! لأن القنصليةَ المصريةَ منكم عن كَثَب، وكذلكم دار البريد، و ...

وكانتْ يدى أثناءَ الحديثِ تعبَثُ بالصُّحفِ والكُتب، وتعلّقَتْ أنامِلى ببعض المصوَّراتِ الخاصة بمعالمِ المدينة وطرُقِها ووسائلِ مواصلاتِها ... فانثنى الرجلُ يقولُ :

حُسْنُ اختيار... هذه المصوَّراتُ ستَفتحُ لكَ أبواب « نيويورك » على مصارِيعِها، فتجوسُ خلالَها على هُدى .

وما كدتُ أنقدُهُ الثمنَ ، حتى سمعتُ غلامَ الفندق يقول :

تفضَّلُوا بالصُّعُودِ إلى الحجرة .

فحَيَّيْتُ صاحبَ الحانوت ، فودَّعنى بقوله :

إنى فى خِدْمَتِكَ كلما دعَتْ الحاجة .

ودخلْنا المِصْعَد فى حَشْدٍ من الناس، فإذا عاملةُ المِصعَد

زنجيةٌ في لبوسها الرسمي، تولينا ظهرها، واقفةٌ دائماً وقفتها الجامدة لا تعيرنا أيَّ التفات... إنها ليست أكثر من أذن تصغي لمطالب الركّاب، ويدٍ تتحرك إلى باب المصعد فتحاً وإغلاقاً...

وخطونا إلى حجرتنا.

هروعٌ إلى الحمام، لأطيح بتلك اللحية التي بدأت تطلع مع النهار، وتعيث في الوجه فساداً.

وجعلت أعمل الموسى في ملل وفتور، وأنا أهمهم:

رب لم أنبتَّ في وجوهنا نحن الرجال هذه اللحى؟ أو لم تركتنا نهتدي إلى حلقها؟

وما كدت أتمُّ حديث نفسي الضائقة بهذه الدقائق، حتى أحسست أريج الطيب يفغم أنفي، فرحت أخالس النظر، فوجدت الحقيبة النسوية قد تثاءبت، فأطلت منها حقاق الأدهان والمساحيق، وقوارير الطيوب والعطور، تتلوها مناشف الوجه والمناديل والأمشاط ومشابك الشعر وشباكه.

فزغت ببصري، وعدت أتابع الحلق في همة ورضا، وأنا أغمغم:

حمْدكَ اللّهم على ما قسمتَ لنا ... إنكَ بنا نحنُ الرجال رؤوفٌ رحيم !

ولم تمضِ غيرُ لحظات ، حتى كنتُ قد فرغتُ من مهمتى وبدأتُ أنتظرُ إقفالَ حقيبةِ العطور والمساحيق ، إعلاناً لانتهاء مهمَّتِها . . . ولكنَّ بِضعَ نظراتٍ خاطفة أفهمَتْنى أن الأمرَ ما يزال يتطلَّبُ مديداً من الوقت ... إذن فلأشْغَلْ وقتى بشىء .

لِمَ لا أَبدأُ ارتيادَ المكانِ الذى حللْتُ فيه ؟

وقمتُ أجولُ فى الحجرتين الرشيقتَين اللتَين أُعِدَّتا لنزولنا . كلُّ شىء أراه حولى يُشْعِرُ بتوفيرِ الراحة فى سذاجة وبساطة ويُسْر ... راحة ترتفعُ عن كُلْفَة التنميقِ والزُّخْرُف .

وأخذتْ يدى تتحسسُ الأثاث ، ففتحتُ أولَ دُرْج صادفنى فى الخوانِ المجاورِ للسرير ، فطالعَنى فيه كتابٌ ضخمٌ فخمٌ أسودُ الجلدِ ثمينُه ... وقدَّرتُ بادىءَ الرأى أنى أمامَ مجموعة من روائع « شكسبير » ، إنه يماثلُ طبعاتِ تلك المجموعاتِ .

وجذبْتُ المُجلَّدَ ، وفتحتُه اعتباطاً ، فقرأتُ :

« جلَسَ يسوعُ تجاهَ الخِزانَة ، ونظر كيف يُلقِى الجمعُ نُحاساً فيها ، وكان أغنياءُ كثيرون يُلقُون كثيراً ، فجاءت أرملةٌ

فقيرة ، وألقت فلسين ، فدعا يسوع تلاميذه وقال لهم : الحق أقول لكم : إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا فى الخزانة ، لأن الجميع من فضلهم ألقوا ، وأما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها ، كل معيشتها ! »

ليس حديث « شكسبير » هذا ... إنه حديث من وحى السماء ! إن فلسفة « شكسبير » على حكمتها وعمقها وروعتها لتتضاءل أمام هذه الكلمات الساذجة التى يستمد منها الصغير والكبير نقاء السريرة ويقظة الضمير وطمأنينة الوجدان ..

ما زال حديث السماء على تطاول الزمن وترادف الحقب وتطور العقول هو صاحب السلطان الأول على المشاعر والنفوس ... لطالما سمعنا فلاسفة الفكر ينادون بأن العقيدة الدينية على وشك الانهيار ، بل إنها لم يعد لها من سطوة وجاه ، ولكننا لا نلبث أن تواجهنا حقائق تسخر من هذا الزعم الموهوم .. إن العقيدة مثلها كمثل كرة المطاط إذا قذفت بها ورأيتها جادة فى هويها إلى الأرض لم تحسب لها من رجوع ، ولكنك لا تعتم أن تراها قد وثبت إليك فى عنفوانها أقوى مما كانت قبل ...

لو مُنِيَت مدنيتُنا بالزوال، وهلكت بهلاكها روائعُ الشعر وحِكَمُ الفلاسفةِ وعبقرياتُ العلماء، لألفيتَ العقيدةَ الدينيةَ تَكْمُنُ في النفس البشرية كُمونَ الحياةِ في الحبِّ النابت!

كفى ثرثرةً أيها الإنسانُ المتعالي بماديَّته، المغرورُ بعِلْمِه. ألا فاشدُدْ لسانَك إلى حلقِك، وأقصِر عن التشدُّق والمباهاة...

إنك أنتَ أنتَ، ولن تتغيرَ أبدَ الدهر، سواءٌ أخفتْكَ المغاوِرُ والكهوفُ، أم سمَتْ بك نواطحُ السحاب تظنُّ أنك مُزاحِمٌ بشِعافِها قوائمَ عرشِ اللهِ في مَلَئِه الأعلى... مازلت في حاجة إلى كلمة ساذجةٍ تزخرُ فيها عناصِرُ الأمل والطمأنينة والرِّضا. لتردَّ عنك العواصفَ من حيرةِ العقل وجفافِ النفس وظُلْمَةِ الحياة!

وأعدْتُ «الإنجيلَ» إلى مستقرِّه، وعدتُ أتابعُ جولتي، فرأيتُ لافتةً من الورقِ المقوَّى خُصِّصَتْ لتعلَّقَ على أبواب الحُجَرِ عند الضرورة، وقرأتُ فيها بحروفٍ واضحة:

«من فضلِكَ لا تُقلِقْ راحتي».

ومثَلْتُ خاشعاً أمامَ هذه الرقعة الغالية ... إنها لتُنيلُك ما تنشدُ من راحة وهدوءٍ في ركنِكَ الصغير.. إذا حرسَتْكَ هذه

اللافتةُ على بابِ حجرتك ، فلن يجرُؤ على أن يطرقَ بابَك أحد ، وإنك لآمِنٌ فى مستقرِّك تنعَمُ بما تُريدُ من خلوةٍ وسكون.

هذه آيةٌ صغيرة تكشِفُ لك جانباً كبيراً من عقليَّة الأمريكىِّ الدقيقِ ، تكشِفُ لك مايعانيه المرءُ فى هذا البلد من جهْدٍ وكدٍّ وحمْل على الأعصاب ، فهو فى حاجةٍ إلى الراحة يتشبَّثُ بها ما وَسِعه التشبُّث ، ويلتمس إليها كلَّ السُّبُل ، ويحوطها بالتقدير والإعزاز .

لشدَّ ما نحن مفتقرونَ إلى مثلِ هذه « اللوافِتِ » نعلِّقُها على أبواب المنازلِ فى « مصر » ، أوْ لا أقلَّ من أن نعلِّقها على أبواب « التلفونات » لو كان لها أبواب ! ..

وتناولْتُ اللافتةَ بيدى ، وأودعتُها فى رعايةٍ وعناية مكاناً كريماً لأستخرجها منه حين أُريد .

ورجعتُ إلى الحمام أستطلعُ أنباء حقيبةِ العطور والمساحيق . أما آن لتلكَ القوارير والحقاقِ أن تعود إلى قواعدِها ؟ !

ووقع بصرى بغتةً على رُقعةٍ صغيرة تحتل الركنَ المخصَّصَ لِمَواسى الحلاقةِ ، فقرأتُ فى الرُّقعة :

« نرجو أن تقومَ بنصيبك فى الإقلال من أخطارِ المَواسى المستعملة . . لا تقذفْ بها حيثُما اتَّفق » .

أين تَرمى بمُوساكَ القديمة ؟ إنها حقًّا لمشكلةٌ خطيرةٌ على الرَّغمِ من مظهرِها التافهِ ، إنه ليَنجُم عنها أعظم الأخطار .

وتذكرت « بابت » ، وهو شخصيةٌ خلقها الكاتب الأمريكىّ « سنكلر لويس » في أحدِ مؤلفاته . . . فقد كان « بابت » يقف كلَّ صباح أمام المرآةِ وِقفةَ حيرةٍ مِضَّة بعد أن يُتمَّ حلقَ لحيته ، وِقفةَ متسائلٍ : أين يَرمى بالموسَى ؟ أفى سَلَّةِ المهملات حيث لا يؤمَنُ شرُّها ؟ أم فى ركنٍ واحدةً بعدَ الأخرى فتتجمعَ لديه طائفة كريمةٌ من المواسى الصَّدِئة المثلمة ؟ إنه ليقفُ هذه الوِقفةَ الحيْرَى مرةً كلَّ يوم ، ولا يجد له مخلصاً إلا بأن يقذفَ بالموسَى فوق الخِزَانة ، وليكنْ من أمرها ما يكون !

وضعتْ الحقيبةُ أوزارها ، فتهيأنا للانصراف . . . ولم أنس أن أحشو جيبى بالمصوَّرات لأستعينَ بها على ارتيادِ الطريق .

ودخلنا المِصْعدَ نسألهُ الهبوطَ . . . الزَّنْجيَّةُ على حالها تستدبِرُنا ، وهى فى حُلَّتِها الرسمية : دُمْيةٌ ماثلةٌ ليست أكثر من أذنٍ تَصغى ويدٍ تمتدُّ . . . أتُراها تمثالا آليًّا يتحركُ ؟ أم هى حقًّا مخلوقٌ من طينةِ البشر ؟!

غادرنا الفندق نقصدُ عيادة الطبيب . . ولكن فى الوقت سَعة . . . إذن فلا بأسَ بجولةٍ نلتمسُ بها مُتْعةً وسلوى .

خطوْنا إلى « الشارع السادس » ، فألفيْنا أنفسَنا فى عُبابٍ زَخَّارٍ ... الناس فى حركة موصولة ، كلٌّ فى شُغُل بنفسِه ، والسيارات تذهب وتجىء مارقةً مُروقَ السِّهام .

ومررنا بحانوت يعرِض « الفشار » . . . تلك الذُّرَة التى تُقلىَ على النار فيخرجُ قلبُها ناصِعَ البياض ، كأنه الزهرة تتفتحُ لاستقبال الحياة .. لقد كان هذا الحانوتُ يَعرِض « الفشار » عرضاً لطيفا يجتذب العيون ، فعرَّجْنا عليه كما يعرِّج الطفلُ إذا تعلقتْ عينه بشىء ، وأخذْنا منه نصيبَنا ، وانصرفنا مشغولةً أيدينا به ، ووالَينا السير نأكل « الفشار » كما يفعلُ غيرنا لا نشعر بغضاضةٍ ولا استنكاف !

وبعد قليلٍ مررنا بحانوت عظيم ، يفِدُ عليه الناس فوجاً بعد فَوْج ، ويَصْدُرون عنه فى زَحمةٍ تبعث على العجب . أىُّ حانوتٍ هذا ؟ ما عِلَّة ذلك الازدحام عليه ؟ ولكن مالنَا نسألُ ؟ إن الناس يدخلون فلنكن معهم من الداخلين ، وإن

الناس يخرجون فلنكن وراءهم فى الخارجين . . . !

إن رُوح الطفولة تتحرك بين جوانحنا بما فيها من خِفة وتطلع وابتهاج بكل شىء ، وعدم مبالاة بأى شىء ... كنت أحسُّ الطفلَ يستيقظ فى قرارة نفسى ويظلُّ بنزواته ونوادِره ، فيبدو أثرُ ذلك فى نظراتى وخطواتى ، وفى إحساسى بما يدورُ حولى من مشاهدَ وأحداث !

وما هى إلا أن خجِلتُ من نفسى : كيف أعود طفلا ؟ وبدأتُ أراجع النفس وأناقشها الحساب ، ولكنَّ نظرةً واحدة حولى ، نظرةً عاجلةً إلى الناس يتدافعون فى غيرِ اكتراث ، كشفتْ لى أنى أحيا بين أطفال ... أطفال يمرحون ويُعابِث بعضُهم بعضاً !

إن الطفل ليكمنُ بين نفوسِنا سجيناً مهما ينضَج العقل وتكتمل الرجولة ، وإن هذا السجينَ ليظلُّ متربِّصاً خلفَ أسوار سجنِه يرصُد الفرصة ويلتمس المنْفذَ ، حتى إذا واتاه التوفيقُ حيناً لم تلبث الأسوارُ أن تنهار فى طرفة عين ، ولم يلبثْ السجين أن ينطلقَ من قيوده وعِقاله طافراً شَرُوداً يلهو ويعبَث ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال !

ووجدنا أنفسَنا ندخل الحانوتَ خلف شخصٍ اخترتُه رائداً لنا دون إذن منه، وجعلنا نتفقد ما حولنا: موائدُ حافلة، أخونة ممتدَّة، صِحافٌ عامرة تغدو وتروح، روائحُ الأطعمةِ تُداعِبُ الأنوفَ، الناس بين جلوسٍ ووقوف لا مَشغلة لهم إلا أن يأكلوا ويشرَبوا. ليس هنا لكِ للكلامِ مجال، إنما هي أضراس تطحَن، وألسنة تلُوك، وحلوق تزدرد . . .

أنكون قد طرقْنا وليمةً على الأسلوب الأمريكيّ؟

أنكون قد دسسْنا أنفسَنا بين المدعوِّين تطفّلًا وفضولاً؟

أين ذلك الذى اخترناه يرودُ لنا الطريقَ، علّنا نستبينُ منه ما غَمض؟... ووقعتْ عيني عليه وهو يشقُّ لجثمانه مسْلكاً بين الجموع، فاستقر أمامَ خِوان رُصَّت عليه أدوات الطعام، ولا طعامَ . . . ورأيته يتناولُ صينيةً يَعْمُرُها بما يلزم من أشواك وسكاكينَ، فما هي إلا أن وجدتُني أحذو حذوَه. وقفوْنا أثرَه، فقادَنا إلى خِوان مستطيل تزدحم عليه ألوانٌ الأطعمةِ والأشربة بين لحوم وخُضَر وفطائر وحلْوَيات... وخلْف الخوان خدمٌ يُعينون الطالبين على الظفَر بما يشتهون. حقّاً إنها لوليمةٌ فاخرة.

ولـكن أيةُ وليمةٍ هذه ؟ وما خطبُها ؟

ورأينا الرجلَ ينتقى ماراقـَه مما هو معروض ، يرصُّه على الصينية ويُسارعُ إلى الانصراف . فلم نعتـّم أن نفعـل كما فعـل ، وأن ننتقِـىَ لأنفِـسنا ما انتقى لنفسه من الألوان ، لاننقـُص منها ولا نزيد عنها ، دون إرادةٍ أو تفـكير !

وهُـرِعنا فى أثره بصينيـَّـتِـنا نجلس منه على مقربة ، فإذا هو ماضٍ مُجدٌّ فى التهام طعامِه ، كأنَّ وراءه من يتعجـَّله ، أو كأنه يخشى فَـوات شىء ، فمضـينا نلتهمُ حظـَّنا من الطعام كشأنِهِ سواءً بسواء !

ونهض الرجلُ ، فنهضنا ، وخطا إلى الباب ، فخطونا . .

وهناك فى ركن خاص انثنى الرجل يُلقِـى بِضعَ قِطَـع من النقود ، فانثنينا نُلقى مثلَـها ...

ودفع البابَ يفتحـُه ليخرج ، فـكنا وراءه تابعين !

وهنا وقفنا . . لقد انتهت مهمـتك أيها الرائد الـكريمُ ، صَحِـبَتـْكَ السلامةُ ، وشكراً لك على أن أرحتـَنا من متاعب الحيرة والارتباكِ فى سوق البطون !

وسَمَـوت بعينى إلى جـَبين الحانوت ، فقرأتُ :

« كافيتريا » .

أنكون قد دخلنا دون أن ندرىَ أحدَ تلك المطاعم الشعبية المشهورة التى لا يخلو منها رجاً من أرجاءِ « نيويورك » ؟ تلك التى يطرُقها الآلافُ من الأهلين فى كل ساعةٍ من نهارٍ ليُصيبوا طعاماً طيِّباً بثمنٍ مقبولٍ لا يزعجُ الجيوب ؟!

لقد أنستنا سوقُ البطون موعدَ الطبيبِ ، فلنعجل إليه .

وحثثنا الخُطا ، مخترقين « الشارع السادس » إلى « الخامس » ، نُسايرُ ذلك الخضمَّ العظيمَ ، ذلك الطوفانَ العميم ، تلك الجموع المتدفعةَ من الناس ، فسرعانَ ما وجدنا أنفسنا تلفُّنا أمواجُه وتقذف بنا إلى الأمام .

ليس لنا طاقةٌ بمناوأةِ هذا التيار الجارف ، لقد أصبحنا قطرةً ضئيلةً فى عُبابٍ متلاطمٍ ، فلا حيلةَ لنا إلا أن ننْدمجَ فيه ، وأن نترُك أشخاصنا تفنَى فى مُزْدحمه .

كنتُ وأنا أتحرَّكُ فى مسيرى حركاتى الآليةَ أتطلَّع فيما يحيط بى من بَشرٍ وجمادٍ ، فكأنما اختلطَ الجمادُ بالبشر ، ليس إلى التمييزِ بينهما من سبيل !

إنها قوالبُ ، قوالبُ تتحركُ فى الطريق بلا روحٍ ولا حِس ؛ وقوالب أخرى قائمٌ بعضُها فوق بعض ...

حجارة تتوالى متحركة ، وأخرى تتراص متعالية !

يا لله من أمر هذه القوالب ! . . .

وويل للإنسانية من طابع تلك الحضارة التي تقوم على أساس من المادة كله صلابة وجفاف !

إني لأخشى أن تكون القلوب البشرية قد غدت هي الأخرى قوالب لا تنطوي على عاطفة ، ولا يصدر عنها نبض ولا خفوق !

وتنبهت إلى أننا نتابع السير ، لا ندري إلى أية وجهة نحن ماضون ؟

والطبيب ؟ . . . واجتهدنا أن ننتزع أنفسنا من بين تلك القوالب المرصوصة ، ثم انتحينا ناحية من الطريق ، واستخرجت ما حواه جيبي من المصورات والرسوم أستهديها وسيلة للوصول إلى دار الطبيب . . .

إن المصورات لتتحدث حديثاً مستفيضاً عن مركبات الترام والسيارات الحافلة ، وعن القطارات التي تسرب في باطن الأرض ، أو تجري على معابر الجو . . .

ووقفت أفاضل وأمايز : ماذا أركب ؟ وطالت بي المفاضلة ، وإذا بعيني تزيغان ، وتتراقص أمامهما الخطوط والكلمات . .

ولكنني ما لبثت أن أحسستُ بنفسي أندفعُ داخلَ سيارةِ أجرة ، فما إن ثُبت إلى وعيٍ ، حتى ارتفعَ صوتي بعُنوان الطبيب أُعلِمُ به السائق ...

وتسلَّلتْ المصوراتُ إلى جيبي واحدةً إثر الأخرى ، تُخفِي عن الضوء حزنها وخيبةَ أملِها فى أن يكونَ لمشورتها مقام !

دلفنا بالسيارة إلى « بارك أفنيو » ... إن العظمةَ والروعة لتتجلَّيان بحق فى ذلك الشارعِ العجيبِ . إنه لخليقٌ بأن يحملَ ذلك الاسمَ الذى أطلقوه عليه : « شارع الأرستقراطيين » لو كان للأرستقراطيةِ معنًى فى معاجمِ الأمريكيين ! . .

شُقةٌ فسيحةٌ طويلة لا يحدُّها الطرْف ، تنبسط فى تنسيق وتنميق ، وتمتاز بالدقة فى الهندسة والرسم ، كأنما قيست فيها الأبعادُ والمسافات « بالسنتى » و « المللى » ! . . يشقها ما يسمونه « الحديقة » ، وما هى إلا بساطٌ من سندسٍ ، طرزتْ حواشيه بأشتاتٍ من شجيرات .

أما شواهقُ هذا الشارعِ العظيم ، فإنك حين تنظر إليها تُحس بأنها وإن كانت تماثل أخواتها نواطحَ السحابِ ، فهى

تبدو هنا أجلَّ مظهراً وآنقَ زُخرفاً وأبهى . إن السماء فى هذا الشارع الوسيع لتجد فُرْجةً رحيبة تطلُّ منها علينا وتبادِلنا التحيةَ فى غيرِ ضيق ... وهذه الأسراب المتكاثفة من السيارات يلاحق بعضها بعضاً كأنها حَلبةُ سِباق ... وهذه المصابيحُ الملوَّنة المتكاثرةُ على مدِّ البصر ، هى حَرَس الطريقِ ، وشُرْطة المرور ، يتغيَّر لونُها تارةً فيتحرك الشارعُ طولا ويسكُن عرضا ، ويتغيَّر لونُها تارة أخرى فإذا السكون حركةٌ وإذا الحركة سكون ... إنه لمهرَجانٌ رائع من النور والحركةِ يسودهُ نظامٌ دقيق فريدٌ يأخذُ بمجامِع القلوبِ !

وعرجنا على شوارعَ أخرى نقطعُها خطفاً ، وما هى إلا بضع لحظات حتى كنا أمام دارِ الطبيب . فهرعَ إلينا البواب فى حلته الرسميةِ الأنيقة يعيننا على النزولِ ، أو بالأحرى يوهمنا أنه يفعل من أجلِنا شيئاً قميناً بالتكريم من التقدير ... وكانَ على الرغم من شَيبَته واستبانَةِ الشيخوخة فى تجاعيدِ بشرته ، صلبَ القامة ، أمردَ الوجه ، خفيفَ الحركة ، مشرقَ القَسمات .

وتقدَّمنا إلى البهو حيث يقوم فى ركن منه مكتبٌ

« السكرتيرة » . . . فاستقبلتْنا بابتسامة تقليدية ، وكانت سمحة المحيَّا، فى لبوس أبيضَ ناصعٍ ، مَعْنِيَّةً بأناقتها أتمَّ عنايةٍ ، حتى إنها لتحرِصُ على أن تزيِّنَ جانبَ صدرها الأيسر بمنديلٍ يزهو فى حواشيهِ وَشْىُ الربيع ، فكأنما المنديلُ يستمدُّ من نبْعِ قلبها الدَّفاق نضارةَ الحياة !

وتبادلْنا كُلَيماتٍ فهِمَتْ هى منها ماذا نريدُ ، وفهمنا نحن منها أنها مِنْ أمرِ قدومِنا على بَيِّنة .

وأخذنا مقاعدَنا بين الزوّار : بهو أنيق بهرتْنِى منه تلك الصُّوَرُ الزيتية التى تزدحم بها الجدران ، وتلك الأنوار الكهربية المسلَّطة على تلك الصور فى مسارة ولباقة .

أفى عيادةِ طبيبٍ نحن أم فى مُتحَفٍ فنّى ؟

وانصرم الوقتُ وأنا فى شُغلٍ بهذه الروائعِ ، أملأ عينىَّ ها فى نشْوةٍ واستِمتاع .

ثم طُلبنا لنصعدَ ، فواجهتْنا بباب الطبقةِ الأولى « سكرتيرة » فى لبوسٍ أبيضَ ناصع ، يطلُّ من صدرها ذلك المنديلُ يُوَشّيه زهرُ الربيع . إنها نسخة من « السكرتيرة » الأولى فى كل دقيقٍ من مظهرِها وجليلٍ . . . وتراءتْ لنا فتياتٌ

أُخرُ فى لبوسِهن الأبيضِ ومناديلهن المزهرة يغدون ويرحن قائمات بما بين أيديهن من الأعمال ... إنهن نُسَخ متشابهة، كأنهن جميعاً فتاة واحدة يتكرر ظهورُها أمامَ ناظريك ...

أثمةَ قوالبُ أخرى تواجهنا فى تلك الدارِ الوادعةِ ؟

تلك هى الظاهرة الواضحةُ فى الحياةِ الأمريكية : تشابُه وتماثل فيما تراه العيونُ من صغيرٍ وكبير، صورٌ متكررة لشيء واحدٍ لا تغييرَ فيه ولا تبديل !

ودخلنا حجرةً صغيرة، وحُشِرنا بين زُمرة الناسِ . إنها إحدى تلك الحجَرِ الزاخرة بطلاب الصحة ... وما كِدت أقتعدُ مقعدى حتى طالعتنى صورةٌ كبيرة تزحمُ حائطَ الحجرة وقد سُلِّطت عليها الأنوارُ تجلوها أروعَ جلاء . إنها صورةُ « بروميثيوس » طريح صخرةٍ عاتية تُثقِلُه الأغلالُ، وهو يرنو مُلتاعَ النفسِ جزعاً إلى النَّسر الجاثِم على مقربةٍ منه، بمنقاره المعقوفِ الحادّ، يتوضَّح فيه سُعارُ الجوعِ وتلهُّب الظمأ، وعيناه تتلظّى فيهما شهوةُ الفتك والشر... وهذا النَّسرُ يتأهَّبُ للانقضاضِ على ذلك الإلهِ المنكود لينهشَ كبدَه، شأنه معه فى كلّ يوم !

إن روعةَ الأسطورةِ اليونانية ، وما يتدفقُ فيها من حيويّة وجلالٍ ، ليتمثّلُ فى فنّ هذه الصورة قوىَّ الأداءِ ، صادقَ التعبير . . .

لله أنتَ من فنانٍ أيها الطبيب !

إن المرءَ ليطمئنّ إلى مِبضَعِك المتألّقِ دون وَجَل أو تهيّب . . . لن تكونَ إلا فنانا فى طِبّك ، كما أنت فى ذوقك فنان !

إن المريضَ الذى يحيا فى عيادةِ هذا الطبيبِ وقتاً لينسىَ أنه فى مثابةِ علاج ودار استشفاء . إنه ليتخيّل نفسه فى مَعرِضٍ عامر بألوان التحف الفنية التى تقَرُّ بها العيونُ ، وتنشرح لها الصدور ... إن الساعات لتتلو الساعاتِ دون أن يُحسّ المريضُ للوقت طولاً !

أَحيلةٌ هى التمستَها يا صديقى الطبيب ليغفُلَ المريضُ عن مرضِه ، ويوقظَ فى نفسه الأمل وراحةَ البال ؟

أنتَ بهذا تضرِب المثل الصالح ، وتعطى القُدوةَ الحسنة ...

ألا يفكّر غيرُك من الأطباء فى ابتكارِ وسائلَ أخرى تحيلُ ذلك الجوّ القاتِمَ المملوءَ بالفزَع والرّهبةِ جوّاً رخيّا

تشيع فيـــه نسماتُ الطمأنينة والثقةِ بالحياة ؟ !

وانتقلنا إلى حجرة ثانية : مُتحَف آخر يتألقُ بما فيه من رائع الصُّوَر وباهرِ الأضواء.

وأخيراً طرقنا مِحرابَ الطبيب ... حجرة صغيرة أنيقة ، ولكنها على صِغرِها حوَت كلَّ جديدٍ فى فنّ العلاج الحديثِ.

وبدا أمامنا الطبيب ، صديقنا المنشود : قامة ضئيلة ، ووجه ضامر، بعينين تائهتين تشرد نظراتهما هنا وهنالك دون مبالاة ، وظلّ ابتسامةٍ ترِف على شفتيه ، أكبرُ الظنّ أنها كلّ مافى جعبتِه من تحية واحتفاء !

وحوّمتْ فى الرأسِ خواطرُ خاطفةٌ ...

أذلك حقاً هو بيتُ القصيدِ فى رحلتنا إلى العالمَ الجديد ؟

أهذا هو مَناطُ الرجاء ، وفجر التمنى ؟

أهذا هـــو الذى من أجلِه طوَيْنا بِساط الريحِ على جناحِ العُقابِ ، لا نُبالى صعابَ الرحلةِ ووَحشةَ الاغتراب ؟ !

وسرعان ما بدأ الطبيب عمَله ... إنه لشحيحٌ بالوقت ، ضنين بالكلامِ ، مُقتصِد فى الحركة والإشارة : يحيط به سِربٌ من فتياتٍ متشابهات ، كلّ منهن مَنُوط بها عملٌ خاصّ

لا تعدوه ؛ وإنهنّ ليحزِرْنَ مايريدُ الطبيبُ من وحى نظراتِه، فيؤدِّين عملَهنَّ صامتات !

وانقضت الزيارةُ فى هذا الجوّ الساكنِ ، حيث لا كلمة تُقالُ إلا بمقدار ، ولا حركةَ تؤدَّى إلا بميزان ! ...

وأُحيل أمرُنا إلى كبيرةِ « السكرتيرات » . . . رداءٌ ناصع ، ومِنديلٌ يزهو على الصدرِ ، وابتسامة تتخايلُ على الثّغر ...

وفى بِضع لحظاتٍ عرفْنا كلَّ شيء :

العلاج ، موعده ، مدَّته ، نفقاته ، سائر مايتعلق به .

وغادرْنا مكتَب « السكرتيرة » الكبرى ؛ هابطين إلى رَدهةِ الدار .

وبينما نحن نُدير الحديثَ فى شانِ العلاج ، تدانى منا شخصٌ يطارحُنا الكلامَ بلغَةِ الوطن . . . هذا مصرىّ آخر رمتْ به النوَى مرامِيَها لمثل ما قدِمْنا من أجله ، وقد أوْشَك علاجُه أن ينتهى ؛ وفى لمح البصر زالت بينَنا الكُلْفةُ ، وكأنّ الودّ يربطُنا به منذُ أعوامٍ . ألسنا مصريَّيْن غريبَين ها هنا ؟

« وكلّ غريب للغريب نَسيب » !

واستطردَ بنا الحديثُ إلى نفقاتِ العلاج ، فتبيَّنَ لنا أن

الطبيبَ لا يسوّى فى النفقاتِ بين مرضاه ، وإن كان العلاجُ على نحوٍ سواء ... وعلمنا أنّ هذه سنّةٌ جديدة يتّبعُها كثيرٌ من أعلامِ الطبّ الأمريكيين . إن الطبيبَ هنالك ليقدّرُ النفقةَ وفقاً لاعتبارات خاصة بالمريض فيما يقول .

نظرية أمريكية حقاً ! ... إنها لنظريةٌ طريفة تبدو عادلةً راجحة ، ولكنها فى حقيقتها وجوهرها مرتعٌ خصيبٌ للمداورة والتلاعب ، من جانب المريضِ تارةً والطبيب تارة أخرى ...

إن « توحيدَ الثمن » فى العمل الواحدِ أو السلعةِ الواحدة ركنٌ من أركانِ الاقتصاد القانونىّ ودقةِ المعاملةِ فى حضارتِنا الحديثة .

ولطالما عِيبَ علينا نحن الشرقيينَ أسلوبُ المساومةِ والتفاوت فى ثمنِ السلعة الواحدةِ ، وما يُحيط بذلك من الألاعيب وضُروبِ الاستغلال والانتهازِ للفرَصِ ، حتى لقد كانت « السوقُ الشرقية » مضرِبَ المثل عند الغربيّين فى فوضَى الأثمانِ ، والتغابُن فى البيع والشراء ...

إنى لأخشى على كبرَى المدائن المتحضرةِ أن تنقلبَ بعد حينٍ سوقاً شرقيةً تسُودها فوضى المعاملاتِ تحت ستارِ بهرج

من النظريات الاجتماعية الطريفة ، ظاهرُها فيه العدلُ والرحمة ، وباطنُها من قِبَله الجورُ والاعتساف !..

إن حضارةَ اليوم القائمةَ على مبادىء إنسانيةٍ رفيعةٍ جديرة بالتقدير ، نراها قد رقّت من بعض جوانبها ، فإذا بها عرضةٌ للتمزّق .. ولو استمرّ الحالُ على ذلك لأصبحَ غزوُها مطلباً ليس بالعسير ، ولأصبحُ انهيارُها أمراً ليس بالبعيد !

زايلْنا دارَ الطبيب ...

لم نستمتعْ بعدُ ببهجةِ « الشارعِ » فى « نيويورك » ...

إذن ، بنا إلى « الشارع الخامس » ، نجوبُ أرجاءه ، نروّحُ عن النفسِ ، وننأى عن حديثِ المرضِ والعلاج !

الناسُ أجمعون فى هذا الشارع يَبينُ عليهم سيماءُ اليُسر والرّخاءِ : أناقة فى الزّىّ ، وتَرَف فى الملبس ، ورفاهية تُفصحُ عنها المظاهِرُ ... النساء فى معاطفِ الفَرْوِ الثّمان ، والسيقان دائما تكسوها غلائلُ الجوارب الفاخرةِ ، ليس ثمةَ من ساقٍ عارية ... ولكنْ أىّ فرقٍ بين الساقِ العارية والساق المصبوبةِ فى جَوْربٍ رقيقِ النسجِ نَمَّامٍ عن دقائق الفتنةِ والجمال ؟ ! .

لا وَحدةَ فى الزىّ ، ولا مراعاةَ لمألوف من التقاليدوالعادات .

إن بعضَ النساء لا يُبالِين أن يظهرنَ فى لَبُوسِ الرجال ، متخذاتٍ تلك السراويلَ الشائعةَ ، كأنهن فى البيوت متنقلاتٌ ، أو على الشواطىء متنزّهات ... ثمةَ طالباتٌ يتخذْنَ هذه السراويل تيسيراً للحركةِ ومسايرةً للنشاطِ ، وثمةَ عجائزُ يتخذنها

اجتذابا للأنظار إلى اطلال نضارةٍ عفتْ عليها السّنون ، أو ستراً لسيقانٍ ألحّ عليها الضمورُ والهزال !

وهذه وِجْهاتُ المتاجرِ والمخازن . . . إن العبقريةَ الأمريكية فى الأناقةِ والتنسيق والتألق ، لَتبدو فى هذه الوِجهات بالغةَ الإبداع . . . إن الكماليات لَتُنافِسُ الضروريات فى معارض تلك المتاجرِ ، فتغدو هى ضروريّات ليس عنها غَناء . ولِمَ لا يكون الأمرُ كذلك ونحن فى عاصمةِ النعيم والثّراء ؟ !

واسترعتْ نظرَنا وِجْهة تزهو فى تألّقها ، فوقفنا لحظة نتأمّل فيما تَعرِض من ضروبِ الأحذية ، وما هى إلا أن وجدْنا أنفسَنا فى داخل المتجَر ، نطلبُ حذاءً راقَنا شكله ! وبدا حيالَنا رجلٌ أنيق حيّانا فى أدبٍ تحيةً خاطفة ، وسألَنا : فيمَ نرغبُ ؟ . . إشارةٌ منه إلى ذلك المصعَدِ ليبلغَنا القسمَ الذى نجد فيه طِلْبَتَنا . . وصعِدْنا . . رجلٌ أنيق آخَرُ ، يحيينا تحيتَه الخاطفةَ ، ويدلّنا فى عجلةٍ على المكانِ المنشود . . . واتجهنا حيث أشارَ . . أنيق ثالث يرحّب بنا على ذلك النحوِ المعهود . يا لله مِن هؤلاءِ المُؤْنقينَ الوُجهاء ! . . . كأننا فى قصرِ سيدٍ غطريف تستقبلُنا حاشيتُه ! . . . وأشارَ الرجلُ بيده إلى ناحيةٍ ،

قائلا : المشترِى يتجه يميناً ، والمُـرافق يتجهُ إلى اليسار .

خطوتُ يَسْرةً ، فوجدْتُ نفسى فى زُمرةٍ من الرجال ، يقتعِدون مقاعدَ الانتظار . . . فى ذلك الركنِ يروضُ المرء نفسَه على فضيلة الصبرِ والاحتمال !

وجلستُ أبادلُ الرفاقَ نظراتِ الاستسلام ، والتفتُّ يَمْنةً ، فإذا بالمشترِين « طابور » كلٌّ ينتظر دَوْرَه .

وامتدّ بنا الانتظار ، فنهضتُ من ركنِ المرافقِين احاولُ أن أقتحمَ منطقةَ الشُّراةِ ، فما أسرعَ أن بدأ الأنيقُ يعترضُ طريقى ، ويعيدُنى حيث كنتُ !

يا عجباً ! . . . ها نحن أولاء فى هذا البلد الذى يوزَنُ فيه الوقتُ بميزان الذهبِ ، نرى أنفُسَنا أكثرَ الناسِ إضاعةً لأوقاتِهم وأشدَّهم تفريطا فيها ! ... ولكنْ ما الحيلةُ ، ونحن فى متجرٍ عظيم لا تستقيم فيه الأمورُ وتدقّ المعاملاتُ إلا بنظام مفروضٍ له مزاياهُ وله مساوئهُ الجسام ؟ !

إنّ هذا النظامَ قد جعل شراء زوجٍ من الأحذية يبلغ من التعقيد مبلغاً يَزهدُ مثلى فى احتمال تبعاتِه . . . إنى لأوثرُ الحفاء على أن أبقى رهينةَ حزبِ اليسار ، أشقى بوصول الانتظار !

وبعد لأيٍ خرجنا من المتجر ... بخُفَّيْ حنين !

وأحسستُ بأعصابي تتهافت .

ولم نكدْ نمشي خطواتٍ حتى شعرنا بوطأةِ الجوع ، فطرقْنا مطعماً اخلبتْنا واجهته ... صبغة وردية بهيّة تزهو تحت الأضواء الألاّقة ، فتكسبُ المكانَ جوّاً سحريّاً ...

ووجدنا أنفسنا قد انتظمنا في صفّ طويلٍ ...

وهذا « طابور » آخرُ .. نحن في بلد القوالب و « الطوابير » !

ذلك البلدِ الذي يروضُنا على فضيلةِ الصبر والاحتمال ! ...

وكنا نتحرّكُ كالآلاتِ ، نخطو إلى الأمام كلما خلا من أوّل الصفّ مكانٌ . وحانتْ مني التفاتةٌ إلى الخلف ، فإذا بي أشهد « طابوراً » آخر سرعان ما ائتلفَ .. فابتسمتُ ابتسامةً امتزج فيها الإشفاقُ بالارتياحِ : إني لمشفقٌ على أولئك اللاحقين الجياعِ الذين ينتظرون دورَهم البعيدَ ، وإني لمرتاحٌ على أيةِ حالٍ لما أصبته من سبق يُعفيني من مضّ الانتظار !

وظهر أنيقٌ يلقانا بوجهه الطلقِ ، ويُولينا نظرتَه العجول ، واصدر أمراً في شأننا ، فتحركْنا طوعَ أمره إلى المائدة التي فُرضتْ علينا ، لا تفضيلَ ولا اختيار .. وبَدَا سِربٌ من

فتَيات المطعم يتنقلن بالصِّحافِ بين الموائدِ خفافَ الحركةِ رشيقات كأنهن ظباءٌ بين الخمائل تنساب . . . وكنَّ فى حُلَل ورديةٍ ومَيادعَ ناصعةِ البياضِ قصار ، يشهدُ الله أنها لم تُتخذ لتصونَ ما تحتها من ملبَسٍ ، وإنما اتُّخذتْ للزينة واختلابِ العيون ! ...

وأقبلْنا على الطعام . . . وكانت القاعةُ على ما فيها من حركة دائبة ، واكتظاظ بالروّاد ، لا تزعِجُ أحداً بصوت ينكره السمعُ . . . كلّ شيء يسير على نظام دقيق ، إنه نظامُ الآلةِ الصماء ، حتى إنّ الأكلَ نفسَه ليجرى على أُسلوبٍ آلِيّ . . .

يجبُ أن تأكلَ ناشطا ، وأنِ تخُص جلستَك للأكل وحدَهُ ، حتى تُخلِىَ لغيرِك المكانَ . . .

إنك لتُحسُّ صوتَ « الطابور » يهتِفُ بك مستحِثًّا !

وزايلنا المطعَم ، فواجهْنا الشارع ، وقد اكتسى حُلةً من مختلِفِ الأنوارِ ، وتبدت وجهاتُ المخازن والمتاجرِ فى زُخرفِها الفتّان . . . ولكنّ الوقتَ مساء ، والأبوابَ موصَدةٌ ، فليس إلا أن نتبادلَ النظراتِ قانعين !

والآنَ ، إلى أين ؟ سؤالٌ ألقيناه على أنفسِنا ، فكانت الأجوبةُ شتّى متباينةً ، ولكننا لم نجدْ من بينِها جواباً يُزيِّنُ

لنا أن نعودَ إلى الفندُق ... أَنَزُجّ بأنفسِنا فى حجرةِ الفُندقِ،
تاركينَ مباهجَ الليلِ ويقظةَ الحياةِ ؟!

وألفينا أقدامَنا تدفعُ بنا إلى «برودواى» ... ورُحنا نمخُر
عبابَه المتلاطمَ : مواكبُ من الناس تسبحُ فى فيضٍ زاخر من
الأضواء ... إنّ «برودواى» عَلَمٌ من أعلام النور، بل إنه
اسمٌ من أسمائه ومعنًى من معانيه، إنه الحىّ الذى يجدُ فيه
كلُّ امرىءٍ ماتصبو إليه نفسُه من ضروبِ الملاهى وألوان
التسلياتِ ... هذه دور اللهو والطربِ، تتخلّلُها مطاعمُ
ومشاربُ رشيقةٌ فاخرة.

لا أثرَ هناك لما ندعوه «بالقهوات»، إنّ الناسَ لا يجدون
وقتاً ينفقونَهُ فى الثرثرةِ ولغوِ الحديثِ، وإنما يحلون تلك
الأماكنَ ليطفئوا الظمأ ويردّوا الجوعَ !

وطرقنا مشرباً، أو سمِّه مطعماً، فالمطاعمُ هى المشاربُ،
وهذه هى تلك على حدٍّ سواء !

رَجعة الى نظام «الطوابير» ... حتى للحصولِ على قدَح
من شراب !

حسْبُنا ذلك الآن من «برودواى» ...
وإن لنا إليه لرَجعةً بل رَجعات.

٧ ابريل

اليوم يوم « الأحد » ، مدينة « نيويورك » صامتةٌ كأنها وادى الأموات ... لقد اختفت من الشوارع أفواجُ السابلة ، واستراحت الأرضُ من غزواتِ السيَّارات ؛ وحلَّ مكانَ ذلك كلّه هدوءٌ شامل ، كأنك فى مدينةٍ أخرى غير التى شهدْتها أمس !

يوم « الأحد » فى « نيويورك » يومٌ هادىء ، بل يوم هامِدٌ ، إما أن تجعلَه يومَ راحة إجباريّة تلزَمُ فيه مَخدَعك ، وإما أن تجعلَه يومَ نُزهة تخرُجُ لها فى إحدى الحدائقِ أو الضواحى ...

واخترنا أن نبدأ نشاطنا بعد الغَداء ، فخرجنا نطلبُ النُّزْهة ، تاركين للمصادفات أن تُرتبَ لنا وِجْهةَ السير .

وأحسستُ بالمصوَّرَاتِ الخاصَّةِ بمسالك « نيويورك » ومعالمِ طُرقها تزْحم جيبي ، وكأنها تتقاضانى حقَّها فى إبداء الرأى .

قصدنا « الشارعَ الخامس » صديقَنا الأوّلَ ، ووقفنا لحظةً نتساءَلُ : أنمتطِى سيارةَ أجرة تجوب بنا أرجاء المدينة ، أم نسيرُ مترجّلينَ يُسْلِمُنا طريقٌ إلى طريق ؟ ...

وهنا أطلَّت المصوَّرَاتُ من جيبي تعرِضُ علينا خدَماتِها الجسَام، وهممت بأن أمدَّ إليها يدي، وسرعانَ ما رأيتُ سيارةً حافلةً تقِفُ على مَقرَبَةٍ منا، فدخلناها على الفور، لا ندرِي من أمرِها أيَّ شيء!..

وصَعِدنا إلى الطبقة العليا منها، وكانت حقًّا سيارة فخمة أنيقة، راحتْ تعدو في «الشارع الخامس» عدْوَ النَّمِرِ الجسُور في فَلاَةٍ جرْداء.

وأخذْنا نتطلَّعُ حولَنا في بهجةٍ وائتناس، ونتأمَّلُ رقعةَ السماءِ الصغيرةَ تحاولُ في جهدٍ وعناءٍ أن تطلَّ علينا من بين شواهِقِ الأبنيةِ المتراصَّة، وكان الجوُّ صحْواً يُذكي فينا تلك اليقظةَ التي تَسرِي بين جنوبنا.

وظَلِلْنا حِيناً والسيارةُ الحافلةُ تمضي قُدُماً لا تنحرف ولا تَحِيد، ثم انتهت بنا المرحَلةُ إلى «ميدان واشنجتون».

وألفيْنا أنفسَنا نتركُ السيارةَ ...

ميدانٌ رَحْبٌ احْسِنَ تنسيقُه، ولكنه يعجزُ عن إشعارِكَ بالعظمة والفخامة، تبدو عليه مسْحَةٌ من الكآبة لا تعرفُ لها مأتىً... بوَّابَة كبيرة تذْكاريَّةٌ، هي قوْسُ النصر. إنها البوابة

عليها تجهم وعبوس ... أشجار منثورة هنا وهنالك ... روضة للأطفال ... شراذم قليلة من عُرض الناس تغدو وتروح .

ليس فيك ما يُغرى يا « ميدان واشنجتون » !

عودة إلى السيارة الحافلة .

وأخذت تعود بنا أدراجها ، سالكة ما سلكت من طريق ممدود ... إن ركوب هذه السيارة الحافلة لنزهة طيبة لا تدع لأنفسنا رغبة فى النزول ، إننا لنركبها كما يركب الطفل اللعوب حصان « السيرك » لا يزهد فيه مهما دار به ودار ...

وبعد وقت طالعت أعيننا خضرة واسعة ، خضرة عظيمة تكسو الرحاب نضارة وتملأ العين بهاء ... إن ابتسامة ذلك البستان لتنتزعنا من صهوة حصان « السيرك » وتجتذبنا إليها فى لهفة وشوق !

النسيم رطب منعش ، والشمس وضاحة مسفرة ، وكل ما حولك يرف نضرة وازدهاء !

وزاننا نتهادى إلى سور ذلك البستان الفيَّاح متطلعين إلى مباهجه ... وما كدنا نخطو خطوتين حتى سمعنا صوتا يقول :

هل لكم فى جولةٍ فى « السنترال بارك » ؟ يجمُلُ بكم أن تنتهزوا فرصةَ اعتدالِ الجوّ قبل أن يتقلَّبَ !

ونظرتُ ، فإذا أنا أمام شيخٍ فارعِ القوام فى حُلَّةٍ رسمية ، وقُبَّعةٍ سوداءَ عاليةٍ أفصحتْ عن مِهْنته الأصيلة ...

ولمحتُ على مقربةٍ منه مَرْكَبَتَهُ الفخمةَ النظيفةَ يتلوها رَتَلٌ من المرْكَبات تماثلُها فخامةً ونظافةً ، كأنما أُعدَّتْ لرَكْب زفاف أو مَوْكبِ استقبال ..

وأعاد الرجلُ قولَه فى بِشْرٍ وملاطفة ، فكان أن صعِدْنا فى المرْكَبةِ دون جواب !

جولةٌ فى « السنترال بارك » ...

لم نسأل الحوذىَّ عن مُدَّةِ الجولةِ وأجرِها ، إن المكانَ لأرْوعُ من أن نساومَ فى شأنه ...

لسنا فى مَرْكبةِ أجرةٍ عرجاء ، ولسنا فى جوفِ الليل نقضى الوقت فى عاصمةِ الصمت والظلامِ ! ...

عفوَك يا « باريس » ... فإن مرْكبتَكِ المهشَّمة وحُوذيَّكِ المخمورَ لاننساهما ، وإن تناءتْ الديارُ ، وتعاقبتْ الأيام !

ومضت المرْكبةُ تجوسُ خلالَ الروضةِ الزاهرة ، تارةً

تسلُكُ بنا فِساحاً من الطرق تنبسِطُ على جانبَيها المروج، وطوراً تتسلَّلُ إلى مسالكَ رشيقة قامت على حِفافِها الأشجار المورِقةُ الفينانة، فتشقّ بنا الطريقَ بين الخمائلِ والعرائش، كأننا فضوليُّون نُفَرِّقُ بين الأغصانِ والأفنانِ وهي في مواصلة وعِناق !..

المرْكَبةُ مازالت تمضي... نهبِطُ بها وهاداً ونعلو نِجاداً، نعبر بها جسوراً ونسايرُ جداولَ وبُحَيرْات، ونقتحم غاباتٍ تتشابَكُ فيها بواسِقُ الشجر..

كلّ ذلك والروضةُ تتجدَّد وتمتدّ، ولا يُدرِكُ لها آخِر.

إن الحُوذِيّ قد ألقى العِنانَ لجوادِه، وإن ذلك الجوادَ المطهَّمَ الأصيلَ، ذلك الصديقَ الكريمَ، ليقودُنا حيثُ يريد. إنه لأكثر شيء عِلماً بهذه المسالِكِ والدروب، بل إني لأحسبُه يشارِكُنا هذا الاستِمتاعَ بفتنة الطبيعة وجمالِ الكوْن!

إن «السنترال بارك» مِزاج عجيبٌ من صِبْغَةِ الطبيعة وصَنعةِ الإنسان... لقد جالت يدُ الفنّ في حواشيه، فأخرجت منه لَوْحاً رائعاً مادّتُه من خلْقِ الطبيعة وروحُه قَبسةٌ من روحِ الفنّان!

هذه الحضارةُ الأمريكية، بل حضارةُ اليوم، تقومُ على

هذا المذهب : تطويعُ الطبيعةِ لخدمةِ البشر ، استغلال منافعِها ، تكميل عناصِرها ، تجليةُ مفاتِنِها . . . حضارةُ اليومِ إذن هى تزاوُجٌ بين فطرةِ الطبيعةِ وعبقريةِ الإنسان . : . فإذا غلبت النِّسَبُ مرعيَّةَ الجانبِ بينهما فثَمَّ الخيرُ والتوافُقُ ، ولئن بَغَى أحدُهما على صاحبِه ليكونَنَّ من وراء ذلك التنافُرُ والشِّقاق !

ثمةَ مثلٌ لضرورةِ هذا التزاوجِ ، يمكن أن تراه فى زِينة المرأة ، فإن روحَ الزِّينةِ هو إظهارُ مفاتِن الأنوثةِ الطبيعية فى مظهرٍ فنىٍّ أخّاذ ، فإن طغى زُخْرُفُ الزينةِ كان ذلك تشويهاً للطبيعة وتبديلا لها وتزويراً عليها .

فلزامٌ على المرأةِ فى زينتِها أن تُحسِنَ المزْجَ ومراعاةَ النِّسَب فى دِقَّةٍ ولباقة .

عليها أن تكونَ فنّانةً تُجيدُ تجليةَ صورتِها فى لوحٍ فنىٍ قِوامُه صدقُ التعبيرِ وبراعةُ الإخراج !

... رَجَعنا أدراجنا نستمرىء ألواناً من الأخيلة ، أثارها فى خواطرنا ذلك الرَّوضُ البهيج .

١٨ ابريل

عليّ أن أُدبِّجَ بعضَ الرسائل إلى « مصر » ... رسائل ليس من تدبيجها بُدّ ... عليّ أن أخلُوَ إلى نفسى بعضَ الوقت أحتبِسُ فى ذلك البرج العالى لأتحدَّثَ على البُعدِ إلى من تصلُنى بهم وشائج القُربَى أو أواصر الود .

شدَّ ما يهولنى ما أنا مُقبِلٌ عليه .

إنه كأعمال السُّخرةِ ...

جبالٌ رواسخُ أُحاول أن أحملها على كَتِفَىَّ ...

صفحاتٌ وصفحاتٌ لابدَّ أن أوشِّىَ سطورَها بزُخرُفِ الكلام ، مختِتماً إيَّاها بتلك الفِقْرَةِ الخالدة :

« وتفضلوا بقبول وافر الاحترام » !

ما كان أكثرَ عناءَ القلمِ من تَكرَارِ هذا الختامِ التقليدىّ ... إن ذلك القلمَ ليرَفعُ رأسَه إلىَّ ساخراً يهمِسُ :

هلا جدَّدْتَ فيما تكتُب ؟ هلاَّ استبدلتَ بهذه القوالبِ الأثريَّة تعابيرَ أخرى عليها جِدَّةٌ وَرونَق ؟

ليست تلك الفقرة يا قلبى الكريمَ هى كلّ ما يتطلبُ الاستبدالَ والتجديدَ . . . إنى لأرى « الرسالة » نفسَها قد طال عليها الزمنُ حتى أدركها البِلَى . . . « الرسالة » على اختلافِ الحقَب والعصور ، منذ ضربت بها الإبلُ أرجاءَ الفيافِى إلى أن حملتها الباخرةُ فالطائرةُ من أقصى مكان إلى أقصى مكان...

إن « الرسالة » هى هى : صحيفةٌ تُطوَى ، وغِلافٌ يصون!

ما أشوقنِى إلى اختراعٍ آخرَ يحِلُّ محَلَّ هذه « الرسالةِ » العتيقة ! ... لم لا تكونُ للإنسان مِسَرَّةٌ لاسلكيةٌ أو نحوُها ليقومَ التخاطُبُ مقامَ التكاتُب ، فتُغنِى الأصواتُ عن الأسطار ، ويُغنِى اللسانُ عن القلم ، ويُغنى الأثيرُ عن ورقٍ ومداد ؟

ما أشوقَنِى إلى عهدٍ يسوده هذا الاختراع ، ليُنجِينا من تلك الجلساتِ المملةِ الطِّوال نعتصِرُ فيها الفكر ونستنزف المدادَ ، على حينِ أن كلمةً واحدةً أو كلمتين من فمٍ إلى فمٍ قد يكون فيهما غَناءٌ عن سطورٍ كِثار .

ولكن قد يُرضِينى أمرٌ لا يجدُ فيه غيرى مُبتَغاه ، فمثلاً صديقُنا العاشقُ المُتيَّم يستمرئ نشوتَه فى الجلوس ساعات وساعاتٍ إلى مكتبِه يُدبِّجُ ويُنمِّقُ ، يسكبُ روحَه على الصحائف

جملاً وكلمات . . . إنه لواجدٌ فى هذه الوسائل صديقاً أميناً يستودعه ما يريدُ من مناجاة وأسرار لا يستطيع أن يبوح بها تخاطباً ، ولا أن يُلقيها من فمه ارتجالاً ، فإن الكلمات لتتعثر على شفتى العاشق الواله ، وإن الأفكار لتشرُدُ من رأسه ضالّة حيرى ، فإن خلا إلى قلمه وقرطاسه ، وأتاه الكلامُ يسيراً غزيراً ، وأقبلت عليه الخواطرُ طيّعةً مُجيبةً !

بين يدىّ أوراقٌ مبسوطةٌ صامتةٌ معتقلةُ اللسان ، ترغب فى الإبانة والإفصاح ، وعن كثب منى قلمٌ عارٌ متأهّبٌ للنزال ، أراه يخالسنى النظرَ متململاً ... فلأبدأ رسائلى !

ورُحت أعتصرُ رأسى فى حميّة وحماسة ، فلم تدرَّ قريحتى إلا تلك الجملةَ المعهودة :

« وتفضلوا بقبول وافر الاحترام » !

إنها الجملةُ الفذّةُ التى تُدوّى فى رأسى بصوتها المُجلجل ، وكأنها تقول :

ليس فى الإمكان أبدعَ مما كان !

وفيما أنا تتنازعُنى الحيرةُ بين القلم والقرطاس ، إذا بى أسمع نقراً بالباب .

— ادخُلْ .

قلتها دون أن أتحركَ .

وأحسستُ شخصاً يطرُق الحجرةَ بخُطا ناشِطةٍ ، فألقيت عليه نظرة : رجلٌ فى زىّ العمال ، يُطوّقُ خصرَه حزامٌ من جلد ، وبيده شِبه حقيبة .

وسمعتُه يقول :

أيأذَنُ لى السيّد أن أزاولَ عملى ؟

— دونَ شكٍّ ... تفضل .

مالى ولعمله ؟ فليفعلْ ما يريدُ ، ولأمْضِ فيما بين يدىّ أعالجُ مشكلةَ الرسائل ...

وعدتُ إلى نفسى أفكـّر ، وعادت الجملةُ المعهودة تحاصرنى وتملأ ما حولى طَنيناً .

وأنبهتْنى حركةٌ من الرجلِ الطارق ، وصوتٌ أشبه بالقفزة ، فتلفـَّتُّ فإذا الرجلُ لا ظلَّ له ! ...

لقد كان بجوارِ النافذةِ اللحظةَ ، فماذا حدثَ ؟

وازدحمت علىَّ الهواجس ، وأحسست تخاذلاً وحَيْرَة .
أأواجه حادثَ انتحار ؟ ولكن لم وقع اختيارُ هذا المنتحر

الأحمق على حجرتى ؟ ألأنها فى ذِرْوَةِ الفُنْدُق ؟ . . .

وبادرنى خاطرٌ آخر : أيكون هذا الرجلُ ممثلاً سِينَمِيًّا يقومُ الآن بدوره ، وهنالك فى السطوح تَرصُد الآلاتُ المصوِّرةُ حركاتِه وسكناته ؟

وهُرِعتُ إلى النافذة ، فما راعنى إلا أن أرى صديقَنا العاملَ وقد عَلّق حلقةَ حِزامه بطرفِ الشُّبَّاك ، وأسْلم جِسمَه للفضاء ، وانبرى يُنظِّفُ الزجاجَ فى سكينةٍ وهدوء .

وجعلتُ أتأمّله لحظةً ، وقد استعدتُ طمأنينتى ، وتبادلْنا الابتسامَ ، وأرسلتُ نظرةً إلى الأرضِ ، فإذا المَهوَى سحيق .

حقًّا إنه لرجلٌ من فولاذ !

ولم أعتِّمْ أن رأيتُ فى شواهقِ المبانى قريبِها وبعيدِها أشباحاً تتراقصُ على حافات النوافذ تَرُوحُ وتجىء فى سهولة ويُسر ، كأنها العناكبُ تتشبّثُ بالحوائطِ والجدران .

إنهم جميعاً يُميطون الغبارَ عن الزجاج .

إن النوافذ فى هذا البلدِ العجيبِ لها خَدَمٌ مختصُّون ، يناطُ بهم تعهُّدُها وإماطةُ الغبارِ عنها حيناً بعد حين !

فلأدَعْ ذلك الرجلَ المعلَّقَ بين السماءِ والأرض ، ولأرْجِع إلى مكتبي …

وأسرعتُ أجتذبُ بطاقةً مصوَّرة ، وأنثر فيها كلماتٍ عَجْلى ، ذَيَّلْتُها بالجملة المعهودةِ :

« وتفضلوا بقبول وافر الاحترام » !

وتناولتُ البطاقةَ ، تلك التي تمخضَ عنها جُهْدَ جَلْستي وخَلوَتي ، ومضيتُ مَزْهُوًّا بهذا الظَّفرِ أُودعُ البطاقة صندوقَ البريدِ القائمَ بجوارِ بابِ المِصْعَد .

وبعدَ قليلٍ زايلتُ الفندقَ ، وأنا أستلهمُ « مفكرتي » : ماذا أصنعُ ؟

إنه يومُ القنصليةِ المصرية . . . هي على مسير خُطوات . . . فلأقصدْ إليها . . . وما هي إلا هنيهة حتى كنتُ أمامَ ناطحةٍ من نواطح السحاب . إن القنصليةَ تحتلُّ ركناً في الطبقةِ الحاديةِ والثلاثينَ من هذا الطَّوْدِ الباذِخ ، وإنها في ركنها لتقاربُ منطقةَ الجوزاء . . . شرفٌ يُهدِي إلى النفس الغبطةَ والابتهاج !

لايجهلُ أحدٌ ما للقنصليةِ المصريةِ من مكانة ملحوظة في « نيويورك » وما للسِّفارةِ المصريةِ من جاهٍ في « واشنجتون » .

لعلك تتساءلُ مع المتسائلين : أى ربح أصبناه ؟ أليس هو ربحاً موهوماً ؟ ألم يكن اولى بنا أن ننفق أموالنا فى إصلاح مرافقِنا الداخلية قبل أن نُعنَى بالزُّخرُف الخارجىّ ؟

قد يكون فى ذلك جانبٌ من الحق ، ولكن يجبُ ألا يعزبَ عن بالنا أن لهذه المظاهر أثرَها الكبيرَ فى توجيهِ الأنظار وتكوين الأفكار ، وأننا أهل عصرٍ للدعايةِ فيه شأنٌ أىّ شأن.

فمهما نتشدقْ بكراهيتنا للأبواقِ الصاخبة ، وبُغضِنا للزينةِ الظاهرة ، فإننا فى دخيلة أنفسِنا نتأثرُ بهذه الزينة وتلك الأبواق.

ولا ننسىَ أننا حين نظهرُ بهذا المظهرِ البرّاقِ بين الأمم ، مهما نكن فى رَكبِ الحضارة من المتخلّفين ، فإن فى ذلك الظهورِ إيحاءً عميقاً يجعلُنا نحسبُ حقًّا أننا أكفاءٌ للصفّ الأول من الأمم المتحضِّرة ، ثم لا يلبث هذا الإيحاء أن ينقلبَ عقيدةً راسخة تُحيِي فينا رواقد الهممِ والعزائم والقُوَى ، فنمضى فى الطريق عاملين مجاهدينَ فى ثقة وإيمان . . .

على أننا فى هذا العصرِ نلمسُ تهافُتَ الأممِ على الدعايةِ والتظاهُر ، متوسلةً إلى ذلك بكل وسيلة وحيلة ؛ كلُّ أمة

تتطاول وتتعالى وتُدافع مَنْ حولها بمنكبيها لتفسح لها المكان الأرحب وتشق الأفق البعيدَ.

ففى دَوِىّ هذا الضجيج ينبغى ألا نسلمَ أنفسنا لفضيلة « التواضع » حتى لا تخفينا بين طياتها الأمواج.

إن بعضَ الفضائل لترتدُّ فى بعضِ ملابسات الحياة وأوضاعها الطارئة نقائص يكونَ من ورائها الخُسْران!

واتجهت إلى المِصعد، أرتقيه إلى الطبقة الحادية والثلاثين. ووقفْنا فى المِصعد نرقبُ الأرقامَ الكهربيَّة التى تعيِّنُ عدد الطبقات. كانت الأرقام تظهرُ وتختفى فى سرعة حتى لتكادُ تخطئُها العين... إنى لأخشى إذا تُرِكَ هذا المِصعدُ وشأنه أن يضرب بنا وجه السماءِ ليزْحم الأفلاك!

اجتزتُ باب القنصلية، فواجهتنى ردهةٌ ليستْ بالفسيحة، نُثِرَت فى جوانبها تماثيلُ فِرْعونية لا يُعييك أن تدركَ أنها نسخٌ حديثةُ الصُّنع، على الرَّغم مما تبدو فيه من سِمَاتِ البِلى والقِدم. ووقفتُ أرجع البصر فيما حولى برهةً...

مظهرٌ متواضِعٌ بدأ يُشعِرُنى بشىء من خيبة الأمل. لولا تلك التماثيلُ الزائفة وما داعبَ سمعى بين حينٍ وحين

من نِثارِ كلماتٍ عربيةٍ تتجاوبُ بها الحجراتُ ، لأنكرتُ أنى فى مَعقلٍ مصرىّ !

ولكنى ما كدتُ أدخلُ مكتبَ القنصل ، وألقى منه تلك الحفاوة والبِشرَ ، وآنسُ بعذوبةِ حديثه ورقّةِ شمائله ، حتى شعرْتُ بطمأنينةِ نفسٍ وانشراحِ صدر .. لقد وجدتُ فى ذلك النّمُوذَج الإنسانىّ ذِى الطابَعِ المصرىّ الأصيلِ ما أنسانى زَيْفَ الصنعةِ فى تلك التماثيل التى قُدّتْ من الحجر !

إن حجرةَ القنصل يَغمُرها الضوء القوىُّ من كل جانب ، فليستْ حوائطُها إلا نوافذَ كبيرةً تُشْرِفُ على ما حولها من شواهِق الأبنية يتوسّطُها عروسُ نواطحِ السحاب ، ومَلِكة الشواهِق فى العالم : « امْبير ستيت بلدنج » .

وتجلتْ القهوةُ المصريةُ فى أقداحِها التقليديةِ ... يحملها إلينا أمريكىّ سمحُ الوجه ، بالغُ الأدب ، وهو يتهادَى مبسوطَ القامة فى صِدَارِه الصُّوفىّ ... يالهامن مفارقة عجيبة !.. تزاوُجٌ بين عنصرين مختلفَين ، تحاولُ القنصليةُ أن تجعلهما فى مَظهرٍ واحد !

ليت ساقِىَ القهوةِ كان أخانا التابعَ المصرىَّ الأمينَ فى زيِّهِ

الأصيلِ ، بقَبابِتهِ الناصعِ المهدَّلِ الأكمام، ونطاقهِ الأحمرِ القانى، و خفتِّه القِرمزِى المتألِّق. إذن لتمَّ الائتلاف بين القهوة وساقيها !

إن القنصلية المصرية صورةٌ حيَّةٌ من الوطنِ، فيجب أن تكون صادقةَ التعبير عن ملامحه ومعالمِه !

تركتُ القنصليةَ ، ورحتُ أجوب « الشارعَ الخامسَ » إلى غيرِ وِجْهة ، فقادَتني قدماى إلى مِنْطقة « ركفلر » . . .

وراعنى أولَ ماراعنى فى ناحيةٍ من نواحيها سَوارٍ عاليةٌ تحمل ذُوَاباتُها طائفةً من الأعلام لمختلفِ الأمم ... إنها تمثِّلُ أعلام هيئةِ الأمم المتحدة .

لقد أحسَنوا اختيارَ المكان : حديقةٌ صغيرةٌ تتحلى بناضرِ الزهر فى أبهَى تنسيق ، وبحيرةٌ رشيقةٌ تنبسِطُ صفحتُها تحتَ السوارِى كأنها تدعُو الأعلامَ إلى أن تتصفَّحَ فى مرآتِها ألوانَها الزاهيةَ !

وخفقَ قلبي خفقةً يبعثُها شعورٌ خفِيّ ، ووجدتُنى أخطو خطوات سِراعاً إلى ساحة الأعلام أتفقَّدُها واحدةً بعد الأخرى.

لم يَخِبْ سُؤْلى ، إن العلمَ الأخضرَ ذا الهلالِ والنجومِ الثلاثةِ يرِفّ مشرقاً بين هاتهِ الأعلام !

وتدانيتُ من سارِيتهِ ، حتى كساني ظله ، فشعرتُ كأني ألوذُ بحِمىً حصين ، وأحتمي في جوارٍ أمين . وشخصْتُ إليه ببصري ، وما هي إلا أن أحسستُ بأن كلَّ شيء هنالك يتزايلُ ويختفي ، وكأن نواطحَ السحابِ قد ذابتْ من حولي ، ولم يبق إلا أنا وأنت أيها العَلم الأعزّ ! . . . أنا وأنت في تلك الأرضِ النائية ... أأرضٌ أمريكيةٌ حقًّا هي التي أطؤُها الساعةَ أم هي رُقعةٌ من أرضِ الوطن ؟ ... ما دامت تلك الديباجةُ الخضراء تُظِلُّني في هذه البقعة فإني أُحسُّ دِفْءَ «مصر» وإشراقَ شمسِها وصفاءَ سمائها ونضْرَةَ أرضِها ! إني لأرى مبانيها المتواضعةَ حتى أكواخ القرى وعرائشها تحتلُّ مكانَ تلك الشواهقِ ، وكأنها قد عَلتْ عليها وتسامَتْ فوقَها !

ودِدْتُ أيها العلمُ أن تدنوَ من عليائِكَ قليلا ، فتُوليَني حاشيتَك الخضراء لألثمها وأُمرِّغَ جبهتي بنضْرَتِها الزاهية ... إني لأريد أن أتعانقَ بحاشيتِك كما يتعلَّقُ الحجيج بأستار الكعبة يومَ الطَّوافِ ، يلتمسونَ بَرْدَ اليقين وطمأنينة الإيمان !

ألا فلتَظلَّ أيها السيدُ الصَّمُوتُ تعلو بهامتِكَ النبيلة ،

وحسبُنا منك أن ترَفْرِف علينا محيِّياً .. إنك لأفصحُ فى صمتِك وترفُّعِك من ألفِ خطبةٍ وبَيان !

وتركتُ ساحةَ الأعلام نشوانَ النفس ، قوىَّ الاعتزاز ، وعُدتُ أذرَعُ بخطاىَ الشوارعَ المُطِيفةَ بذلك المكان ..

وكنت أتطلَّعُ إلى وِجْهاتِ المتاجر والمخازِن أتفرَّجُ ، فاجتذبَتْ ناظرى فيها لافتةٌ يتكرَّرُ عَرْضُها فى أبرز مكان ، مكتوبةٌ بخطٍّ أنيق ...

وقرأتُ : « تذكَّر يومَ الأمّ » !

أىَّ يوم ؟ وأىّ أمّ ؟

وتوالتْ وِجْهاتُ المتاجر والمخازن ، وهذه اللافتة المغرِيةُ تبدُو أمامَ عينى ، كأنها تتكلَّمُ ولا ينقطعُ لها كلام ...

وكنت على مَقْرَبةٍ من بائع صحُف فى ظُلتِه الشائعة ، فاشتريت منه إحدى الصحف بلا اختيار ، وسألتُه عن ذلك اليوم الذى يَجِبُ علينا أن نتذَكرَه ، فأجاب مبتسما :

إنه اليومُ الذى تُسْعَد فيه الأمُّ برعاية أولادها ... على كلِّ ولدٍ أن يقدِّمَ لأمِّهِ هديةً فى ذلك اليوم ... إنه عيدٌ للأمومة يقيمُه الأبناء !

ـ والأبُ ؟... ألا يومَ له ؟

ـ إن له ليوماً مشهوداً تَقَرُّ به عينُه !

وتابعتُ مَسيرى أتأمّل تلك اللوافت المتكرِّرة .

ما أجملها فكرةً تُشعِرُك بتلك العاطفةِ الكريمة ، ولكن ألا تلمحُ بين سطورها شبحَ المادّة يطِلُّ ، وطابعَ الآلة يتجلّى ؟ ألا تكونُ ثمة حيلة تجارية لترويج السِّلع ونقلِها من المتاجر إلى البيوت بين عشيّةٍ وصباح ؟ !

إن فى تلك الفكرةِ لمحاولةً تُشعِرُكَ بأن الأمريكىَّ الغارقَ وسْطَ فيضٍ من المادةِ والآلةِ يَحْمل بين جنبيه قلباً خفاقاً بالعواطف الإنسانية النبيلة ... ولكن الأمرَ لا يحتاجُ إلى هذا الإعلانِ الجهيرِ والزُّخرُفِ الصاخِب ، فقد تكونُ قُبلةٌ صغيرةٌ ملأى بالحنانِ والحبِّ أدلَّ على تقديرِ الأمومة وصِدْق العاطفة من هديةٍ ثمينةٍ غالية !

أكبرُ الظنِّ أن هذه القبلةَ الحنونَ التى يتجمّعُ فيها صدقُ العاطفة ، يشعرُ الأمريكىُّ بها تتزايلُ وتفنَى فى ذلك الجوِّ الصَّخاب !

إن الأمريكى ليستنقذُ عاطفةَ الأمومةِ بتلك التَّذْكاراتِ المادية وذلك الإعلانِ الضَّخْم .

تذكَّر يومَ الأمّ ... فكأنَّ الأمريكيَّ يهيب بالأبناءِ قائلا :

أيها الغافلونَ ، تذكَّروا أن لكم أمهات ، وأن لهنَّ عليكم حقوقاً وواجبات !

إن « يومَ الأم » فى نظرى لهو صرخةٌ مدوية تعلن خلوَّ القلبِ الأمريكيِّ من حنان البُنوَّة ، وإفلاسَ عواطف الأبناء فى تقديرِ الأمهات !

ويحَ الأمِّ من يومِها العصيب !

إنهم ليتوِّجونها فيه ، ويبوِّئونها عرشاً واهِيَ القوائم مُزعزَعَ الأركان !

وأوغلتُ فى الطُّرقِ أجوسُ خلالهَا .

هنا لك لوافتُ أُخَر فى وِجْهاتِ بعضِ المتاجر ، قرأتُ فيها :

« من أجلِ أوربا الجائعةِ ... من أجلِ أوربا العارية ... »

إنها صناديقُ مختلِفةُ الحجوم ، فيها أنواعٌ من السِّلع والأطعمة ، مما تشتدُّ إليه حاجةُ الناس فى أكثر البقاعِ الأوربية حيثُ الفاقةُ والبؤسُ يُنشِبان الأظفارَ ! ..

تستطيعُ أن تشترى أحدَ هذه الصناديقِ ، وأن تبعثَ به إلى صديقٍ لك نكبَه الزمنُ وأذلَّه القدرَ .

لبثتُ لحظةً أفكر ، ورحت أبسُط الصحيفةَ التى اشتريتُها منذُ برهة ، فوقعتْ عينى اتفاقاً على ذلك العُنْوان :

« من أجل أوربا اليتيمة ! »

وطالعتْنِى تحتَ العُنوان صورةُ طفل وسِيم يبسِم لك فى ضمورِه ونحوله ، كأنك تسمع نداءه إياكَ فى لهفة :

هل لك أن تتبنَّانى ؟

وعبرتْ عينى سطوراً يناجِى بها الطفل أهلَ المروءةِ من بنى الإنسان ، قائلا :

فى « أوربا » ألوفٌ أمثالى فقدوا الأبَ والأمَّ والعائلَ ، لا كنفَ يحمى ، لا كافِلَ يرعَى . هلاَّ ضممْتنى إليكَ ، وحميْتنى بين ذراعيْكَ ، ورحمْتَ طفولتى من أغوالِ اليُتْم والبُؤْسِ والتشريد ؟ !

« أوربا » منارُ الحضارة ، وموئلُ المدنيَّة ، تغدو بعد سنىِ الحربِ الستِّ ، وقد نخرَ فيها سوس الهُزَال ، وبدَت فى رِقاع وأسمال ، تستصرِخ أهلَ الأرض ليجودوا عليها بكُسوة وطعام !

« أوربا » العظيمةُ تمدُّ إليكَ كف الضراعة ، ويدَ السؤال .

وكأنها تقول :

ارحموا عزيزَ قومٍ ذَلّ !

« أوربا » العزيزة تعرض اليومَ فلذَاتِ أكبادِها فى أسواقِ الإحسان ، تبيعها نظيرَ كِسْرةٍ من خبز وقطعةٍ من نسيج !

سبحانَكَ اللهمّ .. إن الدُّوَلَ كأفرادِ الناس سواءٌ بسواء ، تتداوَلُها الأيامُ بالنَّعْماءِ والبأساء !

ها هى ذى « أوربا » تلك الأميرة العاتية التى طالما جرَّتْ ذيلَ الخُيَلاء ، وفى يدِها سوط تُلهِبُ به ظهورَ الضعفاءِ والمنكودين ، تبدو اليومَ تجرجرُ أذيالَ المهانةِ والإخفاقِ ، ولا تملك فى محنتها القاسيةِ أن تحجبَ نفسَها عن أعينِ الشامتين ممن ذاقوا من يدِها سوطَ العذاب ! ..

أتراها تستذكرُ هذا الدرسَ ، ولا تغفُلُ عن عقباهُ ومغزاه ، حين تندملُ جراحُها وئيداً ، وتستقلُّ من عثراتها شيئاً بعدَ شىء ؟ ! ...

١١ من ابريل

الساعةَ عدتُ من دارِ الطبيب ... إنها الزيارة الأولى لذلك الشخص العزيزِ علينا بعد أن استقرّ فى تلك الدارِ يطلبُ الشفاء، وإنه ليوم حاسم فى موقعة المرض الذى يشكوه.

كنت واجفَ القلب، احاولُ جهْدَ الإمكانِ أن أنفِيَ عن ذهنى الأفكارَ السُّودَ، أو أن أذكِيَ فى النفسِ لوامعَ الآمال، ولكنى كلما جهدْت فى إذكائها ألفيتُها تخبو ولا يَرِفّ لها ضوء...

أعترفُ بأنى رجلٌ تغلِبُ علىّ نزعةُ التشاؤمِ، أخلقُ المشكِلاتِ، واقيمُ حولى العوائقَ.. على أنى فى هذه اللحظةِ أرى تلك النزعةَ تقْوى وتستفحِلُ... إنى لأجدُ نفسى حقاً فى مهبّ العاطفةِ، أُحِسُّ الرياحَ الُهوجَ توشِكُ أن تعبثَ بى: هواجسُ قاتمةٌ تتلاحقُ وتتلاصق، إنها لتتكاثفُ طبقاتٍ بعضُها فوقَ بعض، كما يتعقّدُ الضبابُ الحالِك وتتلبّدُ الغيومُ الثِّقال.

لقد تركونى وحدى فى تلك الحجرةِ الصغيرة من دارِ الطبيبِ ، أُواجهُ اللوْحَ الفنّىَّ المعلقَ على الحائطِ ، ذلك اللوحَ الذى يصوّرُ « برومثيوس » الأسيرَ طريح الصخرةِ العاتيةِ تئودُه الأصفادُ ، والنّسرُ منه قريبٌ يتحفّزُ لانتهاشِ كبدِه . . .

إن موقفَك يا « برومثيوس » فى هذا اللوحِ ليس إلا رمزاً لِما يحيطُ بالإنسانية من ألوانِ العذاب ، وما ذلك النسرُ إلا يدُ القدَرِ تبطِشُ بنا وتُذيقنا أصنافَ النّكال . . ماذا فيكَ أقتبسُ منه نورَ الأملِ ، وأستروحُ منه نسيمَ الطمأنينة ؟ . . .

كل ما فى هذه الحياة « برومثيوس » . كلُّنا راسِفونَ فى الأصفادِ وإن حَسِبْنا أنفسَنا أحراراً ننطلقُ حيث نشاء ! . .

لقد لبثتَ يا « برومثيوس » أحقابا متواصلةً ، وأنتَ مشدودٌ إلى الصخرةِ يَنهشُ النّسر من كبدِك ، ولكن جاء يومٌ يحملُ إليك مِفتاح الفرجِ ، إذ هبط عليك « هرقلس » فأوْدَى بالنسر ، ويسّر لك سبيلَ الفكاك . . .

فيارفيقى فى الأسى ، ويا شريكى فى الإسارِ ، هل يتاحُ لى مثلك « هرقلس » آخر يفكُّ عنى أغلالَ الوساوِس ويُنير لى ظَلماءَ الشجونِ ؟

اذنَ لى فى أنْ أزور ذلك الشخصَ العزيزَ فى مَخدعه ، وهو

يجتازُ الساعةَ الفاصلةَ فى موقعةِ المرض . فدخلتُ حذِرَ الخُطا ، وكانت الحجرةُ شحيحةَ الضوء ، يَشيعُ فيها الدفء ، فراعنِى أكثر ما راعَنى ذلك السكونُ المطبِقُ ...

تلك هى المرّةُ الأولى فى حياتى التى أشعر فيها بمَقْتٍ وبغضاء للسكينةِ والهدوء ، تلك هى المرة الأولى فى حياتى التى أشعر فيها بالخوفِ والفزع من تلك السكينةِ والهدوء ... إنى لأتمثلهما يُخفيان لى فى طيّاتهما إعصاراً جارفاً يوشِكُ أن يثورَ !

وصافحتْ عينى رأساً غارقاً فى غَيْبوبةِ السُّبات ، مُلقىً على الوِسادة تكسوه الضِّمادات .... يالها صورةً مفزِّعة ! ... هذا « بروميثيوس » آخرُ فى مظهرٍ جديد !

ووقفتُ أُجاهِدُ محاولاً إنفاذَ بصرى وراء تلك الضِّمادات لأتعرَّف ما تطمئنُّ به النفسُ ويستريحُ إليه الخاطِرُ ... ولبثتُ كذلك وقتاً ، ثم ألفيتُنى أرجِعُ أدراجى ، مضطربَ الخُطا ؛ وفرَرْتُ إلى الطريقِ أستجدِى الهواء !

كان الليلُ مقبِلا بنسيمهِ المنعشِ ، وأنوارِه المتوهجةِ ؛ بيْدَ أنى وجدتُنى أُوَلّى وجهى شطرَ الفندقِ على التَّوّ .

ولُذتُ بحجرتى ، وأسدلتُ الأستارَ علىّ .

أىْ بُنَىَّ :

تركتُ النورَ فى الخارجِ يتألـّقُ ويتلألأ ، والحركةَ تدأب وتَصْخَبُ …

تركتُ الليلَ اليقظانَ الساهِرَ على مباهجِ الحياةِ ، وحبَسْتُ نفسى فى ذلك المعزِلِ أجلِس إلى مكتبي لأخطَّ إليك هذه الفِقَراتِ .

إنى لأستصرخُكَ وأضرَعُ إليك أن تُدركَنى فى تلك الساعةِ النكراء … وهَا أنتَ ذا تلبّى النداء !

إنك لتجلِسُ على مقربَةٍ منى ، أُصغِى إليك وتصغى إلىَّ !

ما حاجتى إلى النورِ تبعثُهُ شُعَلُ المصابيحِ ؟

منك أنت أقتبِس نورى ، وأستبينُ هدايَ !

فى قلبي فراغٌ وإجداب ، فهل لك أن تملأ ذلك الفراغَ ، وأن تُشيِعَ فيه الخصبَ والنماءَ ؟ .

تحدَّثْ إلىّ ، وأطِلْ فى الحديثِ ، فإنى كلما عببْت من ينبوعِه العذْبِ ، ازددتُ ظمأً إليه ، وكلَفاً به …

إنى لأرهف السمعَ ما وَسعنى الإرهافُ …

تلك هى الساعات تنقضىَّ ، وأنا جالسُ جِلسةَ الإنصاتِ .

هأنذا أُحِسّ طلائعَ الفجر تسرُب من خلالِ الأستارِ .

إنى لأشاهدُك ترِق وتشِف، ويتزايلُ عنى طيفُك الحبيب .
فى وديعةِ الله عودَتُك يابنىّ !

تالله إنك « هرقلس » جديدٌ هبَط من عليائهِ ساعةً ليُنقذَ « بروميثيوسَ » آخر من النَّسرِ الذى أنحى على كَبده نهْشاً وافتراساً !

إنى لأشعرُ بكبدى تندمِلُ جراحُها ، ويتجدّد نسيجُها !
وشعَرتُ بجفنىّ يتراخيان ، ويَنتظمُنى نُعاسٌ رفيقٌ ...

أول مايو

ثلاثةُ أسابيعَ مضت عليّ منذُ ذلك اليومِ العصيبِ ، فى دارِ الطبيبِ ... ثلاثةُ أسابيعَ وأنا لا أعرفُ من « نيويوركَ » إلا الطريقَ بين تلك الدارِ والفندق ، أقطعه ذهاباً وجيئةً فى صباحٍ ومَساء ! ...

إذا بلغتُ بابَ الدارِ واجهتْنى طَلْعَةُ البواب ، ذلك الشيخ الأمرد الذى يلوح لى بابتسامتهِ التقليدية لا يعزّ عليه أن يطبعها على فمه كلَّ حينٍ . كلما لمَح السيارةَ مقبلةً بى ، هُرع يستقبلُنى ، ويُصرّ على أن يُعينَنى فى النزولِ ، ويؤدّى لى مظاهرَ الترحيبِ .

وإذا احتوتنى أبهاء الدارِ وحجُراتُها ، طالعتْنى وجوهَ الفتياتِ فى لبوسهنّ الأبيض ، ومناديلهنّ المُزهرة على صدورهِن . تلك القوالبَ المصبوبةَ على نمطٍ واحدٍ ، كأنها حديثةُ عهدٍ بالخروج من المصنعِ الذى صُبّتْ فيه . هؤلاء اللواتى لا تكادُ تبدو منهنّ واحدة حتى تختفىَ ، كأنهنّ أشباحَ هاربة تتراءى فى خَطْف البرقِ .

انصرمتْ هذه الأسابيعُ الثلاثةُ بخيرِها وشرِّها ، وبدأْنا نُلقِي بأنفسنا فى مَعمعانِ الحياةِ الصاخبةِ ، وقد عادتْ إلينا الطمأنينةُ والبِشرُ .

وأردْنا أن نحتفِلَ بالخلاصِ من تلك الفترةِ العسراءِ ، فندعوَ أنفسنا إلى مأدبةٍ نقيمُها لأنفسِنا فى مطعمٍ أنيقٍ . . . واستنجدت بصديقى الأمريكىِّ الأول ، صاحبِ حانوتِ الطُّرَفِ فى بَهوِ الفُندق ، وجعلتُ أستفتيهِ فى شأنِ تلك المأدبةِ الكريمةِ المنشودةِ ، فكانَ عند حُسنِ الظن به . . . ما أسرعَ أن أطنبَ فى حديثِ الطعامِ يسرد لى ألوانَه وفنونه ، وهو يبتلع لُعابَهُ جزافاً ... قال :

ثمةَ مطاعمُ فى « نيويورك » مختلِفةُ الأنواعِ يُخطِئها العدُّ . يقال فيما يقال إنها تبلغ خمسةَ عشر ألفَ مطعمٍ أو تزيد . . . لا تعجَبْ ياسيدى ، إنّ هنا سبعةَ ملايين من المِعَدِ الخاوية العاويةِ تنشدُ الزّادَ ... تستطيع فى « نيويورك » أن تذوّقَ أفخرَ ألوان الأطعمةِ المعروفة فى أنحاء العالم شرقيِّه وغربيِّه !

وانطلَقَ الرجل يصِفُ لىَ الألوان الممتازةَ ، مما اشتهرتْ به كلّ أمة ، قائلا :

تستطيع أن تأكلَ هُنَا « الإسباجتى » الإيطالىَّ ، « والشاتو بِريان » الفرنسىَّ ، والرز الصينىّ ، و « البودنج » الإنجليزىّ ، و « البُورْج » الروسىّ ، و « الشوكرت » الألمانىّ .

فقلتُ له مقاطعاً :

وما هو اللونُ الأمريكىّ الممتاز ؟

فاعتصرَ الرجلُ جبينَه طويلاً ... وبعد لأْىٍ قال :

إننا نُجيدُ عملَ « الساندوتش » . . . إن الشطائرَ طعامُنا المفضَّلُ !

صَدَقَ صاحبى ؛ يُؤثِرُ الأمريكيون اتخاذَ هذه الشطائرَ ، لا لأنها لذيذةٌ ، ولا لأنها فاخرةٌ ، ولكن لشىءٍ آخرَ ، شىء هو عند الأمريكيين كل شىءٍ ... سهولة الإعدادِ ، وسرعة التناولِ . . . أنت لا يتسنى لك أنْ تأكلَ أىَّ لونٍ من الأطعمةِ على الأسلوب الشائعِ ، إلا إذا أعددتَ لذلك العُدَّةَ من مواقدَ ومساخِنَ ، واتخذْتَ كذلك الموائِدَ المُدجَّجةَ بالصِّحاف والأشواك والسكاكين . . . أما الشطائرُ فإنها لا تفتقِرُ إلى نارٍ مُوقَدة ، أو أسلحة مُشرَعة ... فى دقائقَ تُصنعُ ، وفى لحظات تُلتهمُ ، لا تقتضيكَ جلسةً خاصةً فى مكانٍ خاص ، فإنك

لتطعمَ شطائرك واقفاً أو قاعداً، ماشياً أو غير ماشٍ، مُقبلاً على عملِكَ أو مُخلداً إلى راحتِكَ...

إن الشطائرَ لتمثّلُ طابعَ الحياةِ الأمريكيةِ أصدقَ تمثيلٍ، طابعَ الانتفاعِ والوصولِ إلى الغاية فى أسرعِ وقت، دونَ ركونٍ إلى دَعة الاستمتاعِ، وكسل التلذّذ بمذاقِ الطعومِ..

الشطيرةُ فى الأكلِ، والسيارة فى التنقّلِ، وقلمُ المداد فى الكتابةِ، نماذجُ أصيلةٌ للجدّ فى الاستفادةِ، والعجلةِ فى قضاء الوطر.

هذا الطابَعُ المستحدَثُ فى الحياةِ الأمريكيةِ يقتُلُ التفننَ فى الاستمتاع، ويمنَع استدرارَ النشوةِ...

إنه طابَعُ غايةٍ، فأما الواسِطةُ فابتغاؤُها من أقربِ طريق.

ولكنْ ما هى قيمةُ الحياةِ الحقة إذا تجردتْ من النشوةِ والاستمتاعِ فى دَعةٍ وأناةٍ؟ أليست النشوةُ والاستمتاع كالرُّوحِ النابِضِ، فإذا خلَتْ الحياةُ منه كانت بلا روحٍ؟!

ونَصحَ لى صديقى صاحبُ الحانوتِ أن نُقيمَ مأدُبتَنا فى مطعم ألمانى، أشادَ بجوْدتِه.

فمضينا إليه ... دخلنا المطعم ، وأوْغلنا فيه ، فكأننا نجوسُ خلالَ حانةَ من حانات عصرِ « شارلمان » ...

عوارضُ من الخشبِ غِلاظٌ تحملُ السقفَ ، وأقبيةٌ تحتضنُ الحنايا والزوايا هنا وهنالك ، وقناديلُ ملوّنةٌ من بقايا العصورِ الغوابرِ ، ونقوشٌ ساذَجةٌ على الجدرانِ ، بين تضاعيفِها تهاويل الأساطير .

وأقبل علينا رئيس النُّدل ، يتهادَى فى جِرمِهِ الضخمِ ، كأنه « هند نبرج » يتقدّم الصفوفَ ... أليس هو القائدَ الأعلى غيرَ منازَعٍ فى ذلك الحانِ ، أو على الأصحّ فى ذلك الميدانِ ؟ حَسْبه أن يشيرَ إشارةَ الإمْرَةِ فيُهرَعَ إليه الغِلمانُ بما يطلبُ صاغرين !

وتحدّثَ إلينا فى أدبٍ ، ثم قادنا إلى إحدى المناضدِ ... كل شىء تتجلّى فيه رُوحُ الجرمانيةِ ، ولكنها جرمانيةٌ متأمركةٌ ...

وطالعنى لوحٌ قرأتُ فيه بالخطّ العريضِ : « أنتَ فى رقعة من أوربا العجوزِ ، فكلْ واشربْ هنيئاً مريئاً » .

ما زالوا يتغنوْنَ بأوربا وسْطَ ذلك المهرجانِ الأمريكى البهيج !

إن « أوربا » لتبدو لعشاقِها فى « أمريكا » على الرغم مما انتابَها من كوارثَ ، وحلّ بها من ويْلات ، غاليةَ المهرِ ، عزيزةَ المنال .

إنها عجوزٌ تحملُ فى صفحتِها تجاعيدَ السنينَ ، ولكنها ما برحت تجتذبُ أنظارَ الناشئينَ فى العالَمِ الجديدِ ...

إنهم ليتنسَّمون منها عطرَ الماضى السحيقِ ، ويتملأُونَ فيها جلالَ الأمس البعيدِ.

إنَّ مَن لا ماضىَ له يطربُ للأنغام يُوقِعُها الزمن على قيثارةِ التاريخِ ، فلا غروَ أن نرى الأمريكى الناشئ يهفو قلبُه إلى القديم ، إذ لا قديمَ له يروعه بأمجادِه وأحسابِهِ ، ويرجعُ به القهقرى فى ركب القرون وموكبِ الأحقابِ ...

إن الأمريكى الناشئَ يعرفُ أن عمره الإنسانىَّ فى دنياه الجديدةِ لا يزيدُ على ثلاثمائة سنة ، وإنّ هذا الأمريكىَّ لا يفوته أنّ تلك الحقبةَ ليست فى عمرِ التاريخِ وماضى الأمم إلا خطفةَ برقٍ ولمحةَ بصرٍ. فليس هو بين معاصريه من بنى الأمم إلا طفلا بين الكهول ، وقزَماً بين العماليق !

زايلنا المطعمَ ، ونحن نتمايلُ من الكظّةِ ، إذْ كانت الصحافُ جرمانيةً بالمعنى الحقّ : وفرة دَسَمٍ ، إلى طِيبِ مَذاقٍ يغرى بالاستكثار ، دون رَعْيٍ لشىء !

ومن يكن ضيفَ « شارلمانَ » لا يخرج إلا بطِيناً مجهودَ الأنفاس !

٥ مايو

« الشارعُ » في « نيويورك » حسناءُ تجذِبُك على الرغمِ منكَ ، وترُوعكَ من فتنتها كلَّ آنٍ بجديد ، وتزيدُك سحراً كلما زِدْتَها نظراً كما قال الشاعر الأول ...

إنك تخرج إلى « الشارعِ » لا لِكي تمارِسَ شأناً ، أو لتقضيَ مَطلباً . بل إنك لتمضي إليه لا شُغلَ لك إلا أن تضربَ فيه طولا وعرضاً ، وتذرَعَ رحابَه جَيئةً وذُهوباً ، بل إنكَ لَتتجنّى على نفسِك ، متلمِّساً أوهنَ الأسبابِ للخروجِ ، طلباً للاِستمتاعِ « بالشارعِ » ومباهجِهِ ! ...

ولو خرجتَ إليه حقّاً في أمرٍ ذي بالٍ لوجدتَ نفسَك لا تكادُ تستقبِلُ مواكبَهُ ، حتى يطويَكَ في معمعانِه ، ويدفع بكَ في تيّارِهِ ، فتنسى أو تتناسى ما خرجتَ من أجْلِه ، ولكنك لا تندَمُ على ما فعلتَ ، ولا يُؤْسِفكَ أنك نسيِت أو تناسيت !

مهما أوغلتَ في الطريق ، وتطلعتَ إلى مفاتنِهِ ، فإنك لا تحظَى منه إلا باليسير ، هو كنزٌ يتجدّدُ لعينيك ، وإنك لتتركُهُ

شيّقَ النفسِ الى أن تراه ، فلا تلبثُ أن تعودَ اليه على الرغمِ مما تكابدُ من رهقِ الزحمةِ والتدافعِ بالمناكبِ .

« الشارع » فى « نيويورك » قلبها الخفّاقُ ، ورُوحُها النابضُ !

« الشارعُ » فى « نيويورك » نموذجٌ كاملٌ يمثلُ لك حقائقَ مجتمعِها وعناصرَ حياتها ، ترى فيه أخلاقَ الأمّةِ وعقليّاتها ومَن حوتهم من أصنافِ الناس .

قصدتُ « الشارع » لا أمضى لشىء ، بل لأدعَ « الشارعَ » يمضى بى إلى حيث يريدُ !

استرعَى نظرى فى هذا اليومِ أمرٌ جديرٌ بالتسجيلِ ، ذلك هو الصِّبْغةُ الأمريكية التى تصطبغُ بها الأمّة ، وما لها من خصائصَ فى الخُلُقِ والذوقِ والجمال .

ربما يُقال : كيف يجوزُ للمرء أن يتحدّثَ عن الجنسِ الأمريكىِّ ، مُستوحياً حديثَه من نظرةٍ يُلقيها على مدينة واحدة ؟ بيْدَ أن هذه المدينةَ ذاتَ الملايين السبعة إنما هى صورةٌ مصغّرةٌ صادقة التعبير تتحدّثُ بلسانِ الملايينِ المائةِ والأربعينَ التى تعمرُ أرجاءَ هذه المملكةِ الرحيبة .. يكاد كل ركنٍ فى « نيويورك » تجتمعُ فيه خصائصُ كل ولايةٍ من هذه الولاياتِ

الثمانى والأربعين التى يتقوّم بها صَرْحُ الجمهورية الأمريكية العظيم!

تحتضن الجمهوريةُ الأمريكيةُ أخلاطاً من شتّى الأجناس ، وقد تكونُ الغلبةُ للجنس السكسونىّ ، ولكنّ هذه الأخلاطَ تعملُ على أن تنصهرَ فى الحياةِ الأمريكية ، ولعل « نيويورك » هى البُوتقة الأصيلةُ الرئيسة للانصهار ...

إنك وأنت تجوب « الشارع » فى « نيويورك » تُحِسُّ أنك فى هذه البوتقةِ ، فى تلك القِدْر الكبيرةِ التى تجمعتْ فيها هذه الأخلاطُ ، وصُبّتْ عليها الأحماضُ المُذيبةُ ، واوقدتْ تحتها النارُ الحاميةُ الصاهرة .

فأنت ثمّة تشهدُ الألمانىّ الغارقَ فى أُوتقْراطيتِه ، والفرنسىّ الهائمَ فى رُومانْسيّته ، والإنجليزىّ المتلفعَ بتقليديتِه ، والإيطالىّ المتلهبَ بخفّتِه ونَزقِه : قد انصهروا جميعاً ، وخرجوا قوالبَ أمريكيةً آليّةً تستظِلُّ براية « الدولارِ » العظيم ! ...

هى قِدْرٌ تمورُ ، وهى عناصرُ تتحلّلُ فى القدر ، تلك العناصرُ هى أقدارُ أمّة ، بل جامعة أمم ، تحاولُ بحق أن تخلُقَ لها ثقافةً جديدةً ، وترسُمَ لها مبادىءَ جديدةً ، وتنشِىءَ لها مخترعاتٍ جديدة . تحاوِلُ أن تقدمَ إلى العالم كلّ يومٍ فى كل منحى من مَناحِى

الحياةِ شيئاً عليه طابَعُ الجدة ، شيئاً فيه رُوح التوثُّبِ والمضىِّ إلى الأمامِ .

ولكنْ : أكلُّ جديد نافع ؟ وهل السيرُ إلى الأمامِ يبلغُ بنا دائماً مناطَ السعادةِ المنشودة ؟ ...

إن لم تبلُغْ «أمريكا» غايةَ هذه السعادة ، فحسبُها أنها شرعت للعالمِ منهجَ السير ، وما هذا المنهجُ إلا أن يعملَ الإنسانُ دائماً برُوحِ التوثُّبِ جاهداً غيرَ متكاسِلٍ ولا متردِّدٍ ، أن يشقّ الإنسانُ أفقاً جديداً ، ويرتادَ دُنْيَيات مجهولة غيرَ هيَّابٍ ولا متزمِّت ...

إنّ تلك الروحَ هى أسمى مافى الحياةِ الأمريكيةِ الحديثة ، وهى أسمى ما ينشُدُه الإنسان لِدنيانا القديمةِ المتكمِّشةِ وراء الحدودِ والسدود ، المكتوفةِ بأغلال المخاوِف والتقاليدِ !

أنا هنا شرقىٌّ أنظرُ إلى تلك الروح التى تصطبِغُ بها الحياةُ الأمريكيةُ صِبغةً واضحةً ، فأشعرُ بمسّ حاجتنا نحنُ الشرقيين إلى قَبْسة من ذلك النورِ ، تضىء لنا الطريقَ إلى الأمامِ .

أيها الشرق العزيزُ :

إنك لتلمحُ ركبَ الحضارة سبّاقَ الخُطا ، فتحاوِل أن

تلاحقَهُ حتى لا ينبتَّ بك الطريقُ ، فتهيمَ شريداً فى أوديةِ التيِّهِ ...

إنى لأراكَ تمضى وراءَ ذلك الركبِ ، ولكنْ بقدمَى سلحفاةٍ ، فى حين أن الركبَ يندفعُ على جناحَى طائرةٍ !

أيها الشرقُ العزيز :

بعضَ هذا التثاؤب ، وبعضَ هذا التمطّى !

أَمِطْ عن كتفيكَ خيوطَ العناكِب ، واخرجْ من الغارِ كما فعل الرسولُ حين خرج مُهاجِراً يدعو إلى دينٍ جديدٍ ...

فليكنْ خروجُك اليومَ لِتُبشِّرَ فى العملِ بدين جديد ، دينٍ قوامهُ التطوّرُ والتطلعُ والوثوب !

لقد راعنى أولَ ماراعنى من خصائص الحياةِ فى « نيويورك » ذلك الجمالُ الأمريكى ، وأخصُّ به الآن : جمالَ المرأة .

يقينى أن جمالَ المرأة لا يُحْسن الحديثَ عنه إلا الرجل ، فإن الرجلَ فى هذا الشأنِ أصدقُ حديثاً وأنورُ بصيرةً ...

هو إذا تحدثَ عن رجلٍ آخرَ فإنما يتحدثُ عن نفسه ، ولذلك يتحوَّطُ ويتحفَّظُ ، ويتخذ وسائل المغالطةِ والمجاملةِ والدِّهانِ . من يرضى أن يفتح بابهُ على مِصراعيه للملإ يكشِفون خباياه ؟!

على أن حديثه عن الرجل حديثٌ مبتذلٌ مملولٌ ، فهو موضوعه الذى يعيش فيه طولَ حياته ، لا يبعثُ فيه شوقاً إلى الوصفِ والتسجيلِ .

أما شأنُ الرجلِ مع المرأةِ فله اعتبارٌ غيرُ هذا الاعتبارِ . . .

إنّ المرأةَ حيالَ الرجلِ عالَمٌ شائقٌ مجهولٌ طالما تمنى ارتيادَهُ وكشْفَ طلاسمه ، فهو يسعى فى دأب وشغف إليه ، تحفزه أقوى الغرائزِ والطباعِ ، وإنه ليتغلغلُ إلى أعماقِ سريرةِ المرأةِ ، ويتفطّن إلى كوامنِ نفسياتِها التى قد تكونُ هى لا تعرفُ منها شيئاً . . .

لقد خُلِقَ الرجلُ ليرتادَ قلبَ المرأةِ ، فهو يتابع الجهادَ على هُدًى من بصيرته ، لا بدافعٍ من عقلهِ ومنطقه ، وإنّ من البصائرِ لمَا يبلُغ بهدايته فوق ما تبلغُ العقولُ !

ماذا أنا قائلٌ فى جمالِ المرأةِ الأمريكية ؟

إخالُنى أطلتُ التقدمةَ وأشدتُ بلباقة الرجل فى الحديث عن المرأة ، وإذا بى أقفُ الآنَ حيرانَ أخشَى ألا يُصيبَ قولِى جلائلَ الأهدافِ .

تُرى أين لى تلك البصيرةُ التى أعليتُ من شأنِها لتعيننى على طريقى ، فآمنَ العِثارَ ؟

لعلى لا أكون على غلوٍّ فى القوْلِ ، إذا سجلتُ أن الجمالَ النسوىَّ فى العالم تتنازعُه أرضانِ : أرض الكنانة ، وأرض « العم سام » .

لا أقصِدُ بالجمالِ المرموق ذلك التناسُبَ الفينوسىَّ من عينٍ نجلاءَ وأنف دقيقٍ وخدٍّ أسيلٍ وقوامٍ كغصنِ البانِ ..

ولكنى أقصِدُ بالجمالِ ذلك النوعَ المتميزَ بالجاذبيةِ الأنثويةِ ، ذلك الذى يسمونهُ « السكس أبيل » ...

وهذا التعبيرُ أمريكىٌّ محضٌ ، نبتَ هنالِك بحق ، ولم يُخلق باطلاً ، فجمالُ الأمريكيةِ على وجهٍ عامٍّ يحفِلُ بتلك الجاذبيةِ الأنثويةِ ، ولعل مردَّ ذلك إلى انصهارِ الأجناسِ الإنسانيةِ المختلفةِ فى تلك البُوتقةِ الكبرى ، ومِن ثَمَّ يخرجُ منها مزاجٌ طريفٌ هو نخبةُ الحُسنِ وصفوةُ الفتنةِ ... هو « كوكتيل » الجمالِ الغربىِّ !

وإن هذا الانصهارَ الذى يتمُّ فى البوتقةِ الأمريكيةِ قد تمَّ مثله فى البوتقة المصريةِ من قبلُ ...

إن أرض الكنانةِ بموقعها الجغرافىِّ المتميزِ وخصبِها

الذى أسبغه عليها النيل السخىّ ، ظلت مهبطَ الرحال ، وملتقىَ الأجيالِ ، ينزَح إليها المستعمرُ والمستثمر ، والتاجر والمهاجر ..

هى بوتقةٌ سبقَت البوتقةَ الأمريكيةَ ، وتمخضتْ عن جمالٍ نِسْوىّ أنضجته شمس الصحراء ، وغذّته خصوبة الوادى ، وروّاه رحيقُ النيلِ ، وشاعت فى سِماته أحلام الشرق وأخْيلتُه ، فأصبحَ « كوكتيل » الجمالِ الشرقىّ ، وغدا سحراً لا يفوق مستواهُ أىُّ مستوىً آخرَ للجمالِ العالمِىّ !

أىْ « أمريكا » : لقد وجدتِ فى جنسنا اللطيف ندّاً لك ، ينازعك عرش الجمال ، ولكنه ندّ لا يباريكِ بالأسنة والرماح ، بل بإيماءة الطرْف ولحَظِ العين . فمتى تجدينَ فى جنسِ الرجال مِنا ندّاً لك يجاريك فى ميادينِ العمل ورحاب الكفاح ؟!

فى « أمريكا » اليومَ مدرسةٌ عاليةٌ ، بل معهدٌ أكبرُ ، يُدرَس فيه فن الجمالِ وتتخرّج فيه روائع الحسان ، يُرسَم فى ذلك المعهدِ منهجُ الدراسة وما إلى ذلك من برْنامجٍ وخُطةٍ ، وتعد فيه الوسائل والموادّ والتجاريبُ .

ليس ذلك المعهدُ إلا « هوليود » ...

فهذه المدينةُ على ضآلتها وانتزاحِها عن قلب « أمريكا »

قوية التأثير، واسعة السلطان. إنها مصنع عظيم للجمال الأمريكي، منه تخرج نماذج شتى في كل مظهر من مظاهر ذلك الجمال في الزينة والزي والشمائل، وفيه تقرر الأذواق الفنية التي تغدو ذوقاً رفيعاً يدين له الرأي العام... إن «الفلم» الأمريكي لينشر فينا رسالة هذا المعهد، ويبشر بمبادئه أينما حل، وإن أثر ذلك «الفلم» في نفس المرأة الأمريكية، خارج البيت وداخله، لأثر ملحوظ الجانب واضح السمات.

يفتقر الشرق إلى «هوليود» أخرى خاصة به تتولى درس الجمال الشرقي وتعزيزه وإبراز خصائصه وتعميمها وفق بيئته وطابعه وذوقه... لا تستطيع المرأة المصرية أن تتطلع إلى «هوليود» أمريكا إلا كما يتطلع الطالب المصري إلى معهد فني أوربي أو أمريكي، فهو يلقن ما فيه من علوم ومعارف، ولكن لا بد له من أن يهضمها ويتمثلها، ثم يجلوها بعد ذلك وقد اتخذت لها وضعاً آخر، هو الوضع الملائم لوطنه وقومه من شتى النواحي والاعتبارات.

سوف تنشأ «هوليود» المصرية آجلا أو عاجلا، وسوف يكون المعول في إنشائها على أختها الكبرى «هوليود»

الأمريكية ، كما هو شأننا فى مظاهرِ حضارتِنا التى نصطنعها على غِرارِ حضارة الغرب . . ولكن علينا أن نستعيرَ من هنالكَ أحدث الأساليبِ ، محتفظينَ لأنفسِنا دائماً بجوهرِ الجمالِ الشرقى ، لا نستبدِلُ به جوهراً جديداً يشوهه أو يبدله خلقاً آخر ، حتى يكونَ عملُنا فى ذلك أقربَ إلى التطورِ والتجديدِ ، منه إلى المحاكاةِ والتقليد .

١٥ مايو

حقاً إنه ليومٌ عاصفٌ ...

لم تكن سماؤه ملبدة بالغيوم ، ولم تتطاير فيه البروقُ ولا دوّت الرعودُ ، ولم تهطلْ فيه شآبيبُ المطرِ ولا هجهجت الرياح.

إنه كان عاصفاً ببرنامجه الذى أعددته لنفسى ، أو بالحرى الذى أعدّوهُ لى ...

أنتَ الآنَ فى « نيويورك » عروسِ العالم الجديدِ حضارةً وطرافةً ... أتتركُ الأيامَ تتتابعُ يوماً إثرَ يومٍ دونَ أن تقتحمَ المدينةَ فى عرينِها الأصيلِ ، وفيما يحفُّ بها من أرباضٍ ؟

إنك لتُلقِى بنفسِك فى « الشارعِ » تجول فيه وتصول. ولكن أليس لحياةِ « الشارع » من نهايةٍ ؟ إنها الحياةُ رَخوةٌ على الرغمِ عما بها من زحمةٍ وتدافُع . . . هى لا تكلفك إلا هبوطاً إلى الطريقِ وانسياباً فيه تُزْجيك أمواجُه ..

حقّاً إنّ « للشارع » مباهجَ تفعم النفسَ من لذة وإمتاعٍ ، ولكنها ذاتُ طابَعٍ واحد ، وإن تغيّرتْ ظواهرُه وألوانه .

لقد حللتَ « نيويورك » منذُ قليلٍ ، وستفارقُها عما قريبٍ ، فإذا بك تعودُ خاويَ الوفاضِ إلا من « شارع » وبعضِ شارعٍ !

حقّ أنك لم تقدَمْ هذه المدينة لنزهة أو طواف ، وإنما قدِمتَ فى مهمةِ علاجٍ واستشفاءٍ ، ولكنك على أيةِ حالٍ « سائحٌ » ، أبيْتَ أم رضِيتَ : وعلى « السائحِ » فروضٌ يجبُ أن تُرْعى ...

لقد اندمجتَ فى زُمرةِ أولئك السادةِ الذين يسيحونَ فى الأرضِ ، ويرتادونَ البِقاعَ والأصقاعَ .. فعليك أن تمثّل دورَ هؤلاءِ الأبطالِ ، لتشبعَ من نفسِك غرورَها المنهومَ !

للسائحِ فى كل بلدٍ مقامٌ ملحوظٌ ، فالتبجيلُ يحوطهُ ، وتيسير سبيلهِ حقٌّ له على كل من يتصلُ به .

إن الأدِلاّءَ والتراجمةَ لا يكادونَ يلمحونَه حتى تراهم يُهرَعون إليه يخطُبونَ وُدَّهُ ، ويُكرِمون وفادتَه ، ويغدِقون عليه ألقابَ العِزّةِ والإعظامِ ... همُّهمُ الأوّل أن يُزيّنوا له النزهةَ ويُعِدّوا له الأُهْبَةَ ، ويتخذوا لذلك زُخرفاً من القولِ

يبتزّون به بِضعةَ دُرَيهمات . . . لا يَعْنيهم بعدَ ذلك أأصابَ متعةً أم ضلّ سعيُه وخابَ ؟ !

إن « السائح » في الواقعِ هو الرمزُ الأكبرُ للتغفّل . . .
الدليلُ يعلمُ ذلك حقّ العلمِ ، والسائحُ نفسُه يعلمُ ذلك حق العلمِ . بيْد أنّ هذا لا يمنعُ أن يتحدَ كلاهما وأن يتصافيا ، وأن يُسلِم كلٌّ منهما عنانَه لصاحبِه !

لا يفوتُ السائحَ أنه مضحوكٌ منه ، مكذوبٌ عليه في أغلبِ الأمرِ ، وأنّ ما يُبديه الأدلاء من علائمِ التبجيلِ وآياتِ المُصافاةِ ليس إلا شِباكاً منصوبة تتصيّدُ مغانمَه ، ولكنه على الرغم من ذلك يُلقِي قيادَهُ لهؤلاءِ الأدِلاءِ ، لغير شيء إلا أن يبدُوَ في أعينِ الجماهير سائحاً ، سيّداً من السَّراةِ الأعلامِ ، دفعَ به الترفُ إلى أن يقدمَ الديارَ ، إبهاجاً لنفسِه ، وتنعيماً لناظِرِه !
إنه يطمَعُ في أن يبرُزَ أمام سوادِ الناسِ تُحْدِقُ به العيونُ وتُحدِّقُ فيه ، وتُشيرُ إليه الأصابعُ إشارة الاِهتمامِ ... فيُحِسَّ أنه طِرازٌ آخرُ من الناسِ أنفَسُ وأغلى ، وطِينةٌ أخرى من الخلقِ أطيبُ وأزكى ...

إنه في باديء الأمرِ سائحٌ مستطلعٌ ، فإذا غمرتْهُ موجةُ

الحفاوات، وأحاطت به التشاريفُ من كل جانب، نَسِيَ أن ذلك كلَّهُ تمثيلٌ وتمويهٌ، وخيِّلَ إليه حقا أنه أحدُ أولئك السَّراةِ الأعلامِ الذين يُشارُ إليهم بالبَنانِ..

بهذه الخواطرِ رضيتُ لنفسى أن أكونَ سائحاً بحق!

أليس لِيَ العُذر بعدَ ذلك فى أن أعُدَّ هذا اليومَ عاصِفاً؟

سألتُ مُرافِقى:

إلى أيةِ وجهةٍ أنتَ ماضٍ بِى؟

— إلى «ولدرف استريا»

— وما هذا «الولدرف استريا»؟!

— فندقُ «نيويورك» الأولُ، وإذن هو فندق العالِم الأولُ!

ومَثَلْتُ أمام ذلك الصّرْحِ الشاهق العظيم فى «بارك أفنيو» أصَعِّدُ فيه النظر. إنه ليعلو بطِباقِهِ ويتشامخُ، وإنه ليَنبسطُ يمنةً ويَسْرةً، فإذا به يحتلُّ بضخامتِه رُقعةً مربَّعةً من الأرض تتفرّعُ على جوانبِها شوارع أربعةٌ فِساحٌ.

ولم يطُلْ بى التطلع خشيةَ أن يعاجلنى دوارٌ، فاندفعنا مقتحِمين بابه، فطَوانا الصرحُ فى جوْفه طىَّ الفطرة فى صخَبِ الأمواج،

وأخذ يرمى بنا من جانب إلى جانب ، كأننا فى قصر التيه ندور فى مسالك متشابكة مفضٍ بعضها إلى بعض ، لا مدخل لها ولا مخرج .

ولبثنا نجوب هذه المتاهة ، نعرج إلى سمائها ، ونهبط إلى قاعها ، ونضرب فى أرجائها طولا وعرضاً ، تتوالى علينا الصور والمشاهد ، كأننا فى منام مضطرب تتراءى لنا فيه أضغاث أحلام . . .

ردهات فخمة ، مطاعم متباينة الدرجات ، مسارح ومراقص ، قاعات للمحاضرات ، أبهاء للحلاقة تعد فيها المقاعد عشرات ، مكتبات ، حوانيت ، مضخات للصوت يتعالى ضجيجها حيناً بعد حين . . . وهذه الأكداس من البشر تحسبها حزماً ضخمة من أوراق مالية تخطو هنا وهنالك !

وخلف هذه المظاهر المألوفة أمثالها فى دنيا الفنادق ، حياة أخرى مستورة لا تقل عنها ضخامة وسعة . . .

أنت إذا قرأت نبأ موقعة حربية طالعتك على الفور صورة الكتائب تلتحم وتتطاحن ، ولكن هذه الكتائب خلفها أمداد أخرى قد تفوقها عدداً ، هى عدة النصر الحقة ، كتائب من العملة والصناع الفنيين القائمين على الميرة والذخيرة

والتمريض وضروبِ الخدمةِ العامّة ..

فذلك ماتراه ماثلاً في هذا الفندُق ، فإن وراءَ الردهاتِ والقاعاتِ والمطاعمِ والمراقص وغيرها تختفي حجراتٌ وساحاتٌ تحوى المطاهيَ والمصانع والمغاسل ، فيها جحفلٌ جرّارٌ من العمال الساهرين على سدّ حاجاتِ تلك المدينة الحافلة التي تسمّى في « نيويورك » : فندقَ « ولدرف استريا » ! ...

وسمعنا الدليلَ يقولُ خاطفَ اللهجةِ ، كأنه يُلقي درساً :

الفندقُ يتسع صدره لعشرين ألف طارق.

الفندق يشربُ كلَّ يوم أكثرَ من سبعةِ آلافِ لترٍ من اللبنِ ...

الفندق يهضم كلَّ يوم ألفي كيلو من ضروب اللحوم .

الفندق يأكل كلَّ يومٍ عشرين ألفَ رغيف .

الفندق متأهبٌ لأن يقدّمَ عند الطلبِ من الأنبذة ما قيمته مائتا ألفِ دولار.

الفندق يحوى ثلاثةَ آلاف من الخدَم يتولَّوْنَه ، إلى جانِبهمْ مِئُون من ماسحى الزجاج « البهلوانيين » مخصَّصونَ لتنظيف ستةِ آلاف من النوافِذ .

الفندق . .

فقلت لصاحبي اقاطِعُه :

حسبُكَ !

— ألاَ تريد أن تعتلىَ السطح لِتشهد منظراً لا يساميهِ منظرٌ آخر عظمةً وروْعةً ؟

— أريد أن ألتمس عظمةً أخرى غيرَ ما أشهدُ !

وخرجت ناجِياً بنفسى من أغوارِ تلك المتاهةِ ، احاول أن أتنسَّمَ نسيماً يمنحنى الهدوءَ وراحةَ الأعصابِ .

وسِرْتُ خُطواتٍ ، وقد لمحت فى رأسى أطياف قريتى المتواضعةِ فى ريف « مصر » بأكواخِها التى لا تناطحُ شجرةً ، بلهَ سحابةً ، ودارى المتخاضعة التى لا تتطلب نوافذها العباناً واحداً يتراقص عليها لتنظيفها !

وهممت أُناجى نفسى :

حقا إنّ السعةَ والضخامةَ والسموقَ عظمة أى عظمة ، ولكن أليس فى السذاجة والضآلة عظمةٌ لا تقلّ عنها قدْراً ؟!

والتفتُّ إلى مُرَافقى أقول :

إلى أين المسَاقُ ؟

— إلى « امبير ستيت بلدنج » كبرَى نواطحِ السحاب في «نيويورك» ، فهى إذن أكبرُ أبنيةِ العالم أجمعَ !

— أما نتهى من نواطحِكم هذه ؟ إنى لأشعرُ بها تكاد تحطم رأسى تحطيماً !

ومضينا إلى تلك الناطحة التي تُرْبى طِباقُها على المائةِ والتي يبلغ عُلوُها نحو ألف ومائتين وخمسينَ قدَماً .

حقـًا إنها الماردُ من مرَدةِ « سليمان » ماثِلٌ بقوامهِ الفارعَ المشيق يتعالى فرْعنةً وعتُوًّا ..

في مستطاعك أن تخترقَ جوفهُ بمِصعَدٍ حتى يبلغ قِمتَه في طرْفة عينٍ ..

هنالك في رأس ذلك المارد تنظرُ بعينيه حولكَ ، فتنكشفُ لك « نيويورك » على مدّ البصر : جزيرةٌ رشيقة ، شوارعُ منظمةٌ ، حدائق منسقة ، أبنية متراصّة ، أنهارٌ جارية ، جبال نائية ... وبينما أنتَ تتملىَّ خِلابةَ هذا المنظر الجميل إذا به يختفي بين غلائلَ من السحاب تحاصرُك من كل جانبٍ ، فلا ترى إلا غَيْماً ينبسط تحتَ ناظريكَ ؛ فيخيّلُ إليكَ أنّ المارد قد طار بك بين أجواز الفضاءِ ، وأنه يخترقُ بك طِباقَ السماءِ ...

ولا يَلبث المارد أن يُغمضَ عينيه ، ويجتذبكَ إلى جوفهِ ، ثم يهبطَ بك إلى قراره فى لحظاتٍ ، ثم يلفظكَ فى الطريقِ ، فإذا بك قد قطعتَ الرحلةَ بين السماءِ والأرض فى غفوةٍ خاطفةٍ من غفواتِ الأحلام ..

ومِلتُ على مُرافِقى ، وأنا أمرُّ بيدى على جبهتى ، أستعيدُ يقظتى ، فقلت له :

ماذا بَقِىَ من برنامجكَ ؟ ألم ننته بعدُ ؟

— إننا لم نكد نبدأُ !

— إلى أين ، بربّك ؟

— إلى تمثال الحرية ..

— وبعدَهُ ؟

— نزهةٌ حول جزيرةِ « مانهاتان » ..

— وبعدَها ؟

— جولة مسائيةٌ فى أحياءِ « نيويورك » الأصيلة ..

ووضعتُ يدى على كتفه فى استسلام ، وأنا أقول :

قدْنا حيث تريدُ ، فلقد أسلمنا أمرنا إليك وإلى الشيطان !
إلى تمثال الحرية ...

وحشرنا فى سيارة حافلة ، جرت بنا إلى منطقة «نيويورك» الجنوبية : حتى كأنه من أحياء «أوربا» العتيقة ، شوارع مسماة ، لم يجر عليها نظام الترقيم الجديد . طرق ليست مخططة بالمسطرة والفرجار ، هى التى تقرب من أفهامنا ونظامنا المعهود..

إن هـذا الحى هـو «نيويورك» القـديمة ، بل إنه «أمستردام» الجديدة محط رحال الهولنديين ، حين هبطوا هذه الدنيا مستعمرين ، ومازال هذا الحى يحمل من «هولندة» ظلالا ونفحات ... لقد أقاموا سوراً يحد مدينتهم ويحميها من العدوان ، فأصبح مكان السور طريقا ضيقاً يحمل اسم السور .

فى ذلك الحى طفنا طوافاً عاجلا بمتحف «لواشنجتون» : طرف ومخلفات ومصورات من عهد ذلك الرئيس الأول للجمهورية الأمريكية ، ما برح المتحف يحمل روح العصور الوسطى ، ويتنفس أنفاس حرب الاستقلال !

إسراع إلى السيارة الحافلة .

هبوط عند المرفإ .

قيل لنا إننا فى الميناء ، ولكن أى ميناء هذا ؟

إنه ساحل مرصوف يتطاول ، يمتد دون أن يدرك له انتهاء ،

فيه تتراصّ البواخرُ على نحوِ أمريكيّ كلّه زحمة واحتشاد .

هُنا لك زجّوا بنا فى باخرةٍ ، أو شِبهِ باخرةٍ على الأصح ،

فراحت تمخرُ بنا الماءَ إلى الجزيرةِ التى يقوم فيها تمثالُ الحريةِ .

أتمثال للحرّية هو ؟

إنه يبدو للعين كلما اقتربنا منه ، كأنه إلهةٌ لذلك المعنى المحبوب

الذى تهوِى إليه أفئدةُ البشر .

طالعتنا تلك الإلهةُ بوجهِها الوسيم ، ورأسِها المتوّج ، وثوبها

الفضفاض ، ومِشعَلها البلورىّ تحمِله يدها الطُّولى ...

لقد ارتفعتْ تلك اليدُ بذلك المِشعَل ، وما برِحتْ مرتفعةً

مَناراً للسّالك ، ورمْزاً لتلك الفكرةِ المِثالية المنشودة الخالدةِ .

كرُمتْ تلك اليدُ ، ولا زالتْ قِبلةَ السلامِ ، ومبعثَ النور ،

وفجرَ الأملِ الرحيب !

هى إلهة حقّاً ، ولكنها من خلْق البشر .

عبقريةٌ فرنسيةٌ صاغتها ، ونفختْ فيها من رُوحِها ..

وعبقرية أمريكية أخرى صنعتْ لها طَوْداً باذِخاً تعتليهِ

لتبعثَ من عليائه النورَ على الإنسانية الشقيّة بالظلامِ .

إنّ « فرنسا » و « أمريكا » لتجتمعانِ فى ذلك النُّصُب

العظيم : فى التمثالِ يتجلَّى الفنّ الفرنسىّ الرائعُ ، وفى القاعدة تتجلَّى العَظمةُ الأمريكية بضخامتِها وجلالِها ،

نزولٌ فى جزيرة التمثالِ ...

صُعودٌ فى جوفِه ...

شرفةٌ نطِلّ منها على « نيويورك » فنرى شواهِقَها مُشرفة بهيجة تتجمّعُ متطلعةً إلى إلهةِ الحريّة ، كأنها عذارَى يتزاحَمنَ مُستَمِدَّات من أمّهِنّ الرؤومِ رُوحَ الحياة ! ...

فترةُ راحة واستجمامٍ فى أحدِ المشاربِ .

قفولٌ إلى المرفأ ...

وهُنالِك ركبْنا إحدى البواخِر ، نستمتِعُ فيها بِضعَ ساعات بنزهةٍ بحْرِية حولَ جزيرةِ « مانهاتان » ...

وما « مانهاتان » هذه إلا قلبُ « نيويورك » الخفاق !

رشيقةٌ أنيقةٌ هى تلك الباخرةُ ، لم يعِبها إلا ذلك التكدسُ والازدحامُ ، ونظامُ « الطوابير » الذى استتبّ أمرُه فى « نيويورك » ، فأصبحَ لا غُنيةَ عنه فى كل شىء ولا مَعْدَى .

وتحرّكتْ بنا الباخرةُ يشقّ صدرُها مجرًى من الماءِ ليّناً

سهلاً فى جوٍّ طيِّع ، كأننا فى سيارةٍ حافلةٍ تقطعُ بنا طريقاً مُعبَّداً من الطرُق الفِساح .

وأخذْنا نشهدُ ما يمرُّ بنا من المبانى والحدائق . . . وذلك الطريقُ العجيبُ تتعدَّدُ طبقاتُه وتتبايَنُ أشكاله ، وهذا الصفُّ الممتدُّ من البواخِر والسفائِن كأنه كتائبُ فى يومِ عَرْضٍ عظيم .

وتخيَّرْنا مكاناً يَنأى عن الزحمةِ ، يتوافرُ لنا فيه الهدوءُ . . .

وما كِدْتُ أستمتِعُ فيه بمجلسى ، وأتنسَّمُ نفحاتِ البحر ، حتى علا صوتٌ لا أدرى من أين نجَمَ . . . إنه يجلجِل وسْطَ الباخرة ، وينفُذُ إلى أعماقِها وخوافيها ، هو صوتُ إنسانٍ يتحدَّثُ فى أداة من مضخِّماتِ الصوتِ ، أما ذلك المتحدِّثُ نفسه فلم أعثرْ له على ظِلٍّ . . .

وعلمت أن صاحبَنا دليلٌ يكمنُ فى ركن مخصوص ، يُلقى بشظاياه ، وهو آمِنٌ فى مكمنه مستقِرٌّ . . .

لقد أتوْا به ليَشرحَ لنا ما نجوز به من المعالِمِ والمغانى .

ليتَه يعلم أنى أُوثِرُ الاستمتاعَ وحدى ، مستدِلاً بعينى ، مستوْحياً من المعالِمِ نفسِها فيضَ الشرحِ والإيضاح ، تاركاً لمخيِّلتى أن تسبَحَ بى فى آفاق التأمل ما شاءتْ أن تسبحَ ، غيرَ مُزْعجَةٍ بمنكَرٍ من الأصوات !

وَيحَكَ من ثرثارٍ جَهْوَرِىِّ الصوت، مُصِمٍّ للأسماعِ!...

إنك صوتٌ مجرَّدٌ... لقد طالما بحثتُ عن شخصِكَ، فأعيانى العثورُ عليكَ... لعلك اختراعٌ أمريكىٌّ جديد... ضِفدِعٌ من طراز حديث فى الصِّياحِ والنَّقيق!

مكانَكِ أيتها الضفدعُ، تستريحى وتُريحى!

ولكنَّ الضفدعَ لا تبرحُ تنِق، ولا يبرح نقيقُها يأخذُ على الآذانِ سبيلَ الإصغاء!

ماذا تريدُ أنْ تقولَ هذه النقّاقةُ اللجوج؟

إنها تُلِمُّ بكل شىء، وتعبِّرُ عن كل شىء، ماهرةً فى الإلقاء والتعبير...

تارةً هى شاعرةٌ تتمدَّحُ بمفاتنِ «نيويورك»، ثم لا تلبثُ أن تنقلِبَ تارةً أخرى مؤرِّخةً عالِمةً تقصُّ عليكَ تاريخَ المبانى والمعاهدِ والآثار، وتسرد لكَ الوقائعَ والأحداثَ، وتشرحُ لك من ظواهرِ العمارةِ والتخطيطِ ما يدلُّ على إحاطةٍ... وهى فى هذا وفى ذلك تحاوِل أن تكونَ طَلِيّةَ الحديثِ فكِهةَ الرُّوح، تُلقى عليكَ النوادرَ والنكاتِ، مستورةً حيناً مكشوفةً حيناً آخرَ. ولكنها لا تنتظِرُ منك قهقهةَ استحسانٍ، ولا تصفيرَ

استهجان .. إنها ماضيةٌ لطيّتها ، كالفلم المسترسل ، أو كقرص الحاكى لا يفتأ يدورُ حتى ينتهى الدَّورُ ! ..

الأمرُ لله أولاً وآخراً أيتها الضفدع ...

سنشتفّ كأس لجاجتك حتى الثّمالة ، طوعاً أو على كُره .

كنا نحسبُها نزهةً تقرّ لها الأعصابُ ، فإذا بها حربٌ وَقودُها الأعصاب !

وظلّت الباخرةُ تسير ، والضفدع لا يختنق لها صوتٌ من طول النقيق . .

عن الشمال « مانهاتان » وعن اليمين جزائرُ وخلجان ، وامتدادٌ « لنيويورك » العظيمة : « بروكلن » ، « كوينز » ، « برونكس » ، جسورٌ شوامخُ كأنها أطوادٌ معلّقةٌ تكسوها الرهبةُ والجلالُ ، أو كأنها هولاتٌ من الشياطين تمدّدتْ بأجسادها فوق الماء لتَصلَ بين أجزاء اليابسة !

وسمعت الضفدعَ تقولُ :

أمامكم جزيرة أصدقائنا المجانين !

والتفتّ أنظرُ ، فإذا بجزيرةٍ مُزهرةٍ مُشمسةٍ ، تجوس

خلالَ خمائلِها جداولُ رقراقةٌ ، وفى وسطِها مبنًى جميل تبدو
حولهُ أشباحٌ تروحُ وتجىءُ فى رزانةٍ وهُدوءٍ .

ليست جزيرةُ المجانين إلا جنةَ عدْن ...

ودِدْت لو وجدنا السبيلَ إليها ، لنتخلصَ على الأقل من ضفدِعِ
الباخرةِ ؛ ولسنا نبالى بعدَ ذلك أن نُحْرَمَ ألقاب العقلاءِ !

وجهَرَ الصوتُ يقول :

ها هو ذا سجنُ « البرونكس » . . . لا تنسوْا أنّ حجراتِه
مجهّزةٌ بآلاتِ تكييفِ الهواءِ !

يا للْعجبِ ! نحن فى بلدٍ يحظى بالسعادة فيه صنفان من
منكودى البشرِ : المجانينُ والمساجينُ !

وانبرتِ الضفدِعُ تسرُد أنباءَ المعالِمِ والمشاهدِ ، مؤيدة
حديثَها بلُغةِ الأرقامِ : لغة الملايين، غيرَ ناسية فى كل مرة أن
تصِفَ ما تصفه بأنه أعظمُ أمثاله فى العالِمِ المسكون .

هذا معهدٌ بلغتْ تكاليفه كذا مِليون دولار ، وإنه أعظمُ
معهدٍ من نوعِه فى العالِمِ !

هذا نُصب بلغتْ تكاليفه كذا مليون دولار ، وإنه أعظمُ
نُصب من نوعه فى العالم ! . .

يزهو الأمريكيُّ دائماً بضخاماتٍ ثلاثٍ :

ضخامةِ المالِ .

ضخامة الشكل .

ضخامة الصِّيتِ .

وإنه ليؤسِّس مدنيّتَهُ على تلك القواعدِ الثلاث !

وطالعتْنا فى أطرافِ جزيرةِ « مانهاتان » غابةٌ من أروعِ الغاباتِ ، قائمةٌ على تِلالٍ عجيبة ... غابة موحشةٌ تمثّلُ البداوةَ والفِطرةَ فى قلبِ الحضارة والعمران !

لكأنهم اقتلعوها من مغرِسها الأصيلِ فى المجاهِل والأدغال ، وجاءوا بها ليتخذوها طُرْفةً وقرّةَ عينٍ ، كما تُجتلبُ الوحوش من مغاورِها وأحجارها ومسارِحها لتسكُنَ فى الحواضر حدائقَ الحيوان ..

ودارت بنا الباخرةُ يَسرةً ، ومضينا .. فإذا نحن أمامَ جسرِ « واشنجتون » العظيم ، يتلألأ بلونهِ الفِضىّ فى وَهجِ الشمسِ ، ويمتدُّ بجرمهِ الرائعِ وبسلاسِله الضّخامِ ، كأنه صرحٌ ممرَّد من زئبقٍ رجْراجٍ .

ثم بدَتْ « نيوجرْسى » مختالةً بمصانِعها ، يحدُّها الشاطئ

الجميلُ ، وتتناثر فيها المغانى أنيقةً رشيقةً ، وتنبسطُ فيها المروجُ بهيجةً نضيرة ...

وما زالت الباخرة تمخرُ العبابَ ، والضفدِعُ تُوالى النقيق ، والمناظر الأمريكيةُ كأنها ألواحٌ فنيةٌ ، يحاولُ كلُّ لوحٍ منها بفتنتِه أن يقيِّدَ الأنظارَ .

وبلغنا غايةَ المطافِ ...

فوقفتْ الباخرةُ ، وخرِسَت الضفدِع .

وإذا بنا نُدْفع خارجَ الباخرةِ دفْعاً ، ويُلقى بنا فى عُرض الطريقِ .

والتفتَ إلىَّ مُرافقى ، يقول :

حان وقتُ الجولةِ المسائيةِ فى أحياءِ « نيويورك » الأصيلة .

وما كاد الظلامُ يُسْبلُ أستارَه ، حتى انبرتْ له الأنوارُ الألاقةُ تطاردُه ، فيرتدّ مقهوراً على أعقابه !

طرَقنا ، أولَ ما طرقنا ، قريةَ « جرينوتش » .

ليست بقريةٍ ، وإنما هى حىٌّ معروفٌ له طابَعه ورُوحه ، ولكنْ ما سمعناه عنه أكبرُ من مظهرِه . إنه مثابةُ الفنانينَ ، فيه نبتَ أكثرُهم وترعرَع ، نشأوا فقراء فى أكنافه المتواضعةِ ،

فلما أخذت أسماؤهم تعلو ، وصِيتهم يطيرُ ، ارتحلوا عنه إلى منطقة نواطِح السحاب ؛ كأنهم يوازِنون ويلائمونَ بينها وبين ماكتبَ لأسمائِهمْ من علوٍّ وبُعدِ صيت .

إن من بينِ هذه الدُّور الضئيلةِ ما هو معروفٌ حتى اليوم باسم أصحابه الأقدمينَ ، من الفنانينَ الذين هجروه ، وخلّفوه لغيرهم من السكان المحْدَثينَ .

إن « جرينوتش » قريةٌ حقّا إذا وُوزِنتْ « بنيويورك » . قريةٌ بمنازلها المتخاضعةِ ونوادِيها المنزوية حيث لا يُقيم أهلُها شأناً للعرف ولا للتقاليدِ .. وما أشبهَ مشارَبها ومراقصها ومغانيها بنظائرها فى مثلِ ذلك الحىِّ من عواصمِ « أوربا » العجوزِ .

لقد جُبنا أرجاءَ « جرينوتش » وقضينا فيها بعضَ الوقت ، ولكننا لم نَفُز بغيرِ ظاهرِها المكشوفِ ، وليس بذى بال ... أمّا الخفىّ المستورُ فهو لأهلها خاصةً لا يزاحمهم فيه واغِل دخيلٌ .

من ذلك الخفىّ المستور مسارحُ للفنّ قائمة ، ولكنه الفنّ الوضيعُ فيما يرى بعضُ الناس ، أو جوهرُ الفن الحق فيما يرى بعضٌ آخرون !

فى تلك الدِّمَنِ تنبُت زهراتٌ نواضِرُ ، تتفتّح بين الفينة

والفينة ، فإذا نُزعَ الشوكُ عنها ، وازِيلَ الغبارُ منها ، كانت أهلاً أن تزيِّن صدورَ المجامعِ والمحافِلِ وتنفحَها بعطرها الفوّاح.

وانثنينا إلى « الجتو » :

حيّ الأنوفِ البارزة ، والمِشيةِ المتمهلةِ ، والأعينِ الحذرة التي تبعثُ لحاتها خلفَ المِنظارات ... حيّ اليهودِ .

هذه حوانيتُ كأنها صوامِعُ عتيقةٌ ، أومعابدُ أثريةٌ ، يتردد حولها أو يجلسُ بأبوابها أشباحٌ كأنهم نُسّاكٌ متعبِّدون !

بنو إسرائيلَ الأصلاءُ هم هم ، لافارقَ بينهمْ إلا اختلافُ الأسماءِ ... سواءٌ أحوَتهم شوارعُ « الجتو » ، أم استهواهم المبْكَى في « فِلسطين » ، أم احتضنتهم في « القاهرة » أعماقُ حارة اليهودِ !

وطرقْنا « البورى » مباءَةَ الإجرامِ ، ومَثْوَى الصَّعلكةِ والتشريدِ ، ووكرَ الفنّ المبتذَلِ الرخيص ...

على الطّوار يستريحُ الصعاليكُ ، فإذا ما لمحَكَ واحدٌ منهم وآنسَ فيك مغنماً ، تقدّم إليك بجسمه الرّخو ، وثيابهِ الرّثّة ، وخُطواته المتسكعةِ ، وأنفه المتورّمِ المخمورِ ، يمدّ إليك يد

السؤالِ . . وعليكَ حتماً أن تجيب ، وإلا انقلب السؤالُ إلى وعيدٍ وتهديد !

يالله .. ها نحن أولاء فى « أمريكا » دنيـــا الرخاء والثراءِ يلاحِقنا ذلك الصنفُ من الناس ، أولئك المستجدون الذين لا ينقطعُ لهم سيلٌ فى بلادِ الشرق... ولكن المستجدى الأمريكى والمستجدِى الشرقىّ يمثل كلٌ منهما طابَع أمتـه وروحَ وطنه... فالسائلُ فى « القاهرة » مثلا إذا زَجرتَـه استعان عليك بالله ، وانصرف عنك فى استسلامٍ ، وأما السائل فى « نيويورك » فإنه يتقاضاكَ مايعدُّه حقّـًا له بالظُّـفْر والنـاب ! ...

وهذه مشاربُ ومراقصُ تـكتظُّ على سعتها بالحشود من الأوشابِ ، طُلاب الدنايا من المُتع ، يتجمَّعون حولَ موائد الشراب ، وقد اندسَّت بينهم الغوانى المتبذّلات .

وبدَتْ لنا على مِنَصة فى أحدِ تلك المراقص امرأةٌ ، بل كتلة خسيسةٌ من لحم وشحم ، بوجه لوّنه الطلاء البشع ، وشعرٍ منتفش موحِش ، وقـد اكتستْ حُلة برْقشتها زوائفُ الزينة والوشىِ ، وهى تصوِّت أمامَ مضخم الصوتِ فى نغمةٍ منكرةٍ ، موهمةً سُمَّاعَها أنها تشدو وتتغنى ! ..

ما أشبهَ الليلةَ بالبارحةِ . . أليس هذا المكان هو نفسه ذلك المرقصَ الوضيعَ الذى كان يزخر بالقصاد فى أحط أحياءِ « القاهرةِ » إبّان الحرب العالميةِ الأولى منذ أكثر من ربع قرنٍ ؟!

ألا فلنُولِّ فراراً من « البورى » ...

وحثثنا الخُطا . .

إلى أين ؟

إلى « مدينة الصين » ، إنها منا على مقربةٍ ...

حياكِ اللهُ أيتها « الصين » النائمة فى وداعة وهدوءٍ . . إنا مُلاقوكِ بعدَ قليلٍ ، وإنْ باعدتْ بيننا الدارُ ، وعز المزارُ !

وأقبلنا على مايسمونه « مدينة الصين » ...

حقـاً إنه حىٌّ متميّز قائمٌ بنفسه ، لا تُطالِعُ فيه إلا أشباحاً صِينيةً فى أزياءٍ غريبةٍ ، تتناثرُ بينها الأحاديثُ فى لهجةٍ تشبه همسَ القططةِ . . .

ثمّة حوانيتُ ترى على جبينها تلك النقوشَ والزخارف الصينية التى هى فى أغلب الظنّ أحرُفٌ وكلمات ! ...

وثمةَ دُورٌ متواضعة متخاضعة ، وطرق ضيقة غيرُ مستقيمة .

ولكن أنحنُ حقـاً فى « مدينةِ الصين » ؟

دخلنا مطعماً نستهديه الجوابَ ...

إنه ليَحملُ نفحةً صِينيّةً استرعت أنظارنا بظاهرتين: الأولى تلك الألوان الغريبة التى قُدّمت لنا، فكان مذاقها مبعثاً للحيرة والعجبِ، وإنّ الرز ليقدَّمُ بينها بديلا من الخبزِ، والشاىَ يقدَّمُ أثناءها عِوَضاً عن الماء ... والظاهرة الأخرى، ذلك النادل الصينىّ الذى ما كاد يبدأ خدمتَه لمائدتنا، حتى انتحى ناحيةً عن كَثَبٍ منا يَلتهم عشاءه بعَصَوَيْن تقومان مقامَ الشوكة والملعقة، وهو يحرّكهما فى مهارةٍ تستدرّ الإعجاب!

وحِمدْنا الله ما قدّر ويسّرَ، وخرجنا وفى بطونِنا خَواء.

وانصرفنا نسلُك الشارعَ الضيقَ، تُطلّ علينا من نوافذ دورهِ تلك الوجوه الصفرُ والأنوف الفطس والحواجبُ المشرئبّة.

وسمعتُ مرافقى يقول:

هل لكم فى زيارة المعبدِ؟

— تالله إنى إليه لمَشُوق ...

مَدْخلٌ ليس فيه من روح التعبُّد إلا مظهرٌ ضئيلٌ.

واجتزنا ممرّاً ضيّقاً ينتهى بنافذة، كأنها شبّاك التذكِرات فى دور اللهو ..

أمعبدٌ هذا أم مسرحُ تمثيل ؟!

واشترينا تذكرات الدخول ، وتابعنا الخطا ..

بهوٌ غير فسيح تتراص فيه المقاعدُ ، تزينُ حائطه نقوشٌ صينيةٌ ، وخرقٌ ملونةٌ كأنها أعلام . وفى صدرِ المكان محرابان ، أو بالحرى هيكلان مشحونان بالطُرَفِ والتماثيل من فنّ « الصين » يتميّز أحدُها بالعظمةِ والفخامة ، وما أظنه إلا تمثالَ « بوذا » المعبود ... إنه حقّا لتحفةٌ من تُحَفِ النحتِ ، تدل على صبرِ الفنان الصينىّ ودقتِه وأناقتِه !

وكان دليلُنا فى المعبدِ فتاةً صينيةً على جانب من الرقة والأدب ، انطلقتْ تصفُ لنا مراسمَ الزواج ، وكيف تتم أمامَ هذا الهيكل .

وحانت منى التفاتةٌ ، فألفيت أريكةً ساذجةً تتربّع عليها امرأةٌ صينيةٌ هزيلة تخطّت عصر الشباب ... وسرعان ما أدركنا أنها أمٌّ تلك الفتاة التى تقومُ فى المعبد مقامَ الدليل .

لقد كانت هذه الأمُّ تمثلُ فى جلستها « بوذا » آخرَ ، بيد أنه « بوذا » من طينة البشر ، منهمكٌ فى تقشير برتقالة !

واقتربنا من الإله البشرىّ نبادلهُ إيماءةَ التحيةِ فى صمتٍ ووقار .

ما بالُ هذه البرتقالةِ تشوب في هذا المكانِ صفاءَ التعبدِ ؟!

أغلبُ الظنّ أن ذلك المبنَى دارٌ تسكنها هذه الأسرة ، وقد أحالتْها مسرَحاً كما نرى تُمَثَّل فيه العبادةُ تمثيلا لا حقيقةَ له ولا روحَ فيه ... إنه معبَدٌ للأجانبِ من الزوّارِ ، لا للمواطِنينَ من أهل « الصين » ، ولكنْ حسْبُه أنه يكفل الرزق لتلك الأسرةِ ، ويُعينُها على أعباءِ العيش . . فلا ضيرَ علينا في أنْ نحْنِيَ له الرؤوسَ خاشعين !

كثيرٌ من معالِم المدينةِ يصوّرُ مظاهر من حياة « الصين » على الأسلوب الذي هو أقربُ إلى التمثيل منه إلى الحقيقةِ والواقعِ .

إن « مدينةَ الصين » على الرغم من كل شيء ، وعلى الرغم مما قيل فيها وما توصفُ به ، رقعةٌ من « نيويورك » لا قطعة من « الصين » الأصيلة !

أراهنُ على أن الصينيّ المقيمَ في هذه المدينة قد بدأ ينسَى صينيتَه ، ولم يحتفظ منها إلا برطانةِ كلماتٍ يميزُ بها شخصيته ، كما يُحلِّي حانوته ببعضِ الزخارف والنقوش ... وقد يكون مثله في ذلك كمثَل الملحِد الزنديق يتخذ السبْحة ليحرّكَ حبّاتها بين أناملهِ مَلْعَبة وملْهاة ! ...

اراهنُ على أنّ صينيّ « نيويورك » لم تطأ قدمُه أرضَ «الصين» يوماً فى حياتـه ، حتى إنه لم يَرَ منها ظلاً « شنغهاى » مدينةِ الاوربيين فى « الصين » ! ...

إنّ مدينةَ الصينِ فى « نيويورك » تمثِّلُ ما كان يمثلُه قصر « المهراجا » فى معرِض « ونبلى » فى « لندن » ... وأخشى أن أقولَ إنها تمثّلُ ما يمثله اليومَ « مسجِدُ باريس » فى « باريسَ » ! ...

٢٢ من مايو

فى أثناء الأسبوع المنصرم ارتدنا بعض الأحياء الأمريكية ذات الطابع الخاص ، أو بالحرى الأحياء المتميزة بأجناس مختلفة تتألف منها كتلة الأمة الأمريكية ..

تتناثر فى « نيويورك » الأحياء الخاصة بالأجناس المتباينة ، فهذا حى الإيطاليين ، وهذا حى الإيرلنديين ، وهذا حى الإسبان ، وهذا حى الروس ، وتلك أحياء أخر لأجناس أخر .

وإن تلك الأحياء لتبتلعها المدينة وتؤمركها ، فتتضاءل على مر الزمن ، كأجناس هذه الأحياء تربطهم جامعة أمريكية واحدة ، وإن تفرقت بهم المناسب والأصول ..

تتحلل أحياء الأجناس فى بوتقة المدينة ، كما تتحلل الأجناس أنفسها فى بوتقة الأمة الأمريكية ...

ولكن ثمة حى لا أدرى كيف يتحلل فى بوتقة « نيويورك » ؟ وكيف يتحلل جنسه فى بوتقة الأمة ، ومتى يتم هذا وذاك ؟

إنه كالحجر الصلد لا يلين للأحماض المذيبة ، ولا ينصهر فى أتون النار المتقدة ...

ذلك هو حيُّ الزنوج ، أو مدينة « هارلمْ » كما يسمونها هنالك ..

إنه أبعدُ أحياءِ « نيويورك » صيتاً ، وأوضحُها تميُّزاً ، ومرجعُ ذلك إلى قوةِ المقاومة في جنسِه ، وما يحيطُ به من ملابسَات تُعين على احتفاظه بجوهره ...

إن الأجناسَ الأخرى ليُسرِعُ إليها التحولُ والاندماج ، حتى لتكاد تنسى أصولها العريقة ، أما الزّنجيُّ فإنه وإن استمسك بأمريكيتِه واعتزَّ بها واكتسبَ كثيراً من مظاهرِ الحياة فيها ، فهو ما برِحَ يَعُدُّ نفسَه غريباً في « أمريكا » ، غريبا في وطَنِه !

إنه ليشعر بأن جنسَه هدَفٌ للضَّيم والاضطهاد ، ولذلك يتحصَّنُ خلفَ أسوار حيِّه ، يكاد يحظُر دخولَه على غيرِه ، بل يكادُ يقيمُ عليه باباً لا يستطيعُ اقتحامَه أحد ...

وإنه لمن عجيب المفارَقات أن تجدَ جنساً لا يعرف له وطناً إلا « أمريكا » التي يسكنها ، وهو مع ذلك يتأبَّى الاندماجَ في هذا الوطن ، أو لعلَّه لا يجد السبيلَ إلى هذا الاندماج !

تجولُ في « هارلمْ » فإذا بك في حيٍّ كسائرِ أحياء « نيويورك » في ظواهر العمْران ، إلا في السُّكان ...

مستعمرةٌ سوداء لا ترى فيها الأشباحَ البيضَ إلا لِماماً !

إن الأبيض يطرُق هذا الحىَّ وهو عليمٌ بأنه إذا توغّلَ فلن يأمنَ على نفسِه الغوائل . فكأيِّن من كلمة أثارت شغبا وأجّجت حرْبا ، وكأيِّنْ من إيماءة أقامت قِتالا وأورثت وبَالا !

إن هذه الوجوهَ السُّودَ لتقلّبُ فيك نظر المستريب ، فإذا رجَعت إليها البصرَ تحفزَتْ لك مستوفزةً متنمّرة ...

إن قصةَ الأبيض والأسودِ قصةٌ تتجلى فيها الطرافة ، وإن شئت قلتَ الغرابة والشّذوذ . . . إنها مأساةٌ دامية ، بل وصمةٌ فى جبين التحضّرِ الأمريكىِّ الناصع !

كادت قصةُ الأبيض والأسودِ تُقَوِّضُ بناءَ الجمهورية الفتية وتَفْصِم عُراها ، فتتفكك دويلات ضِئالاً ضائعةَ الشوْكة والسلطان ، ذلك لأن قدّيساً من البشر ، مثالى الفكرة ، تغمر الإنسانيةُ قلبَه ، أبى أن يكون فى الجمهورية الجديدة أرقّاءُ من السُّود يباعونَ بيعَ السِّلع ، فمنحهم حق الإنسان ، حق الحرّيةِ والمساواة ... ذلك هو « لنكولن » العظيم ، الذى كانت روحه فداء لفكرته ، فما كاد يرفعُ رايةَ العدالة ، ويقضى على الثورة ،

حتى خرَّ صريعاً بيد رجعيّة آثمة ، وراح شهيدَ مَثله الأعلى .

لقد وضعت الحربُ الأهلية هنالك أوزارَها ، وعفت الحِقَبُ آثارَها ، ولكنْ ثمةَ حربٌ أخرى ما برحتْ مستعرةَ الأوار فى الخفاء !

لقد محا القانونُ معانى الرِّقِّ والاستعباد ، ولكنها لما تزلْ عامرةً بها الصدور ... الأسودُ والأبيضُ سيانِ أمام القانون ، وأمام فُرصِ الحياة الرسميّةِ فى كل منحى من مناحى الاجتماع ، ولكن نصوصَ القانون فى واد ، وفهْمَ القانون والانطباعَ به فى واد آخر بعيد ... فإذا عرفتَ أنّ عقليةَ الأبيضِ لا تُسيغُ بأيةِ حال شخصيةَ ذلك الأسودِ المنبوذ ، تَسنّى لك أن تعلمَ كيف يفهمُ الأبيضُ ذلك القانون ، وإلى أىّ مدى يجرى تنفيذه فى المجتمع الأمريكىّ الذى نَعُدُّه مَعْقِلَ الديمقراطية وملاذَها الأمين !

ربما تحدَّثَ الأبيض إليك عن الأسودِ بروحِ « لنكولن » الأصيلة ، روحِ الإخاء والمساواةِ ، ولكنه إذا مارس شئونَ الحياة ، ولابسَ ذلك الأسودَ فى هذه الشئون ، فسرعانَ ما تتبدَّل به الحالُ غيرَ الحال ، فترى الأبيض ينظرُ إلى الأسودِ نظرةَ الأحرار إلى العبيد ، ويعامله معاملة السيد للمسود . .

لا ألفةَ بين الأبيض والأسودِ في « أمريكا » ، فبينهما حاجزٌ تكاثفت طبقاتُه وتحجرَتْ على ترادفِ الأيام ، ومنشأ ذلك أن الأبيض مازال بواعِثه الخفيةِ ينظر بعين أجدادِه ، فيرى الأسودَ عبداً رقيقاً ، له أن يبيعه وأن يشتريه وأن يُسخره فيما يبغى من الأعمال ، فكيف يُراد الأبيض اليومَ على أن يساويه أولئك العبيد الأرِقاء ؟ !

ومن ناحية أخرى نرى الأسودَ قد استنار عقله ، واستبان له حقُّه في أن يعيش حُرًّا على قدَمِ المساواة بينه وبين سائر الناس . وإذا كان قد اتخذَ « أمريكا » وطناً له ، فشأنُه في ذلك شأن الأبيضِ سواء بسواء ... وفوق ذلك فهو يرى بواعيته الخفية أن البيضَ القدماء قد استعبدوا أجدادَه ظلماً وعدوانا ، فهو يحفظ لأخلافِهم البيض ثأرَ الجدود . ومن ثمَّ تشهدُ في الأسْود المعاصرِ عُنْجُهيةَ وخُيَلاء ، وتلمحُ في عينه نظرةَ الثائرِ المحنق ، فيزيدُ ذلك من حفيظة الأبيضِ عليه ، ويوسع بينهما هُوَّة الشِّقاق ..

ومن أضاحيكِ المفارقات أن الديمقراطيةَ الرَّحْبة التي هي شِعارُ الجمهورية الأمريكية قد أعانت على التفرقة بين الأبيض والأسود دون عمد ... فهذه الديمقراطيةُ تمنحُ الهيئات

والأفرادَ حرية التصرف فى الأنظمةِ والإجراءات واتخاذِ الخططِ التى تُيسِّرُ سبل النجاح . وكان من أثر ذلك أن عمدت طائفة كبيرة من المعاهدِ والمؤسسات ونحوِها إلى إقصاءِ الأسود عن رحابِها ، مستخدمةً فى ذلك حقها فى أن تقبلَ من تشاء وتأبَى من تشاء ... فلم يجد الأسودُ بُدًّا من أن ينشىء لنفسِه معاهدَ ومؤسسات خاصة ، فاشتدت بذلك الفُرقة ، وتلظّت البغضاء ، وتقطعت أسبابُ التواصُل والاندماج !

سَتظلين يا «هارلم» كما أنت ، لا يَعفى عليكِ الزمن إلا إذا انقلب الأمريكيون البيض جميعاً أشباهاً «للنكولن» خُلِقوا من طينته ، واشربت قلوبُهم فكرتَه ، وكانوا كمثله قديسين نُصْب عيونِهم مَثلهُ الأعلى فى الإنسانية والإخاء .

ولكن أمِنَ الخير للأمة الأمريكية أن تكون على غرار «لنكولن» مثاليةً قديسة ، فيندمجَ العنصران النقيضان ، وتتزاوجَ العقليتان المختلفتان ؟

أم الخيرُ كلُّ الخير فى أن يظلّ للأسود ميدانه ودنياه ، وللأبيض حضارته يمضى بها طوْعَ هواه ، ويطبعُها بعقليتهِ ومنحاه ؟

مهما يكن من قولٍ ، فإن فى سريرة الغد جلاءَ ما تضطرب فيه الظنُّون !

أول بونية :

ما كان لنا وقد ذرعنا شوارعَ « نيويورك » وتدسّسنا إلى أحيائها إلا أن نخرجَ من عُزلة المدينة ، متخطّين أسوارَها ، فى نزُهات قاصية بين الضواحى والأرباض .

وإنك لتحسَبُ نفسك فى نزهة حولَ المدينة ، فإذا بك تعلمُ أنك قد اقتحمتَ حدودَ ولايةٍ أخرى ، وبدأتَ تجوب مدائنها ، وتطرقُ عاصمتَها !

تحاطُ « نيويورك » بضواحٍ طريفة ، سَمِّها كما شئتَ ولايات أو مدائنَ أو مقاطعات ... لها جميعاً طابعٌ واحد ، فما أشبهَ بعضَها ببعض : « البالساد » ، « بيرماونتن » ، « وستشستر » ، « لنج بيتش » ، « كونى أيلند » ، وما إليها .

دَساكِرُ وبقاعٌ تتجلى فيها مفاتن الريف جَمْعاء ، ولكنه الريفُ فى مظهر مثالىٍّ شائق ... إن هذه الدساكرَ لتُعَدُّ قُرًى هنالك ، ولكن أية قرًى هذه ؟ تلك وسائلُ الحضارة فى هذه المدُنِ الريفية مستكملةً مُستوفاةً تحيلُها حضراً له مزايا الريف .

للناسِ فى « نيويورك » عادةٌ ألِفوها ، هى أن يخرجوا إلى تلك البقاعِ فى أيامِ الآحاد والعُطلات ، وإن بعضاً من الناس ليتخذونها مستقرًّا ومُقاما ، يفزعون إليها انتجاعاً للراحة ، ونجاءً من الزحمةِ والضجيج ...

وإن لأهلِ « نيويورك » نزعةً قويةً إلى طلب الراحة يَنشدونها ويسعوْنَ إلى تحقيقها ما وَجدوا إليها الخلاص .

ترى أكثرَ كلماتهم دَوراناً على ألسنتهم هى كلمة « ريلاكس » يتناقلونها فى كل مناسبة ، فهى فِرْدَوسهم المفقود ، ونعيمُهم الموعود ... إنها « التَّراخى » .

وحُقَّ للأمريكيين أن يحلُموا بهذه الرَّخاوة ، يهيمون بها حبًّا ، ويتحرَّقون إليها شوقا . . . ولكن هذا الفردوسَ عزيز المنال على أولئك المساكين الذين دارت بهم الآلة ، وضغطتهم الزحمة ، وجهدَهم التكالُب على الكسْب والاغتنام .

إنهم لا يخرجون من رَهق إلا إلى رَهَق ، ولا يخلُصون من مجهودٍ إلا إلى مجهود . . .

إلى أين يقصِدون ؟

أإلى سفوحِ الجبال ، حيث تجولُ يدُ الفنانِ فى مجالى

الطبيعة ، فتحيلها جنات بحق ... حدائق وغابات ، جسور معلقة ، وهاد ونجاد ، جداول وبحيرات للسباحة والجدف ، ملاعب تحت الخمائل ، مقاصف بين الأيك والغصون ، إلى غير ذلك من محاسن تقر بها العيون ، وتثلج لها الصدور !...

ولكن كيف السبيل إلى الاستمتاع بهذه المجالى الفاتنات ؟

ليس ثمة من سبيل إلا أن ترهق نفسك وتزحمها بين الكتل البشرية فى البواخر والقطارات والسيارات الحافلة ، فإذا استخلصت جسمانك من بين الجموع فى آخر المرحلة ، ورأيت نفسك قاب قوسين أو أدنى من تلك الجنان الزاهية ، ألفيت شياطين الزحمة وأنظمة « الطوابير » قد سبقتك هنالك ، ووقفت لك بالمرصاد . تعكر عليك الصفو ، وتسلبك أملك فى « الريلاكس » ، فتنشد مع الشاعر العربى قوله :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

إن نشدان الراحة فى مظان الراحة هنالك معضلة من جسام المعضلات !

ولذلك تجلت أمنية « التراخى » فى مظاهر شتى من الأدب

الأمريكىّ والفن الأمريكىّ ؛ ولا سيّما ، الفلم ، السينمائى ...

تراهم يصوّرون حياةَ الطبيعة الفطريةِ تصويراً بالغَ الروعة ؛ ويشيدونَ بمفاتنِ المواطنِ غيرِ المتحضِّرة إشادةً ظاهرة ، وليس ولعُهم بذلك التصويرِ وتلك الإشادةِ إلا إرواءً لظمإ نفوسِهم إلى الراحةِ والرخاوة ...

ما أكثرَ المتنزهات الخلوية ، وما أحفلها بالمتعِ المتنوعة تُواتى كلَّ امرىءٍ بما تصبو إليه نفسُه !

وما أروعَ الطرقَ التى تصلُ بعضَ هذه المتنزّهات ببعض ! إنها طرقٌ فسيحة معبَّدة ، أُخليت مِضماراً للسيارات تلتهبها وحدَها التهاباً ، وقد يتحولُ الطريق جسراً عظيماً يمتدُّ أميالاً طوالاً ، ثم ينقلبُ نفقاً هائلا يتغلغلُ فى جوفِ الأرض متسلّلاً تحت أعماق الماء ، ثم تخرج منه تستقبلك المروجُ الخضرُ والغابات المشتبكة وتلك المغانى الفاتنة تبدو فى فنِّ بنائها كأنها لعبٌ مكبَّرة ، أو نقوش ملوّنة .

أما الشواطىء الخاصة بالاستحمام ، فلكل بقعةٍ منها نصيب فإن ضنّت الطبيعة به خلقوه لها خلقاً ، وأنشأوه إنشاء !

ولعل أكبرَ ما يميّزُ تلك الشواطىء حُفو لهُابتلك الملاعبِ التى نسمّيها : « لونابارك » ...

ما أنسَ لا أنس ملعبَ « كونى أيلند » ... رقعةٌ واسعةٌ تحوى كلَّ عجيبٍ غريب من الألعاب التى تأخذُ بمجامعِ الألباب.

وإنها لظاهرة تسترعى النظرَ ، تلك الرغبةُ التى تمتلىء بها نفوسُ الأمريكيين فى ارتيادِ أماكن التسلية الطفولية العامرةِ بالصَّخبِ والضجَّة والمخاطر.

ربما كانت علاجاً يفزَعون إليه ، شفاءً لأعصابهم المنهوكة ، على نحوِ ماكان يشْفى به نفسَه « أبو نوَاسٍ » ، إذ يقول :

دعْ عنك لومى فإن اللومَ إغراءُ وداونى بالتى كانت هى الداءُ

إنهم يعبُّونَ من تلك الخمرِ الـكاوية للأكباد ، لينسَوا ما نهـكـهُم من مشقة وجهاد ..

إنهم ليترامونْ فى ذلك الصخَبِ والضجيج ، يتركون أنفسَهم على سجيَّـتها ، منطلقةً تمرح وتلعب ...

هى رغبةٌ فى التحرُّرِ من الأغلال : أغلالِ العمل الدائب ، وأغلال النُّظُـم الصارمة !

فى هـذه الملاعب يحاولونَ أن يحطّموا هـذه الأغلالَ ،

فتجد الرجل الناضجَ قد اهتز طرباً وهو يعتلى صهوةَ حصانٍ من خشب يسابقُ به الريحَ ، أو ضج مرَحاً وهو يترنحُ على مقعدِه فى ذلك القطار الأهوجِ الذى لا يفتأ فى صعود وهبوط ، أو انبعثَ ضاحكا والرَّحى السحريةُ تدور به دورتها الحمقاء ثم تلفِظُه لفظَ النَّواة ... فلا تراه قد ترك لُعبةً إلا مقبلاً على أخرى ، طلباً للمزيد من الضحك والمِراح !

فى تلك الملاعب الثائرة تتجلى المخاطرُ فى صورةٍ واضحة ، ولكنها مخاطر مأمونة العُقبي .. وإن الإنسانَ ليولَعُ بها إرضاء لنزعة أصِيلة فى أغوار نفسه ... هذه الحضارة على وجهٍ عام قد أمَّنتْ عيشَه ، ومهَّدَتْ طريقه ، فأصبح يحيا حياةَ أمن لا تكلِّفه جهداً ذاتِيا فى المغامرة ومجالدة المخاوف ، ولا تتطلب منه أيّة جرأة أوجسارة ، لا كما كان يعيش أبوه الأول ، يصارعُ ويصاوِل ، تعتاقه فى كلّ طريق عقبَة ، ويخشى فى كلّ خطوةٍ أن يقعَ فى شرَك ، فإذا ذَلّل العقبات ، وتخطى الأشراك ، أحسّ قوةَ الشخصية وكبرياء الفتُوّة وزَهوَ الغلَب .

أما هذا الإنسانُ الحضرِىّ ، فإنه قد أُحيط بما يؤمِّنه ، حتى ملّ الأمن الشائعَ حوله ، فهو تَوّاق إلى أن يستعيدَ حياةَ

الفزَعِ ومجابهةَ الأهوال، ولو ساعةً فى مجالٍ تتناثر فيه ألاعيبُ الصِّبيان !...

ومن ثمَّ يرمى بنفسه فى تلك المخاطرِ المصنوعة، ويخرج منها سالِماً يُوهِمُ كبرياءه أنه الفارس المغوارُ والبطلُ المِقْدام !

طال بنا التجْوال يوماً فى هذه الشواطىء العامرة بالملاعب والمسابحِ والمقاصف، حتى آذنتْ شمسُ النهار بالمغيب، فإذا أنا أسمع صوتا يقول :

هلاَّ رافقتمونى إلى « مَغْنَى فكتور » نقضى فيه هَزِيعاً من الليل ؟

فالتفتُّ صَوْب الصوتِ، فواجهَنى صديقٌ كريم، سَمْحُ المحيّا، طَلْق الأسارير، فقلتُ له على الفور :

وما هو « مَغْنَى فكتور » ؟

— مَثابةٌ فى إحدى الضواحى القُصْوَى، إن شئت سميتَها مَطعماً، وإن شئتَ سميتها مُنْتدًى تستمتعُ فيه بجلسة صافية..

فقلتُ له :

لبّيْكَ !

وأقلّتْنا سيارته الرشيقة : فانسابت فى طريقٍ من تلك

الطُّرقِ الفسَاح تمرُّ بنا المروجُ والغابات والضِّياع يتلو بعضُها بعضاً فى جوٍّ رَخيٍّ الأنسام، حتى شارفنا «مغنى فكتور».

حديقةٌ طيبة، وبِركةٌ أنيقة، يتوسطهما مبنًى جميل، كلُّ ما فيه يشعرُك بالأُلفةِ ومظاهرِ الحياة العائلية.

لستَ فى مطعم أو مشرب، وإنما أنت فى بيتِ غِطْريف سَرِيّ من أمراءِ الطليان له فى الحياة ذَوْقٌ فنّيٌّ مُصفًّى، تخيَّر هذه البقعة النائية َليحيَا مع ضيوفه ورُوّادِ مغناه فى دعَةٍ وطمأنينة وصفاء، يقدِّمُ لهم أفخرَ الطعام وأطيبَ الشراب فى تأنُّقٍ وسخاء.

وتوخَّينا مَعْزِلاً هادئاً بجوار الشُّرفة، وأمضيْنا فترةً هانئة... لا موسيقى ولا رقصَ، لا حركةَ ولا جلبةَ، لا شيء عما تحفِلُ به مقاصِفُ الليل!

إن انتزاحَ هذه المثابَة عن قلبِ «نيويورك»، وقيامَها على أطرافِ الأرباض، وخلوَّها من المغريات الشائعة، جعلها مَهْوَى أفئدةِ أولئك الذين يبتغون تَذَوُّقَ المُتَع الغالية الرفيعةِ فى سكينةٍ وهدوء...

وتلفَّتُّ حولى أقول:

أين ربُّ البيت السيدُ «فكتور»؟

فعلا صوتٌ ضخم ردّدتْ أصداءه أبهاءُ المَغْنَى ، وقد شاعت فيه نَغْمَةُ حفاوةٍ وترحيب ، تصحَبُها ضحكةٌ رنّانة لا يجيدُ إطلاقها إلا مَنْ كان خالِيَ البال !

قلتُ على صديقي أقول :

قَسَماً إنه السيد « فكتور » !

فاعتاض الصديقُ عن الجوابِ بالابتسام ...

وهُرِعَ بعضُ قُصّادِ المَغْنى إلى مصدَرِ الصوت في بشاشة وإيناس ، وَأهابَ بنا الصديقُ أن ننهض كما نهضوا ، فتَبِعْناهم ، فإذا بنا أمامَ قفصٍ لطيف ، تقفُ على إحدى دعائِمِه بَبَّغاءُ رشيقةٌ تصوِّبُ فينا النظرَ وتُصعِّدُه بعينين حادّتين ...

فهمستُ في أذن صديقي :

من يكونُ هذا السيدُ الظريف ؟

— إنه الخِلُّ الوفيُّ والصديقُ الودودُ لربِّ الدار .

— حقّاً إنه لخيرُ من يؤدِّي حقَّ الضيافة ... !

ولبثْنا حيناً يحيِّينا هذا السيدُ ونحيِّيه ، ويفاكِهنا ونفاكِهه ، وقد توثّق بيننا الودُّ ، واتصلتْ أسبابُ الألفة .

ولكن القُصّادَ تكاثروا حول القفص ، وتكاثفتْ

الحلْقة ، فإذا بهذا السيدِ الظريفِ ينقلب عفريتاً من الجنِّ يصخبُ ويثور ، ويسلُقنا بلسان سَليط ، فتراجعنا عنه مقهورين .

لقد استجبنا لنداءِ هذا الزعيمِ الحبيس ، فلم ندعْ صيحته تذهبُ مع الريح ، ولكنه ما كاد يحسُّ عظمته تتجلَّى ، ويرى مكانته تتسامى ، حتى اشِرَ وبَطِرَ ، وحسب نفسه زعيماً بحقٍّ ، وانبرى يثور على من استجابوا له ...

ذلك صنيعُ حيوان . .

أتُراه محاكياً استطاع أن يُفصِح عن طبيعةِ الإنسان ، كما استطاع من قبلُ أن يحاكيه بالنُّطقِ والبيان ؟

وشرَعَ صديقي يَروى لى قصةَ السيد « فكتور » .

إنه طليانىٌّ تأمرك ، طليانىٌّ فنانٌ فى روحه وذوقه ، احتل هذا المغْنى بحديقته وبِركتِه ، فأقامَ هو فى الطبقة العليا ، وجعل الطبقةَ الدُّنيا مَطعماً ومثابةً للوُجهاء المترفين ...

وإنه ليتفنَّنُ فى كل ما يقدِّمه من مأكلٍ ومَشربٍ ، وما تقع عليه العينُ من أثاثٍ ومتاع ...

ولقد استغل الحديقةَ ، فاتخذ منها حظيرةً للدواجن ، ومزرعةً

للخضر والفاكهة ، ولذلك يقدمُ لك من ثمرِ المزرعةِ ماهو يانِعٌ جنى ، ومن نِتَاجِ الحظيرة ماهو منتقًى شهىٌّ ...

كلُّ ما عندك أيها السيد « فكتور » — أو على الأصح أيها « السنيور فيتوريو » — طريف شائق ، حتى هذه الببغاء المتمرِّدة الشَّغُوب ! ...

لقد تفتّقت عبقريتك عن عملٍ فنّى يدلُّ على أن للطليان القِدْحَ المُعلَّى فى حبِّ الجمال ...

حقًا لقد ظلمكم زعيمكم الراحِلُ « موسولينى » أيها الطليان ، إذ حاولَ أن يخلقَ منكم جبهةَ حرب وضرب ، وكَرٍّ وفَرٍّ ، وما أنتم إلا أمةُ فنٍّ جميل ، وذَوْق رفيع ...

وهل تَقِلُّ عظمة الفنِّ والجمال عن عظمةِ القتَال والصِّيَال ؟ ! ...

١٠ يونيه

جلستُ فى بَهْوِ الفُنْدُق أنتظرُ مَقْدَمَ صديقٍ كريم، اتفقَ معى على أن يصحبَنى لزيارة « دارِ الكتبِ الأهلية » فى « نيويورك »...

ولم يطُلْ بى الانتظار ، فقد أقبلَ علىَّ الصديق ، يتأبَّط رِزْمَةً ضخمة... وتبادَلْنا التحية ، فأسرعَ صديقى يبسُطُ رِزْمَتَه ، فإذا هى طائفةٌ طريفةٌ من مجلات وصحف...

وما هى إلا أن قال :

هاكَ نماذِجَ من صحافة أكبرِ مدائن العالمِ المتحضِّر .

وأخذ الصديقُ مجلِسَه حِيالى ، وقد أشعلَ لِفافةً فاخرة ، وقال :

كم صحيفةً تَصْدُرُ فى « نيويورك » فيما تَظُنّ ؟

فقلتُ ، وأنظارى تَسْبَح بين الصحف والمجلات :

مئات ، ومئات !

— بل عشرٌ فقط .

— لا أكاد أصدِّق ...

— إنها عَشرُ صحف يومية.

— ولكن مدينتَكم مدينةُ الكثرةِ فى العدد، والضخامةِ فى المظهر...

فتمكَّن الصديقُ فى جِلْستِه، ونفثَ الدُّخان فى ثقة واعتداد، وقال:

إن الكثرةَ والضخامةَ لم تفُتْ الصحافة! ... فالصُّحفُ الشعبيّة يَصْدُر من كلٍّ منها نحو ثلاثةِ ملايينَ نسخة، أما صحفُ الخاصةِ فيصدُر من كلٍّ منها نحوُ نصفِ مليون نسخة. وإنك لترَى الصحف اليوميةَ تخرُج فى نحو خمسين صفحة، أما نسخةُ يومِ الأحد فتخرُج فى نحو مائة من الصَّفحات...

— والمجلات، ما شأنُها؟

— هذا فَيْض لا يَغيض... لكلِّ منحى فى العِلم والفن والاِجتماعِ مجلاتٌ خاصة... لكلِّ ما يخطُر ببالِكَ مجلةٌ تُعْنَى بشأنه!

ووجدتُ يدى تَعْبَثُ بالصحفِ والمجلات، وتُخْرجُ من بينِها اعتباطاً مجلتين، أُولاهما: مجلةٌ لصيدِ السمك، والأخرى: لشئونِ الكلاب!

وراحت يدى تعبث ثانية ، فإذا بها تتصيدُ مجلة في حجمٍ رشيق ذاتَ غِلاف ملوّن شائق . . . فلمحها الصديقُ في يدى ، وقال من فوره :

تُعدُّ مجلاتُ هذا النوعِ بالعشرات . . . طِرازٌ جديد من مُبتكَراتِ الصحافةِ الأمريكية . . . إنه صحافة الضغطِ والإجمال .

— براعةٌ حقًا أن تحيلوا الكتابَ الضخمَ صفحات قلائل ، وأن تُخرِجوا القصةَ المطولة في أسطرٍ ضئال ! ... أخشى إذا امتدّت بكم الحال أن يكونَ زادُ القارىء من العلم والفن جُملا وكلمات !

ونفضَ الصديقُ رَمادَ لفافته ، وهو يحدّق فيها برهة ، ثم قال :

ربما كان هذا طلائع ما يلحَق الصحافةَ والتأليفَ من تطوّر في المستقبَل... قد يَقْنَع قارئ الغدِ بسطر يغنيه عن مقال ، وبصحيفةٍ تغنيه عن كتاب ، وبمجلّدٍ يُغنيه عن مكتبة زاخرة !

وانسرحتُ افكّر :

أيحِل حقًا هذا اليوم ؟ أَنُحْرَم متعة الإفاضةِ والتوسع والإطناب ؟

لا يخلو حديث الصديقِ من حق... قد يغدو إنسانُ الغد غيرَ

مفتقرٍ إلى مطوَّلات ومبسَّطات ، إذ تُغنيه عن ذلك نشأتُه فى بيئة نيِّرة ارتفع مستواها الثقافىُّ ، وتغلغل العلمُ فى مجتمعها العام .

يالله !... شدَّ ما كنتُ أكره الثرثرةَ ، ولكن ما أشدَّ كلفى بها وإشفاقى عليها الآن ، وأنا أراها تنكمِشُ وتتضاءل ، وتوشِك أن تحِلَّ بها ساعةُ الاحتضار !

قد يكونُ من معقِّباتِ هذه الحضارةِ السيارة القضاء على متعةِ الكتاب ، ذلك الجليس الأنيسِ ، والخِلِّ الوفىِّ .

ما أظلَمها حياةً تلك التى تطالِعنا دون ثرثرةٍ ، فيها للنفس مؤانَسةٌ ، وفيها للذِّهنِ إمتاع !

ورفعت إلى الصديق عينى أقول :

مهما يكن من أمر ، فإن هذا الأسلوب الجديدَ فى الضغط والإجمال يبعث على الرهبة والروع .. إن العملَ الفنِّىَّ روحه الحرية يتنفَّس فيها طليقاً ، لا تئوده القيود ، ولا تَصدُّه الحدود... أنَّى لك أن تتصوَّر لوْحاً فنيًّا ، أو لحنا فيَّاضاً ، أُريد على أن يُزَجّ به فى قوالب الضغط والإجمال ؟...

إنى لأتمثَّل هذه المضغوطات كما أتمثَّلُ إنسانا سَويًّا تَدْفَعُ به فى مِكبَسٍ فَنُخرِج منه قزَماً شائهاً متداخل الأوصال ! .

وهذا العملُ الفنىُّ أساسه الجمالُ وغايتُه الإحساس بذلك الجمال ، فكيف للإنسانِ أن يتذوّقَ الشىءَ الجميلَ ، وقد عَبِثَتْ بقسماتِه ومحاسِنه يدُ الضَّغْط والإجمال ؟ ! ...

إن سادتْ فكرةُ الاِختصار والاِقتضاب ميادينَ الفنون ، فإن ذلك حتماً يسايرُه تغيُّرٌ أصيلٌ فى تذوّقِ الجمال ، وسيُصْبِحُ للجمالِ مقاييسُ واعتباراتٌ أخرى غيرُ ما لنا اليومَ من اعتبارات ومقاييس .

تُرَى : أيُّهما خيرٌ ، ما نحن فيه ؟ أم ما يكونُ من تغيُّر بعدُ ؟

فقال الصديق ، وهو يَهمُّ بالنهوض : الحكم فى هذا كلّه للغدِ المغيَّب ، وما يطوى فى تضاعيفِه من تطوُّرٍ محتوم لا مخلصَ منه لإنسان ، ولا يَهْدِف التطوُّرُ إلا إلى ارتقاء !

وأخذ بيدى قائلا :

لقد حان الموعدُ ، فهيّا بنا إلى « دارِ الكتب » .

ومضينا فى الطريق ، فألفيتُ رفيقى يُرَبِّتُ كتِفى ملاطفاً وهو يقول :

إن صديقَك الكتاب ما برِحَ موفورَ الكرامة ، وإن سوقه

ما زالت رائجة أىّ رواج ... هذه المطابعُ الأمريكيةُ تخرج
فى كل يومٍ أكثرَ من ثلاثين كتابا !

فهمهمتُ :

قرابةَ ألفِ كتابٍ فى الشهر ؟ .. حقًّا لا يزالُ الكتابُ
بخير ، مدَّ الله فى عُمرِه !

وشارَفْنا « دارَ الكتب » ... مبنًى رائعٌ عظيمٌ أقرب
شبهاً بالطِّرازِ الرُّومانى ... دَرَجٌ متوافِرٌ فسيحٌ ينتهى بأعمدةٍ
متطاولة ... حُجَرٌ وقاعات تتجلى فيها الرحابةُ والتنسيق .

ورحْنا نجوبُ الأرجاءَ ، لا ندخلُ حجرةً إلا بارَحناها
إلى حجرةٍ أخرى ، كأننا فى مَزَارٍ نقضى فيه شعائرَ الطَّواف ...

فاستهوتنى تلك الطرافةُ والتجديدُ فى كل ركن ، وذلك التيسيرُ
وسرعة الإفادة فى كلِّ موضوع . وهذه الفهارسُ ... إنها
مكتبات مستقلة ، لها أنظمتُها وأوضاعها التى ترسلُ أضواءَها
لتُنيرَ طريقَ البحثِ والاِطلاع !

وزَهانى أن تقع عينى هنالك على قسم عربىٍّ ملحوظ
الجانبِ بين سواه من الأقسام ... هذا سفير الشرق العربىّ
يتربَّعُ هنا فى مهابة وإجلال .. ألا تراه أعزَّ مكاناً وأحمدَ أثراً

من مقاعد تُعدُّ للشرقِ فى هيئةِ الأمم أو مجلس الأمن أو غيرِهما من هيئات السياسة والشئون العالمية ومجامع الشرفِ والتكريم ؟

وزايلْنا الدار ، أو بالأحرَى صَدَرنا عن ذلك المعبَد المقدَّس ، حيث كنا بين يدى إلهِ الحكمة ، نتطلعُ إلى ماوَعاه صدرُه ، يَغْمُرنا فيض نورهِ العظيم !

وجعلتُ أتمثَّلُ هذه الملايينَ المرصوصةَ من عقولِ البشرِ فى مختلِفِ العصور على تبايُنِ الأجناس ، فدارت بخاطرى فكرةٌ فى شأنِ هِباتِ القرائح .

لقد أخرج العقلُ البشرىُّ عُصارتَه الأصيلة ، فليس له اليوم من جديد ، وإنما هى إعادةٌ وتكرار ومحاكاة ، أو مغايَرَةٌ فى المظاهرِ والصُّوَر والأوضاع .

ومن ثَمَّ يمكنُ أن نستعيضَ عن ألوفِ الكتب بعشراتِها ، ما دامت هذه العشراتُ قد استخلصتْ الجوهرَ واللُّباب .

ألا يَحْشِد لك « أرسطو » فى فلسفتِه جمعاً زاخراً من الفلاسفة والفلسفات ؟

ألا يمثِّلُ لك « شكسبيرُ » فى روعةِ شعرِه وعِظَمِ فنِّه صفوةَ المسرحيةِ المنظومة خلالَ قرونٍ وأحقاب ؟

ألا تجد فى ديوانِ « المتنبى » مثلَ الشعرِ العربىّ فى أوج خصائصِه ؟

ألا تغنيك قراءةُ ما ترَك هؤلاء الثلاثةُ عن قراءة ماترَكَ أضرابُهم ممن يُعَدون بالمِئات أو الآلاف ؟

ولكن أليس فى هذا الرأى حكمٌ على العقلِ بالحَجْرِ والجمود ، وإلغاء لظهورِ العبقريات التى لا يمكن أن تزول من الوجود ؟

حقا إنه لا جديدَ تحت الشمس ، وإن هذه العبقرياتِ لتتناول حقًا مطروقَ الموضوعاتِ وأمهات الأفكار ، ولكنها تعالجها على ضوءٍ جديد ، وتبعثُ فيها روحاً فتيّةً ، فتبدو فى مظهرٍ أخّاذ كأنما خُلِقَت خلقاً ، ولم يكن لأحد بها عهد ... وبذلك تستثيرُ الشوق والشّغفَ ، وتَنفى عن نفسِها دواعِيَ الملاَل !

أوَ ليس فى الحقّ إذن أنه لا يُغنى كتابٌ عن كتاب ؟

١٥ من يونيه

هذا يومٌ طريف ...

تخذناهُ لسياحة غريبة ، ليست من نوعِ السِّياحات المعهودة .

إنها سياحةٌ خيِّلت إلينا أننا طويْنا مِئين من السنين، دون أن نبلُغَ من الكِبر عِتيًّا ، أو نفقِدَ من عمُرِنا إلا بِضعَ سُوَيْعات ...

لكأننا فى سفينةِ نوحٍ ، نحْيا بين أجناسٍ مختلفة من البَشَر ، وأصناف متباينةٍ من الحيوان ، وضروبٍ شتَّى من الجماد .

لكأننا امتطيْنا « مركبةَ الزمن » التى وصفها لنا « ولز » فى إحدى رواياته الشائقة ، تلك المركبةَ العجيبة ، أو على الأصحِّ ذلك الجوادَ السحريَّ الطيارَ ... تهْمِزُه همزةً خفيفة ، فإذا به يَرْجِعُ بك القَهْقَرى فى أغوار الزمنِ ، عابراً صحائفَ التاريخ ، مُطِلاًّ بك على الكوائن والأحداث فى غوابِرِ الحقَبِ ، حتى إنك لتجْتازُ عصورَ المدنيّات فتقتحمُ وراءها عهودَ الحياةِ الإنسانيةِ فى غَيابات الكهوفِ وفوقَ أغصانِ الشجر ، وحتى

إنك لتبلغُ أقصى الشاطىء للمدنيةِ البُدائيةِ ، حيث تدنو سَحْنة الآدميْ من خِلقةِ الحيوان !

فإن همزْتَ جوادكَ همزةً أخرى قفز بك ينقلُك إلى عالم المستقبَلِ المجهول ، عالمِ الأحلام والتكهنات ، حيث تتسللُ إلى منافذِ المستورِ من الغيوب ، وترى ما يتمثلُه العقلُ البشرى من حياة اللاحقينَ فى ركْبِ القرونِ الآتية .

كان هذا اليومُ يومَ المتاحف الثلاثةِ ، المتصلةِ الحلَقات ، التى يُتمّ كلٌّ منها غيرَه .

وما أقربَ شَبهَها بمسرحيةٍ طليةٍ ثلاثيةِ الفصول ، يمثلُ الفصلَ الأول منها مُتحفُ التاريخِ الطبيعىِّ ، ويمثلُ الفصلَ الثانى متحفُ الآثار والفنون ، ويمثلُ الفصلَ الثالثَ مُتحفُ العلومِ والصناعات .

بين أرجاءِ هذه المتاحف شهِدْنا رواية الحياة كاملةَ الفصول .

لقد تعاقبتْ علينا أجناسُ الخلائق ، ومواكبُ العصور ، فتراءى لىَ الإنسانُ قطرةً فى ذلك المحيطِ المتلاطِمِ الأمواج ، الزاخرِ العُبابِ ، وتمثلتْ لى الأجناس والعناصرُ متواصلةَ الأصول ، وثيقةَ الأنساب ، وبدت لى القوميات والوطنيات

تذوبُ وتتزايل فى ذلك الكونِ الشاسِع الذى يرُدُّ الطرفَ وهو حسير .

ولكن سرعانَ ما احتجبتْ هذه الصُّوَرُ فى خاطرى .. وشعَرتُ بنفسى أزهو ، ويستيقظُ بين جوانحى حنينٌ واغتباطٌ حين رأيتُ الركنَ المصرىَّ فى مُتحَفِ الآثارِ والفنون يَشمَخُ على سائرِ الأركان ، فإن عظمتَه لتنْسَخُ بجانبها عظمةَ الإغريق والرومان ...

فى هذا الركن مُتحَفٌ كاملٌ للآثارِ الفرعونيّةِ بنواويسها الرائعة ، وتماثيلها الفخْمة ، و « مومْياواتِها » الخالدة ، ومخلّفاتها من كلّ دقيق وجليل ... حتى إنك لتُشاهد الضرائحَ وقد نُقلتْ أحجارها وأُعيدَ بناؤُها ، فإذا دخلتَ وطوّفتَ بأرجائها خُيِّل إليكَ أنك تسمَعُ صلواتِ الكهنة وأهازيجَ الغابرين ، وأنك تشمُّ البَخورَ يسرِى من المجامرِ طيّبَ الأنفاس .

معجزةٌ أيةُ معجزة حقـًّا ذلك الركنُ المصرىُّ السحيق الذى ينفُضُ عن نفسِه أكفانَ العصور والحِقَبِ ، ليحتلّ مكانه فى قلب عاصمةِ الحضارة الجديدةِ ، وكبرى مدائن العالَم الحديث !

حقـًّا لقد جَمعت لى هذه السياحة المباركةُ زُبْدةَ الحضارات

المتعاقبةِ ، وعصارةَ القوىَ الإنسانية في ماضيها وحاضرِها ، فاختزلت لى فى ساعات ما يَقتضى تحصيلُه شهوراً بل سنين .

هو اختزال واختصارٌ فى تقديم المعلومات ، ولكن على نحو يخالف أشدَّ المخالفةِ ذلك الذى تجرى عليه مَجلاّتُ الضغطِ والإيجاز !

لقد قطعنا البِيدَ والمفاوِز ، وجُسْنا خلالَ الأدغال والأحراج ، واجتزْنا رِحابَ الصقيع ، وحلّقنا فى مسارح الطير ، وغُصنا فى أعماق الماء ، وتصاغرْنا حتى حَيِينا بين ضِئال الحشرات وصُغْرَياتِ الجراثيم .

ثم تسامينا مندفعين بين السَّبع الطباقِ ، نجتلى أسرارَ الفلكِ الدّوّار ، وانتقلنا إلى أودية الأخْيلَة والتصوراتِ نَهيمُ بين القوىَ الذَّرِّيَّةِ ، كأننا أرواحٌ تتقاذفها أمواج الأثير !

هى دُنييات ودنَيّيات ... إن اختلفتْ أجناساً وأصنافاً وعناصرَ ، فهى هى ينتظمُها جوهرٌ مشترَك ، ألا وهو تلك القَبْسةُ العُلويَّة النُّورانيّةُ التى يتجلَّى بها على خلقه الله .. فما نحن من بَشرٍ أو حيوان أو جماد إلا جُزَيئاتٌ تتجمَّع أو تتفرق ،

تموتُ أو تُبعثُ ، ليكونَ مَصيرُها جميعاً أن تفنى الفناءَ التام في مَلكوت الملإ الأعلى .

هذا رَكْبٌ عظيمٌ بالغ الرَّوْعةِ ، زادُه العلمُ والمعرفة ، يحاول أن يبلُغَ بالإنسانيةِ أوجَ السعادة وذِرْوَةَ الرفاهية ، وإننا لنراه يَمضى قُدُماً جبَّار الخطوِ تكاد صوْلةُ ضجَّتهِ تُصمُّ الأسماع ، وسَنا ضوئه يذهبُ بالأبصار ، وروْعتُه تنخلعُ لها القلوب ...

رويدَك أيُّهذا العقلُ الإنسانىُّ الجموح !

دع لنا فى دنيانا بقيةً من جهالةٍ نلوذُ بها فى مَهربٍ من تلك الرَّوْعة والضجة والسَّنا ، فنَنْعَمَ غافلينَ بشىءٍ من راحة الأمنِ ودَعَة الصَّمْت وهدوء الظلام !

أول يوليه

عَوْدٌ إلى لغة الأرقام ...

لا عجبَ فى أن أتخذَ هذه اللغةَ بين الفَيْنة والفَيْنَة ، فإنى ما برحتُ نزيلَ « أمريكا » أتنسّمُ هواءَها ، وأحيا فى مغانِيها ، وليس « لأمريكا » معنًى إلا أنها أرقامٌ وأرقام ...

أرقامٌ متكاثرةٌ متعالية ...

نواطحُ سُحُبٍ أخرى قِوامُها الأعداد لا الأحجار !

ليس ذلك بمقصور على ميادينِ العمل المختلفة ، ولكنه يتعدّاه إلى الملاهى وما إليها من ضروب المتع .

تضمُّ مدينةُ « نيويورك » وحدَها سبعَمائة مبنًى بين مسرح للتمثيل ، ودار « للسينما » ، إلى جانبها ثلاثَمائة وألفٌ من أندية الليل ، تلك التى يُسمونها بالفرنسية « الكباريهات » ، ولعلّنا لا نخطئ إذا سمّيناها : المساهِر .

هذه المواطِنُ على اختلاف أنواعها بمثابة مُتنفَّس لسكان مدينة التزاحُم والضجيج ... هؤلاء الآدميين الذين لو انطلقوا من عِقال مدنيّاتهم لكانوا أحرياءَ أن يعمُروا أقطاراً شواسِعَ !

تعملُ تلك المسارحُ والمساهِرُ وما إليها فى هذه المدينةِ عملَ النوافذِ للحُجَر ، والرئاتِ للأجساد !

إنها مَثْوَى راحة ، ومثابةُ استجمام ، لذلك الآدمىّ الذى ينهمكُ فى عملِه رغبةً فى « الدولار » ، كما كان ينهمكُ عُمَّالُ السُّخْرةِ فى الزمن القديم رَهْبةً من العِقاب !

وبَدِيهىٌّ أن تكونَ تلك المُتنفَّساتُ موفورةَ الحظِّ من أسباب الدَّعةِ والتسلية وإمتاعِ النفوس ، وإلا انعكستْ الآيةُ ، فازدادَ قُصَّادُها رَهقاً على رَهق ، وشَقِيَتْ أعصابُهم بعذاب جديد !

وتَطوّعاً لذلك الغرض المنشود ، حرَصت تلك الدُّورُ على أن تقدِّمَ لروَّادها من نِتاجِ الفنِّ ثمرات دانيةَ المنَال ، أخَّاذةَ المظهَر ، وشراباً قريبَ المنهَل ، سائغَ المذاق ، وأن يكونَ فيه من عناصِر التفكِهة والمرَحِ ما يملأ النفوس من اغتباطٍ ، ويُنسيها ما يُثقِلها من أعباء المعاش .

ومن ثمّ كان الرُّوحُ الغالب فيما يُعرَضُ بتلك الدُّور هو روح التسلية المحضة .

على أنّ التسليةَ ألوانٌ ، وإنّ منها لمَا يصدِفُ عنه الرجل المهذب الذى عَلتْ ثقافتُه وصفا ذوقه ، فلم تعُدْ نفسه تَبهج بالرخيص من التسليات ، ولذلك تعدّدتْ ألوانُ المسارحِ والمراقص والمساهر ، لكى تُوائِم مطالبَ الأذواق والأهواء .

وعلى الرغم من أنّ روحَ التسليةِ تَسْرِى فى هـذا النتاج الفنىّ ، وتتدلى به أحياناً إلى دَرَكاتِ التفاهةِ أو الانحراف ، فإنّ ذلك النّتاجَ بمجموعه فى المستوى الذى يلائمُ بلداً متحضراً أهلوه على حظ ملحوظ من الثقافة وسلامة الذوق .

خرجتُ يوماً لأشهدَ حفلةً موسيقية فى « استاديوم كونسير » أستمعُ فيها إلى عازفٍ على « البيان » ، أحسبه بولونىَّ الجنس ، اسمه « روبن اشتين » . وبينما كنا نجتازُ الطريقَ إلى المثابةِ المنشودة ، اعترضتنا زحمة هائلة اضطرب لها نظام المرورِ ، وتناهى إلى أسماعِنا أن وقائعَ دموية تجرى ، وأنّ رجالَ الشرطةِ يعالجونها ضبطاً للأمن .

وبعدَ حين استبانت لنا جليّةُ الأمر ، فإذا بنا نعلمُ أن الزحمةَ لم تكنْ إلا إقبالا من الجمهورِ على شراءِ تذكراتٍ لمشاهدةِ الملاكم « لويس » يُنازل خصماً كبيرَ الخطر .

وكان الطريقُ على رَحابتِه وامتداده يموجُ بتلك الجموع التى تتناقلُ الحديثَ والنقاش ، بين مُشايعِ للملاكم « لويس » ، وبين مُناصر لخصمه الذى تصدَّى له .

فأذكرَنى ما أرى بمجالسَ « شاعرِ الربابة » فى العهودِ القريبة حينَ يتحلَّق الناسُ حوله ، يستمعون إلى ما يقصُّه من أساطير

« الزناتى خليفة » و « دياب بن غانم » وما كان بينهما من حرب ونِضال ، فإذا المستمِعون فريقان: مُشايعٌ لهذا ومناصرٌ لذلك. وربما أدّى الخلاف إلى شِجارٍ بين الفريقين حامِى الوَطيس.

ما أشبهَ الآدمىَّ بالآدمىِّ ، مهما تختلفْ بهما الثقافةُ والتحضر! ليس من فارق بين المعركةِ القائمةِ حولَ مجال الملاكمة، وتلك المعركة التى كانت تقومُ حول « شاعر الربابة » ، إلا أنّ الجمهور الأمريكىّ تدور معركتـه حول أبطال فى عالـَمِ الحقائقِ ، والجمهور الشرقى تدورُ معركتُـه حول أبطال فى ذمّـةِ الأساطير وعالم الخيال!

ولقد انتقلتْ عدوَى التحدُّثِ والمجادَلةِ فى شأنِ هذه الملاكمةِ إلى ساقـةِ السياراتِ ، فاندمجَ سائقُ سيارتِنا فى غِمار المتحدثين والمجادِلين ، حتى خشِينا أن تحدُثَ مشاجرةٌ نكون من وَقودها دون أن نجنىَ ذنباً!

لقد كانت السياراتُ وهى تجتازُ الطريق ، كأنها مراكز إذاعة متنقّلة ، مراكزُ استقبالٍ وإرسالٍ فى شأن هذه الملاكمةِ الخطيرة!

وبعدلأْى بلغنا « استاديوم كونسير» فى سلام ، ولم نكد نطأ أرضه، حتى ألفينا أنفسنا بين حشود من الناسِ يختنقُ بهم المكان.

إنّ « استاديوم كونسير » رحبةٌ فسَاحة مكشوفةٌ للهواءِ

الطلقِ ، مُلِيءَ نصفُها بكراسى مصفوفة ، وأقيمَ فى نصفها الآخر مدرجٌ عظيم .. إنها ساحة للألعاب الرياضية على طرازٍ رومانىّ ، يتخذونها أحياناً مثابةً للفنّ ، ومسرحاً للموسيقى .

كانت هذه الآلافُ المؤلفةُ يموجُ بها المكانُ ويرتجّ ، فما إن جعلت الموسيقى تنطلقُ أنغامها ، حتى عمّ السكون ، فاستحال المكانُ كعبةَ عبادةٍ يخيّم عليها الخشوع !

ولما تجلى العازفُ البولونىّ يصافح « البيان » بأنامله ، راحت هذه الجموعُ الحاشدة تهيمُ معه فى آفاقٍ رُوحية رائعة .

وانتهى العزف ، فإذا الجمهورُ المتعبد الخاشع ينبعثُ متهلّلا مرِحاً يُعلن حفاوته فى حميةٍ بين التصايحِ والتصفيق .

يميناً إن الفنانَ فى رُوحه الإنسانية الساميةِ ليلقى من حفاوة الأمريكيين وتكريمهم ما لا يقِل شأناً عما يلقاهُ بطل الحربِ وزعيمُ السياسة !

ولقد أثارَ انتباهى إقبالُ الجمهورِ الأمريكىّ بوجهٍ عامّ على نوعين مختلِفين متضاربين ، يستنفدُ فيهما وقتَ فراغِه : أحدهما مجالات الملاكمة والصراع ، والآخر أندية الموسيقى والغناء !

ظاهرتان قد تبدُوانِ على تناقض : نَزعة إلى الوحشية ، تُسايرها عاطفة رقة وحنان ...

ليس ثمةَ من تناقض .

إنّ الطبيعةَ قوامِها هذان العُنصران من خيرٍ وشر ، من شدّة ولين ، وما زالت الإنسانية بخيرٍ إذا استوفتْ نصيبها من هذين العنصرين على درجةٍ سواء !

فإن لم تتوافرْ السلامةُ والاتزان بينهما ، فطغَى أحدهما على الآخرِ ، صار الأمرُ إلى فساد .

والدُّوَلُ فى ذلك كالأفراد ... بتكامُلِ هذين العنصرين فيها تتصف بالاِعتدال .

وليست فورَات الشعوب فى الغارات والحروب إلا اختلالا فى أنسجَتها الحيويّة ، أفقدها ما بين العنصرين من توازن وَوِفاق ...

إنها طغيان لعنصرٍ على الآخر، وما أقربهُ شبهاً بثَوران بعض الأنسجة فى الأبدان ، ذلك الثوران الذى يحدِث أوراماً سرطانية توردُ صاحبها مواردَ الحتوف !

٤ بونو :

المسرحُ فى « نيويورك » ، على تباينِ أنواعه ، لا يختلِفُ كبيرَ اختلافٍ عن أمثالِه فى أُمّهات المدائنِ المتحضرة . فما يُعْرَضُ فيها على مسرح « متروبوليتان أوبرا » ، تصادِفُ مثله فى « أوبرا باريس » و « كوفنت جاردن » فى « لندن » . وما يُعرض فى مَسهَرِ « كوبا كابانا » ، لا يزيدُ على ما يعرض فى مسهر « الليدو » فى « باريس » ... وقد تجدُ الروايةَ الفنيةَ تمثَّل أعواماً تباعاً على أحدِ مسارحِ « نيويورك » ، فتذكر أنّ ذلك يجرى أيضاً على هذا النحوِ فى مسارِحِ « لندن » ... وإذا ذكرت المسرحَ الثلجىّ المسمَّى « أيس شو » فى « نيويورك » ، طالعك على الفور قصر الجليدِ فى « باريس » المسمَّى « باليه دوجلاس » .

فإن أبيتَ إلا أن تلتمسَ بينهـا بعض الفروق لم تجدْ إلا تلك الفروقَ المظهريةَ بين بلدٍ وبلد من حيث الطابَعُ المحلىّ والذوق الشخصىّ !

ولـكنْ ثمةَ فى الفنّ الأمريكىّ ظاهرةٌ خليقة بالذكر ، وإنى

لأحسَب أن « أمريكا » قد تفرّدتْ بها ، أو لعلهـــا سبقَت غيرَها إلى تجويدها ..

هذه الظاهرةُ وليدة فكرةٍ يسمّونها « تيسيرَ الفنّ للجميع » وغرضُها تحبيب الجمهورِ الكبير فى الفنّ الرفيعِ ، بعرضِ نماذج شائقة منه يستسيغُها مستوى الذوق العامّ .

وقد تكفّلَ مسرح « رديوستى هول » بتحقيق هـــذه الفكرةِ .. وهو فى الحق مَفخَرةُ البناءِ المسرحىّ ، وآيةُ إعجازٍ بين دورِ التمثيل !

إنه ليرحّبُ بستة آلافٍ ومائتين من النّظارةِ ، على مقاعد فسيحةٍ وثيرةٍ لا تقِلّ فخامةً ولا رَوْعةً عن المقاعدفى أمّهاتِ دور « الأوبرا » فى العالَمِ المتحضر .

فأمّا الأجرُ الذى يؤدّيهِ المتفرّجُ ، فهو زهيدٌ تافهٌ بالنسبةِ للأجور الغالِية فى الدُّور الرفيعةِ للتمثيل .

والبرْنامَجُ فى هذا المسرحِ يبدأُ منذ الصباح ، ولا ينتهى إلا بُعيْدَ منتصَف الليل ، فهو فى تَكْرارٍ خلال هذه الساعات الطوال . وإنه لبرْنامجٌ طريفٌ نستطيع أن نعدّه وافياً بالغرض

من تسليةِ الذهنِ وتغذيتِه ... إنه يماثِلُ وجبةً من الطعامِ خفيفةَ الهضْمِ ، مستوْعبةً لعناصرِ الغِذاء الصالحِ . ولو ألقيتَ نظرةً على أىّ بَرْنامَجٍ من برامجِ هذا المسرحِ لو ضحتْ لك تلك الفكرةُ فى غير عَناء .

البرْنامَجُ عدّة فصولٍ : عرض رواية سينمائيةٍ من المشهورات ، فحفلةٌ موسيقيةٍ قِوامُها ستون عازفاً يؤدّون قطعةً عالميّة متعارفة ، فغناءٌ تقوم به جوْقة يرأسُها مطرباتٌ ومطربون ممن لهم مكانةٌ ملحوظة وصِيتٌ بعيد ، فعرضٌ موسيقىّ غنائىّ راقصٍ قِوامُه أسرابٌ من الفتَياتِ يؤدّين رقصات شعبيّةً وأخرى فنية ، فى مشاهدَ جميلةٍ رائقة تتميّزُ بالطرافةِ فى الإضاءةِ والإخراج .

أوَلستَ ترى من تضاعيف هذا البرْنامَجِ أنّ الهدفَ الأول هو تقديمُ نماذجَ طيبة لا تنزل إلى مستوَى التهريجِ الرخيصِ ، ولا تسمو إلى الفنّ الذى قد يستعصى على سوادِ الناس ؟!

قيلَ إنّ « الأوبرا » محاولة لجمعِ فروع الفنّ فى إطارٍ واحد : التمثيل والغناء والموسيقى والتصوير والبَيان نثْره وشِعره . وإنى لأرَى أنّ « راديو ستى هول » هو محاولةٌ أخرى — وإنْ تكن فى حداثةِ عهدِها — لجمع مناحِى الفنّ

الحديثِ فى دائرة واحدة ، وقد تنمو هـذه الفـكرة على الأيام وتتطوّرُ حتى تلُمَّ شتات الفنّ على نحو جميل .

وعلى أيّةِ حال فإن هذا المسرحَ يطمَحُ إلى أن يجعلَ الفنّ ديمقراطيّا ، وأن يخلع عنه رداء الارِسْتقراطية التقليدية التى طال عليها الزمن .

ولـكنْ هل يمـكن حقـّا أن تطوىَ الديمقراطيةُ تحتَ جناحِها رُوحَ الفنّ الرفيع ؟

إنّ هذا الفنّ الرفيعَ فى معناه الأصيلِ أرِستقراطىّ فى كل ناحيةٍ من نواحيهِ ، فهو سُموٌّ فى التفـكير ، وعلوٌّ فى الذوقِ . إنه أرستقراطيةُ الذهن الذى يتفتّق عن عبقريّة ونُبوغ .

ولا نِزاعَ على أنّ العباقرةَ فى كل أمةٍ وفى كل عصر نفرٌ قليلون ، وأنّ ولائدَ قرائحِهم ستظَلّ بمعزِلٍ عن المستوَى الشعبى الذى ينتظم أفهامَ السواد .

وإذن فبونٌ شاسِعٌ بين أرِستقراطيةِ الحياة التى هى فى متناوَلِ التغيير والتبديلِ ، لِقيامِها على اُسُسٍ من المادّياتِ ، وبينْ أرستقراطية الفنّ التى هى عصِيّةٌ ممتنعةٌ ، لقِيامِها على أُسسٍ من مواهبَ خفيّةٍ ليس إلى اجتلائِها من سبيل !

وثمة ظاهرة أخرى فى الفن هنالك ، لا يحتاج التدليل عليها إلى بيان ، تلك هى عظمة « الفلم » الأمريكى ، وتفرده بالغلبة ، وسموه إلى القمة .

وجلى أن هذا « الفلم » يكاد يستوعب مظاهر النشاط الفنى جميعاً ، فيه تتلاقى الجهود الفنية المختلفة الألوان ، وإليه تجند المواهب والعبقريات فى شتى مناحيها ...

ولا مرية أن ملابسات دولية فى الحرب العالمية الأولى أتاحت « لأمريكا » فرصة التجويد فى هذا الفن ، وتزويد الأسواق به ، على حين أن الأمم الأخرى كانت فى شغل بأثقال الكفاح ، فتخلفت فى هذا المضمار ...

على أنه لو لم يكن الزاد الأمريكى الفنى ثمين الجوهر ، لما أعانته تلك الملابسات الدولية على التغلب والظفر .

ولو ذهبنا نتقصى العوامل التى أبرزت « الفلم » الأمريكى ، وجمعت حوله الأهواء ، وجعلته فناً عالمياً تنفسح له جوانب الأسواق ، لألفينا العوامل يتقدمها عامل الإخراج وما يكتنفه من معدات .

إن المخرج فى « الفلم » الأمريكى هو روحه وقوامه ، وإن هذا المخرج قد تفطن إلى لب الحياة ، وزاول من تجارب

صناعته وتفهم جمهوره ما بصرّه بوسائل النجاح . فهو إذا عرض عليك إنتاجه ، حاول أن يضع تجاه نظرك قطعة حية من دنياك التى تعيش فيها ، لا تزيين ولا تزييف . فسرعان ما تستجيب نفسك لما تشهد ، وسرعان ما تتم بينك وبينه الألفة ، وتحس بأنك تعايش من ترى من الناس ، وتزاول ما يدور من المشاهد والأحداث .

لقد توارى فى « الفلم » الأمريكى ما كنا نشهده قبلاً من مبالغة فى الأداء ، وتلفيق فى الصور ، وتزوير على ما تراه العيون ، وتستشعره النفوس ، فى دنيا الناس ...

لقد أصبح فن « الفلم » الأمريكى هو فن الحياة !

١٧ يوليو

إلى « واشنجتون » .

على ذلك استقر عزمنا بعد طول تردد وجدال .

دخلنا محطة « بنسلفانيا » العظيمة فكأنما تلقتنا متاهة تترامى أرجاؤها ، أو كأنما تلقفنا « برج بابل » يختلط فيه الحابل بالنابل .

محطة « بنسلفانيا » بناء متراكب الطباق ، ذو أبهاء رحاب تشرد في أنحائها العيون ، وعلى الرغم من ذلك تغص بالأفواج من طلاب السفر ...

هرج ومرج ، ولكنه منظم منسق يجرى على نمط مضبوط .
ثمة أرقام ترشدك إلى مآربك ، ومضخمات صوت تهديك السبيل ...

لزام عليك أن تكون عيناً يقظى ، وأذناً واعية ، وأن تحث الخطا تلو الخطا ، تجوز بظلات ومواطن : مقاصف ومتاجر ، لا تحصى لها عدداً ، ولا تدرك لها منتهى ...

وبعد لأْى تجد نفسك أمامَ سلالِمَ متحركةٍ ، صاعِدة بالمسافرين هابطة ، فتحسَبُ أنك فى إحدى دورِ اللهو تقسلى باللُّعَب ...

وترى الزَّنجىَّ حاملَ الحقائب قد سبقكَ يخُطّ لك الطريقَ ، كأنه يشجِّعُكَ على أن تمُارسَ لُعبةَ السلالم المتحرّكة !

ثم إذا بك على الطوار ، تُجاهَ القطار .

إنه رابضٌ فى مَثواه تحت الأرض ، وإنهم ليَصِفونه بانه قطارٌ ديمقراطىْ لا فصلَ فيه لدرجة عن درجة ، فالناسُ فيه سواء ، لا سيِّدَ ولا مسود ...!

مَرْكباتٌ متماثِلة فى النظافة والأناقة ، وأسباب الراحة .

ولكن ثمةَ مركبات كأنما تحاوِل أن تتوارَى عن الأعينِ ، هى مركباتُ « البولمان » الفاخرة ... تمتاز مقاعِدُها الوثيرةُ الدائرةُ بأنها طيِّعةٌ لك ، تميل فإذا هى مضطَجَعٌ ، أو تنبسِط فإذا هى مَخْدَع ...

وإنك لتراها وقد استأثَرَ بها ذلك الضربُ المتميِّزُ من الجنسِ الأمريكىّ ، تلك الكُتَل الضخام المحشوَّة « بالدولارات » .

هؤلاء السَّرَاة الذين يمثلون أرستقراطيةَ المالِ والأعمال ، فى مَعْقِلِ الديمقراطيةِ والمساواة !

وليس بمُعْجِزٍ لك أن تتبينَ هذا الضربَ من الناس ، وأن تفرِزَه من بين سائرِ الضروب فى أىّ المواطِن شئتَ من أنحاء هذا العالمِ الأمريكىّ العريض ...

ولكنه فى مركبة « البولمان » واضحُ التميّز :

وجهٌ أمردُ يكسوه احتقان ، ورقبةٌ غليظةٌ صلْبة ، ولفافة ضخمة سوداءُ تتنقّل بين الشدقين ، ومِحفظة فى اليدِ تتجمّعُ فيها الإضماماتُ والقوائم وأوراق الحساب ، ومِضجْعةٌ متراخِيةٌ ، وكأسٌ من شراب مثلوج !

إن « البولمان » مظهرٌ جلىّ للأرستقراطيةِ الأمريكية ، فى حين أنّ المركباتِ الأخرى « السكوتش » تمثلُ الديمقراطيةَ السافرةَ : حشدٌ متكدّس ، صَخَبٌ وجَلَبٌ ، باعةٌ من الزنج يحملون مختلِفَ الأطعمةِ والأشربة ، يهتفون بها فى تحفّظ ، وهم يعبُرون الممراتِ عبور السيادة والترفّع ، كأنما ينتظرون أن تستعطفَهم إذ تشترى مما يحملون !

أين من هؤلاءِ الزّنج الشامخين باعتُنا المتواضِعون الذين

يعولون بالسَّميد والبيض والجبن في قِطارات « مصر » وهم يعرضون سِلَعهم في رجاءٍ وإلحاف ؟ !

انطلق القطارُ متغلغِلا في مسارب الأرض وقتاً ، ثم إذا به يجري على ظهرِها متنفساً الصُّعداء ، في عالم الضوء والهواء... فيمرّ بالمروجِ النواضِر ، والغاباتِ الشواسِع ، والصفحاتِ المتألِّقة من الماء ! !

إنها لنُزهةٌ رائعة حقّا ، هذه التي يُتيحُها لنا القطارُ أربع ساعات بين « نيويورك » و « واشنجتُن » ... في هذه النزهة تتجلّى الطبيعةُ عروساً بمفاتِنها تجتذِب العينَ وتختلِب الفؤاد .

تركْنا القطارَ في « محطة الاتحاد » : مبنًى ضخم تعلوهُ قبّة بعيدة الأطرافِ ، تشعرُك بما لها من عظمةٍ وثراء ...

وطرقنا بابَ العاصمة ، قاصدِين الفندقَ في أقصاها .

يالله لتلك الخضرةِ النّضرة الريّانة !

حيثُما تتلفت يقع بصرك على أشجارٍ حاليةٍ بشتى الرياحين .

إنّ « واشنجن » بستانٌ يتجدّد أمامَ ناظرَيك مختلفاً ألوانه : تارةً أنت بين خمائلَ بديعة التنسيقِ ، وارفةِ الظلّ . وطوْراً تجتاز غاباتٍ متعانِقةِ الشجر ، تسلمك فيها النِّجاد للوهادِ . وحينا

أنتَ عابرٌ جسوراً جميلةً تتراءى تحتها الجداولُ والأنهرُ ضاحكةَ الموج بهيجةَ الرُّواء . وتلك المغانى منثورةٌ هنا وهنالكَ ترعاها شمسُ « يوليه » الساطعة ، ويروّحها نسيمُ الصيفِ الوادعُ الرفيق .

وهذا الهدوءُ الشائع . .

لا تدافُع بالمناكِب ، ولا تزاحمَ على الطريق . . ولا قوالبَ مكدَّسةً تُرْهِقُ أعصابك بجمُودِها ، كتلك التى ضِقنا بها ذَرْعاً فى « نيويورك » ، مدينةِ القوالبِ من بشرٍ وحَجَر !

ما أقربَ مدينةَ « نيويورك » شَبَهاً بغانية القرن العشرينَ ، فى رُوحها المتمرِّدة ، ونظرتها المتلهّبةِ ، وحركتها المتوثبة ، ولبُوسها السادرِ الجرىء .

فأما مدينةُ « واشنجتن » فى هذا الشهر الصائف . وهى تختالُ فى غِلالةٍ من ضوء الشرقِ ودفئه ، فما أقربها شبهاً بغانيةِ الشرق « شهرزاد » : مشيةٌ متخطِّرة ، وفتنة متراخيةٌ ، ودَلال مستنيم ، ونظراتٌ وانيةٌ تتراءى فيها أطيافُ الأحلام !

أيامٌ معدودات ، قضيناها فى تلك المدينة ، مرّت كما يُمرُّ الحُلم الورْدِىّ السعيد ...

لا تُباهى « واشنجتون » بالأرقام ، فسُكانها يُعدّون بمئات الألوف لا بالملايين ، ومساكِنها تُعدّ الطبقاتُ فيها بالآحاد لا بالعشرات . . . ولكنها تباهِى بما هو أجلّ وأروعُ ، هو تلك الخضرةُ الناضِرة ، فهى خليقةٌ أن تلقّب بالعاصمةِ الخضراء !

شدّ ما يروعُنى أن أعلم أنّ « واشنجتون » عاصمةُ الدولة ! ... فهى مركزُ دُور الحكومةِ ، ومَقرّ السفاراتِ ، وملتقَى المصارِفِ ، ومجْمَع الكثيرِ من الإداراتِ والأعمال ...

ما كان أجدرَ أن تخلُصَ هذه المدينةُ من تلك المعالِم التى تمثل الآليةَ والمادّيّةَ ومظاهِرَ الحياةِ الواقعة . . . فما خُلقَتْ المدينةُ لشىء من هذا كله ، وإنما خُلِقت فِردَوْساً تحومُ فيه الأطيافُ اللطافُ ، والأرواحُ الصافية ....

يأبَى القومُ إلا أن يُريدوكِ أيتها المدينةُ الحالِمةُ على أن تكونى مركزاً للدولة . .

لقد أقاموا فيك مبنَى « الكابتول » : دارِ البرلمان ، بِقبّتها المنتفخة ، وأعمدتها المتشامخة ، ودَرَجها الذى تكاثرَ وتعالى حتى

لكيانه صراطٌ أُعِدَّ لمن يلج أبوابَ الدار ، امتحاناً لقدرته على الكفاح .

ولقد حشدوا فى أرجائك تلك الأنصابَ التذكارية والمؤسسات الحكومية مختلفةَ الطراز ، متباينةَ الأشكال : هذا يستعيرُ شكلَ المسلةِ المصرية ، وذاك ينتحل الطابَعَ الرومانىّ ، وتلك من وحى الفنّ الحديث .

إنك لتجوسُ خلالَ ما شُيِّدَ من هذه الأنصاب ، فيبدو لك « لنكولن » على مقعدِه ، تكسوه مهابةُ الزعيم ، وتفكير الحكيم ، وروعةُ القدّيس ... ويطالعكَ « توماس جيفرسون » مبسوطَ القامة ، فى معطفِه السابغ ، تتجلّى فيه ملامحُ الحزمِ والإرادةِ التى كان بها ساعِدَ « واشنجتون » الأشدّ ، ودِعَاماً قويًا فى صرحِ الوطنِ الأمريكىّ .

إنها لأنصابٌ رائعة أقامها الأمريكى الحديث العهدِ ، مدفوعاً إلى ذلك بباعث نفسىّ دفين ...

إنه ليلحّ فى اتخاذِ الوسائل التى تجعلُ من قومه أمّةً وراءها ماضٍ يحفِل بالأحسابِ ، وتاريخ يزخر بالأمجاد !

ولكنّ هذه الأنصابَ جميعاً تحمِلُ طابَع الجِدَّةِ ، لم يكد

ينفضُ الفنانون أيديهم منها. فليست روعتُها في جلالِ العتقِ والقِدمِ، وإنما روعتها الحقةُ فيما تُوحي به من المعاني الكريمةِ والمُثُلِ العالية... بيد أنه لا بدّ من أحقاب وأحقاب، حتى يكسوَ هذه الأنصابَ وقارُ الزمن، وتجللها مهابةُ التاريخ!

إن المَسحةَ الغالبةَ على المؤسساتِ الحكوميةِ في هذه المدينة هي مَسحةُ العظمة والفخامة، إلا مبنًى واحداً، لا أدري كيف تفلّتَ من هذه المسحةِ، ذلك هو «البيت الأبيض»!

بالغٌ هو في سذاجتِه، حتى لتكاد تخطِئُه العينُ حين تجتازُ به: دارٌ متواضعة ذاتُ طبقتين، لا ميزة لها إلا في بياضِها الناصِع، وحديقتها الفيّاحة.

لقد بُنِيَتْ تلك الدارُ على هذا النحو مقرّاً للرئيسِ الجمهورية، وأقيمَ تجاهَها مبنَى «الكابتول» العظيمُ، ووصل بينهما طريقٌ ممدودٌ فسيحٌ...

ولَكأني بالأمريكيّ حينَ صنعَ ذلك إنما أراد أن يرمُزَ إلى أصولِ الحكمِ في تلك الجمهورية، فجعل من الطريقِ بين المَبنَيَين تعاوُناً وصِلةً، وكأنهما في تقابُلِهما يستمِدُّ كِلاهما من الآخر قوة

على الاضطلاع بالإمْرة، وهيمنة على صوالح البلاد.

ما كان لنا ونحن فى «واشنجتون» ألاّ نزورَ بيت الرئيس الأوّل، مُنشىء الوطن، نحُجّ إلى مَثْواه، ونزورُ ضريحه العامرَ بالقُصّاد.

ما أجملها نزهة تلك التى يستمتعُ بها السائرُ إلى بيت «واشنجتون» فى مزرعته الأصيلة فى «مونت فرنون».

طريقان هنالكَ للذهابِ إلى ذلك البيت: طريقٌ ريفىّ جميلٌ يتراءى على بُعْدِ امتدادِه وافرَ الخُضرةِ وارفَ الظلال. وآخرُ نهرىّ تمخُر فيه باخرةٌ بحذاءِ شواطىءَ ترفلُ فى وَشْيٍ من نسْج الطبيعة بَهيج.

ومتى بلغتَ البيتَ رأيتَ نفسَك قد رَجعتَ إلى حِقْبةٍ من التاريخِ، هى الحقبةُ التى عاش فيها «واشنجتون» فإنّ القوم احتفظوا فى تلك الرقعةِ من الأرضِ بشتى مظاهرِ الحياة فى ذلك العهدِ الغابرِ. فأنتَ تتنسّمُ من كل شىء يُحيط بك عصرَ الاستقلالِ، وبدءَ تكوين الجمهورية...

بيتٌ ريفىّ ناصعُ البياض، ظاهرُ السذاجة، ذو طبقتين، يشرفُ على النهر فى شكل يأخذُ بمجامعِ القلوب.

وإنّ هذا البيت على تواضعه ليروعك بذكرياته وطرفه التاريخية الماجدة الخالدة ...

حسبك وأنت تتنقل بين حجره وأنحائه أنّ هذا الركن كان يجلس فيه « واشنجتون » فى لمّة من أعوانه ، يبرمون الرأى ويجمعون الأمر ، وأنه فى هذه الزاوية كان يجلس ليقرر مصاير البلاد ، وأنه فى تلك الحجرة كان يتخذ مخدعه ليدع لأحلامه أن تواتيه بأطياف الأمانىّ الحسان ! ...

فإذا بك قد استشعرت روح ذلك الرجل العظيم تطيف بك ، وأنفاسه تسبح من حولك ...

استرعى نظرى بين مخلّفات ذلك البيت مفتاح طريف ...

كان هذا المفتاح لسجن « الباستيل » ، فلما ذهبت الثورة الفرنسية بذلك السجن ، أهدى مفتاحه إلى « واشنجتن » . . .

راى الفرنسيون فى ذلك الرجل العظيم رمزاً لكسر قيود الاستعباد ، ورفع لواء الحرّية ، فلم يجدوا لتحيته أثمن من مفتاح « الباستيل » يهدونه إليه ، فإن ذلك المفتاح ليس إلا رمزاً لقيد من قيود الاستعباد كُسِر ، وعلم من أعلام الحرّية رُفع !

زايلنا البيتَ ، نخطو على بِساطٍ من زُمرّد ، جَلَّلتْهُ الطبيعة مترامِيَ الأطرافِ على أديمِ الأرض ، حتى أدّى بنا إلى المقبرة .

لا صَرحَ ولا قُبةَ ، لا زينةَ ولا زخرُف ، ولكنه مبنىً صغيرٌ ذو بابٍ حديدىٍّ يتراءَى خلفَه تابوتان من الرخامِ الأبيض ، هما « لواشنجتون » وزوجِه ...

مكانٌ ظليلٌ تغشاهُ رَهْبةٌ وصَمت ، إذا دنا منه الروّاد خفّفوا الوَطْء ، وخفّضوا الصوت ، وحنَوا الهامَ !

إنهم ليقِفون لحظات خشّعاً حِيال ذلك الجدَثِ الذى حوَى أثمنَ حقيقة فى حياةِ الوطنِ الأمريكىّ ، وأروعَ معنىً من معانى المُثُل العالية .

هاهو ذا معبدٌ إنسانىٌّ تُقدَّسُ فيه رموزٌ وأهدافٌ ، وإنّ هذا المعبدَ لتتوافدُ عليه أفواج وأفواجٌ تُحيِّى ذِكرَى رجل ما كاد يفرُغُ من أداءِ واجبِه ، و بلوغ أمنيّتِه فى تحرير وطنِه ، وتوطِيد أركانِ الحُكمِ الجديد ، حتى آثر العزْلةَ فى مَسْكَنِه المتواضِع وسْطَ مَزْرعتِه القديمة ، يحيا كما يحيا الفردُ من عامّة الناسِ ، فأبَى أن يستمتِع بأبّهةِ السلطان وسَطْوةِ الحكم ، هرَباً من عظمةٍ تحيطُ به من كلّ جانب !

على أنّ العظمةَ ظلّتْ تلاحقُه وتحاصرُه ، حتى اتخذت من اسمِه عنوانَ الدولة ، وجعلتْ من قبرِه مزاراً تقديس !

إنّ الإنسانَ فى كل زمانٍ ومكان يلتمسُ نوراً يُضىء له ليلَ الحياة الطامس ، وأملاً يُعينُه على وُعورة الطريقِ ومشقّةِ الجهاد . فلا يكادُ يلمحُ زعامةً تتألّقُ ، حتى يتهافتَ عليها ، ويهتِفَ بها ، ويرفعها منارَ هداية وكعبةَ آمالِ . إليها يقصِدُ ، وفى ضوئها يتابِعُ السُّرى !

ما أحوجَ الإنسان دائماً إلى مثل تلك الكعبةِ وذلكِ النور . إنه حين يُعوزُه أن يعثرَ عليهما بين الناس ، ينساقُ بباعِث من عجزِه وتخاذلِه ، متخذاً من الجماد أو الحيوان رموزاً يتوسم فيها العونَ والرّعايةَ ، ويتلمسُ منها سلسبيلَ الطمأنينة واليقين !

أتاحتْ لنا « واشنجتن » لِقاءَ أصدقاء وأحبابٍ من بنى الوطنِ . ولا غرْوَ أن تكونَ السفارةُ المصرية هنالِك ملتقىَ أولئك الأصدقاءِ والأحباب !

ما أجلّ مقامَ السفاراتِ الأجنبية فى العاصمةِ الخضراء !

إنها لتحظى بأكبر نصيب من الرعايةِ والإعزاز ، وإنها

لتحتل حيّاً خاصّاً بها تتجمّع فيه كأنها تلتمس من تلاقيها تبادُل المؤازرة والعون .

وإنك حين تجوز بحيّ السفارات تمرّ بدورها واحدةً بعد الأخرى لتحسبُ نفسك سائحاً تجوب الأقطار والممالك مجتازاً حدودها في لحظات !

في تلك الرقعة التي هي روحٌ وريحان ، وظلالٌ وأفنان ، يقوم مبنى السفارة المصرية رشيقاً ذا طبقتين ، عليه رونق الجدة .

هو مغنىً أمريكيّ الطراز نظاماً وتنسيقاً في سذاجة ، ولكنه على الرغم من ذلك قطعةٌ من « مصر » .. « مصر » المتأمركة !

إن الروح الأمريكية تطوي تحت جناحها نزلاء العالم الجديد من بني الوطن ... فالحياة هنالك تضطر المصريّ إلى أن يسايرها ، ويذعن لمظاهرها ، وإلا شعر بوطأة الوحشة وقسوة الاغتراب !

اشتدت في « أمريكا » أزمة الخدم ، فلم تجد الأسرة المصرية هنالك بدّاً من أن تضطلع بمرافق المنزل ، فألفينا المرأة المصرية قد نشطت من عقالها ، وغدت أمريكيةً تتولى شئون الأسرة داخل البيت وخارجه فهي في المطبخ طاهيةٌ ، وفي السوق شاريةٌ ، ولأولادها حاضنةٌ ومربّية ، وهي في السيارة

سواقةً ماهرة ، وهى فيما يبقى من وقت فراغها متنقلةً بين المجالس والنوادى ، تقوم بقسطها من المشاركة فى المجتمع الأنيق !

لقد خلعت المصرية عن كتفيها فى بلادِ « العم سام » مطارف التدللِ والرخاوةِ ، واقتحمت ميدانَ العملِ تناضلُ فى معركةٍ وقودها الأعصابُ !

خرجت « شهر زادُ » من خدرها المعطر ، خدرِ الأخيلة والأحلامِ ، ورمت بجسمها فى لجةِ الحقيقة والواقع .

على أنّ المصرىّ فى « أمريكا » سريعُ الاندماجِ والتأقلمِ ، يُعينُه على ذلك خلقُه الطيعُ ، وشمائله المرنةُ ...

وإنه لمن الطريفِ حقاً أنّ طاهياً مصريا لعظيم مصرىّ يتقاضى اليوم هنالك ثلاثين جنيهاً فى الشهر ، وقد اتخذ لنفسه سيارةً خاصة يتولى قيادتها ...

فإذا دخل المطهى لم يلبث أن يستحضرَ مصريتَه ، ويُعِدّ صحافَ « الشركسية » و « بلح الشام » لِتزيّن ما يُقيمه ذلك العظيمُ لضيوفِه الأجانب من المآدب .

عُدنا إلى « نيويورك » نذكرُ ما لقينا من حفاوةِ أبناء الوطن فى تلك المدينةِ الخضراءِ التى أنستنا أننا فى بلادِ المادةِ الجافةِ ، والآلةِ الصماء !

٢٦ يوليه

آن أن نفكر فى الرحيل.

فلما مضينا نلتمس وسيلة الانتقال إلى «أوربا» علمنا أن الأماكن فى البواخر وفى الطائرات محجوزة كلها إلى ثلاثة أشهر.

لامناص لنا إذن من البقاء ثلاثة أشهر اخر فى بلاد «العم سام»! ثلاثة أشهر نقضيها، لامهمة لنا ولا عمل إلا محض الانتظار. ذلك حكم قضت به علينا شركات البواخر والطوائر.

ولكن أليس لهذا الحكم من استئناف؟

علمتنا المدرسة، ونحن نتلقى علم الهندسة، أن أقرب بعد بين نقطتين هو الخط المستقيم، وها نحن أولاء نريد تطبيق تلك البديهة الهندسية فيما نريد من الانتقال، فنتخذ الطريق المستقيم الرسمى فى طلب التذكرات... فإذا أقرب مسافة بيننا وبين ما نريد هو ثلاثة أشهر طوال عراض!

وهالنا ما أزقنا الحرج، فخرجنا على تلك البديهة الهندسية، نطلب ملتويات الطرق، لعلها أقرب بعداً، وأيسر جهداً.

دخلنا سوق الشفاعات والوساطات، فخرجنا بصفقة

الرابع . وتوارتْ عن أذهانِنا تلك البديهةُ الهندسيّةُ ، كأنما تلوذُ بالفِرارِ من خَجَلٍ وخِزْى!

إنى لأخشَى أن تذهبَ دنيا اليوم بما قدَّسْناه من حقائق ، وما هَفَوْنا إليه من أمْثِلَةِ الأخلاق !

إننا على وَشْك السفرِ خلالَ أيامٍ معدودات ، فلنكن على أُهْبة ، حتى يبلغنا الموعدُ القريب .

وبعد أيامٍ تلقّينا نبأ من الشفيعِ الأعظمِ بأنّ الطائرةَ ستُقلّنا بعد أيامٍ ثلاثة . . . فأمضيْنا هذه الأيامَ نطُوف فى « نيويورك » طوْفات عابرةً ، هى تحياتُ وداع :

وَداعٍ للمطاعِم، للمتنزهات، للملاهى، للطبيبِ : نتزوّدُ منه بتلك الابتسامة الخاطفةِ التى كانت كلّ مافى جَعبتِه حين قدِمْنا عليه من تحية واحتفاءٍ ، وهى اليومَ كل مافى جَعبته من نصحٍ وإرشاد!

وأخيراً ، وداع لذلك الصديقِ الكريمِ ، « الشارعِ الخامس » الذى صحِبْنا أربعةَ أشهرٍ ، لم نَلْقَ منه إلا صدراً رَحْباً ، ومَعِيناً عَذْباً ، يَفِيضُ بالمباهِج والمسرّات .

وفى صُبْحِ يومِ السفرِ أطْلَلْتُ من نافذة حجرتى ، أتطلع إلى منظرٍ أَلِفْتُه حتى مَلِلْتُه ... أبنيةٌ سوامِقُ ، وطريقٌ صادرٌ وارد ، ومُتَنزَّهٌ فى أقصاهُ صغير .

وقفتُ أرنو إلى ذلك المنظرِ المألوف لى ، فإذا به فى هذه اللحظة ينزعُ عنه تفاهته وابتذاله .

إنه ليبدو لى كأنما يتجلى لناظرى أوّلَ مرة .

مفاتنُ جديدةٌ ، تتوضّحُ لى ، لم أعهدْها من قبل .

لكأنّ الشارعَ كانَ يسترُ عنى جوانبَ منه ضنَّ بها علىّ ، ولكأنه كانَ يدّخرُها لهذا اليوم ، بل لهذه اللحظات ، حتى أفارقَه بشوقٍ جديد ، وشغفٍ مزيد .

أربعةُ أشهرٍ ترادفتْ ، وعينى تتردّدُ فى هذا المنظرِ ، دونَ أنْ آبه له ...

واليومَ ، وأنا على وشكِ فراقِه ، أرانى مُتشبثاً به ، رانياً إليه ، أتملّى محاسنَه ومفاتنَه ، كأنى اريدُ أن يحتويَه صدرى ، لا يُفلِتُ منه شىء ...

ياالقلبِ الإنسان !

إنه يظلّ غافلا عن قيمةِ الشىء ، لا يفطنُ إليها إلا حينَ يتركُها أو تتركه .

إنه لا يكتشفُ الكنزَ إلا حين يُضيعُه .

أنتَ إذا ملكتَ شيئاً أهملتَه ، فكأنك تقول : فيمَ الاهتمامُ

والتعجُّلُ ، وهو طوعُ يمينى ، وبين يدىَّ من وقتى فُسحةٌ للتمتع به ، فتنطوى الأيامُ بعد الأيام ، وأنت عن شيئِك غافل ، حتى إذا أحسستَ أنك مُوشكٌ أن تفقدَه ، تواثبتْ قُواكَ من تلقاء نفسِها تتشبثُ به ، وقد احتد شغفُها ، واشتدَّ كلَفُها ... وتستبينُ لعينَيْك مزايا يُدْهشُك أنك لم تحسِنْ الانتفاع بها قبلُ .

وأقوى ما تكونُ هذه المزايا توَضحاً لناظرِك ، حين لا يستطيع الوقتُ أن يُسعِفك بفترةٍ استمتاعٍ وانتفاع . فلا تملكُ إلا أن تدعَ ذلك الشيء وقد أتبعْتَه من قَرارة نفسكَ حسَرات تلْوَ حسرات !

ظلَّتْ هذه الخواطرُ تعتلِجُ فى رأسى ، فكبر على نفسى أن يكونَ بها كلُّ هذا التشوقِ والتعلق بذلك المنظرِ ، فرُحتُ أُسائل القلبَ :

تُرَى ماذا يكونُ منى إن تلقَّيتِ الآن نبأ بتأجيلِ موعِدِ السفر أربعةَ أشهر ؟

تُرى هل أتخذُ فى مسلكى نحوَ هذا المنظرِ شأناً غيرَ ما كان من شأنى معه فى أربعةِ الأشهُرِ الماضية ؟

أم يتكرَّرُ ما كان منى قبلُ ، فأغفُل عنه ، ولا أكترِثُ له ، حتى تحينَ ساعةُ الوَداعِ ؟!

وكبنا السيارةَ ، قاصدين مطارَ «لاَجواردِيا» .

ما أشبهَ الليلةَ بالبارِحة !

الطريقُ هو الطريقُ ، والمشاهِد هى المشاهد ، ولكن شتّانَ بين شعورين : شُعور القُدومِ ، وشعور الرحيل !

دخلنا المطار ، وانتظرْنا فى البَهوِ الدائر يزخَرُ بالناس ، بين رائحٍ وغادٍ ، وبين جالسٍ إلى أمتعته ، ومقْبلٍ على الميزانِ يستوفى إجراءاته .

ورحت أتطلعُ إلى تلك الرسومِ العظيمة تزيّنُ جدارَ المطار ... رسوم تسجّلُ مراحلَ الطيرانِ فى مختلفِ عهودِهِ .

ولبثنا ننتظِر ، وامتد بنا الوقتُ ، ولكن ما حيلتُنا ، والجيش عليه أن يظلّ فى الانتظار ، وأن يكون متأهّباً مرهَفَ السمعِ ، يرتقِبُ صوت النفير ..

وحانت ساعةُ الفرج .

سمعْنا مضخّم الصوتِ يقول :

القاصِدون «باريسَ» يتقدّمون .

فتجمع الشمْلُ ، وانتظَمَ الصفّ . وخرجنا إلى ذلك الممشى المظلّل ، كأنه عريشُ بستان .

وما كِدْنا نبلُغ أقصاه ، حتى لاحَ لنا « شمروخ » . . .

وقفتُ أتأمّله لحظةً . . .

أنتَ و « أبو الهول » صِنْوان . . . يحمِلُ كل منكما اسماً من « مِصْر » . . . ففيكُما نفحةٌ من الوطنِ . . كِلاكما في وقفتِه المتطلّعةِ شامخٌ مَهيبٌ ، وكِلاكما في مظهره الجميل سمْحُ المحيّا ، مفترُّ الثّغرِ . . إنه لفَألٌ طيب ، فعلى بركةِ الله !

احتوانا صدرُ « شمروخ » والوقتُ ظُهر .

إنه كأخيه « أبي الهوْل » في وثارةِ مقاعدِه ، ونظامِ طاقاته ، وسائرِ شياتِه . . . لَوْحُ النور هُوَ هو ، يُوصِي بشدِّ النطاقِ ، ويحظُرُ التدخين . وهذا الفتى الأمريكيُّ وزميلتُه السمْحةُ في لَبوسِهما الرمادِيّ الرسميّ المهندَمِ ، كأنهما طيْفانِ من « هوليود » .

وأُقفِلَ البابُ ، ذلك الفاصِلُ بين عالَمِ الأرض والسماء . . . بل إنه لَفاصِلٌ يقرِّر مصايرَ الرّكْب ، فكأنّ بصريرِه إذْ يُوصَدُ يقول :

ثمّةَ حقْبةٌ متميزة من حياتِنا قد خُتِمتْ بخيرها وشرِّها ، وصارت ماضياً مطويّاً ، وها هي ذي حِقبةٌ جديدة تبدأ ، ما برحتْ مجهولة لنا ، وإن كانت مسطورةً في لوْح القَدَرِ المُغيَّب .

ورُحتُ أتأمَّل تلك الفترةَ التي مضتْ من حياتي في ذلك العالَمِ الجديد ... وطافت بالرأس أفكار !

يقولونَ : إنَّ الحياةَ ماضٍ وحاضرٌ ومستقبل، ولكنْ في هذا الرأيِ كثيرٌ من إلقاءِ الكلامِ على عواهِنِه، دون دقة وتمحيص.

ليتَ شِعري أيّ شيء هو الحاضرُ ؟ أين هو ؟

ما الحاضرُ إلا وَهْمٌ مُصور. لو حاوَلْتَ قَبْضَه لما تحصلَ في يدِكَ منه شيء.

إنه ليَمُرّ بك خطفًا، وينزلق عنك انزلاقَ الزئبق الرَّجْراجِ ... فليس في مَقدورِك أن تدَّعِيَ الاستمتاعَ بشيء منه، إلا أنْ توُهِمَ نفسَك إيهاماً.

إن خَفْقةَ القلب، وفيها معنى الوجود وسرّ الحياة، لا تكاد تبدأُ حتى يبتلِعها الماضي من فورِه. فكأنها قذيفةٌ منطلِقةٌ يُغيّبُها ذلك الفضاءُ العريضُ، وإن الكلمة وهي ترجمانُ النفس وتعبيرُ الشعور، لا تكادُ تنفرِجُ عنها الشفتانُ حتى يتلقفها الماضي، فيدوّنها في سجلِّه العتيد.

ذلك الماضي تِنّينٌ هائلٌ يفغرُ لك أفواهه يَمْنةً ويَسرة، وتُحدِقُ بك مخالبُه من كل جهة، مُرْتصِداً يقظان لكل إشارة

أو عبارة ، ولكل حركة أو حِس ، منهوماً صد بأن لا يشبع بها يطعم ، ولا يَرْوَى مهما يعُب !

إنه لا يفتأ يقتطِعك ويعتصِرك حتى يحين وقت تفنى في جوفِه ، فتصبِح نسيجاً في جسمِه ، ونقطة من دمِه ... تصبح صفحة من الماضي !

وليت شعري أي شيء هو المستقبل ؟ أين هو ؟

سديم غامِض ، مهما تُنفِذ فيه بصرك ، لم يستبِن لك فيه قليل أو كثير .

ما برِح هذا السديمُ في طورِ التكوين ، لم يتخلَّق ، فهو في ذمة أقدارٍ محجَّبةٍ تصوغه وَفقَ هواها ...

ليس المستقبلُ إذن إلا خيالا غامضاً ، جوهرُه الظنون !

الحياةُ ماض وحدَه .

إنه الحقيقةُ الثابتةُ منقوشةً في سجلِّك الصخري لا تَبلى.

في مستطاعِك أن تتحدثَ في هذه الحقيقة حديثَ خبرة وعِلْم ، وتصفَها وصفَ رُؤْية وتمعُّن ، لا تملكُ أن تمحوَ منها مثقالَ ذرة ، وإنْ بذلتَ في ذلك غايةَ الجُهد.

ليس لك أن تستمتعَ بشيء سوى الماضي ...

ليس الإنسانُ فى الحق إلا حشدَ ذكرياتٍ وذكريات ا

ظلَّ « شمروخ » يطيرُ ، وأنا مستغرقٌ فى تأمّلى ، تطوحُ بِىَ الخواطرُ فى شتى الآفاقِ ، وقد ألقِى النظرةَ بعدَ النظرة من الطاقِ ، أشهدُ قِطعَ السحابِ تسبحُ فى السماء ، تارةً تلتحم وتربدّ منذرةً بوابلٍ هتّانٍ ، وطوراً تنقشِعُ لِتأذنَ للشمسِ أن تبعثَ ابتسامتَها تُحيّينا وتُبثّ فى نفوسِنا الطمأنينةَ والرضا .

وفى الساعة الخامسة مساء ، هبطْنا مطارَ « جندار » ، وظهرت السيارة الحافلةُ ، فامتطيناها تجُوس بنا دروبَ تلك القريةِ الكئيبةِ المنعزلةِ ، هذه المستعمرةِ الجويّة التى اتُخِذت محطًّا لرِحالِ الطائراتِ ، ومثابةَ استجمامٍ .

وزادَ هذه القريةَ وحشةً وكآبةً أنّ السماء كانت غائمةً تُوالِى رَذاذها .

وبلغتْ بنا السيارةُ مقصفَ المطار ، ذلك المبنى الذى يماثلُ بيتَ فلاحٍ ثرىٍّ من سادة الريف .

وبعد أن طعِمْنا تناهى إلينا أننا فى المطارِ نبيتُ . ولكن علينا أن نكونَ على تمامِ أهْبةِ الرحيل ، فقد يباغتنا أمرٌ بالمضىّ إلى ركوبِ الطائرة .

وأقلتنا السيارةُ الحافِلة إلى ما يسمّونه هنالك الفندق، وما هو إلا ثُكنة وحق السماء، لا تجنّيَ ولا مغالاةَ!

فى ذلك المكانِ حيينا حياةَ الجندىّ فى شتى مظاهرِها...

حُجَر بلَغ بها التواضعُ حدَّ الشظَف، وأسِرَّة عِجاف لا يسترُها إلا ما تمسّ إليه الحاجةُ من فُرُشٍ ساذَجة، وضِجعةُ ارتقاب وتوفّز، نتوهّمُ فى الفينَةِ بعد الفينة أننا مُزْعجون بطلب الرحيل!

صحوتُ فى الخامسةِ صباحا، كأنما عزَّ على نفسى أن يوقظها آمرٌ مسيطرٌ... فاستيقظتْ هى تمثّلا بقول القائل:

«بيدِى لا بيَدِ عمرٍو»!

لا جديد فى شأنِ الرحيل.

الجوّ عابسٌ، وبين السماء والأرضِ بريدٌ لا ينقطِعُ من رَذاذ، فكأنه يحمِلُ إلينا رسالةَ الانتظار!

عدنا إلى مبنى المقصَفِ، لا عملَ لنا إلا أن نطعَمَ ونستريحَ وننتظر..

من أُسس الرحلةِ الجوّية أن ننتظر، وأن نَروضُ أنفسَنا دائماً على هذا الانتظار.

أمضيتُ الوقت على تلك المقاعدِ الوثيرة، أنقّلُ بصرى

فى الحاضرين ، وما فتىء الرذاذ ينقر زجاج النوافذ

لكأننا نحن طلاب «شمروخ» فى جزيرة موحشة ، قذفنا حطام سفينة محطمة إلى الشاطىء ، فبقينا نرتقب النجدة .

وكنت كلما برمت بالانتظار مضيت أسائل ضباط المطار ، ومن إليهم من الأعوان ، ولكن لا جديد !

ليس فى جعاب المسئولين من الجواب إلا ابتسامة غامضة ، وإيماءة خاطفة ...

وأخذ الصحب يتجمعون للعب بالورق ، وانعقدت سحائب اللفائف ، وطالعتنا الكئوس والأقداح ، تغدو ملأى وتروح فارغة ...

إنى لأغبط هؤلاء اللاعبين ، فلقد اندمجوا فيما بين أيديهم ، فأنساهم كل شيء : نظراتهم مشرعة إلى الورق ، كلماتهم عاجلة يتطارحونها تارة فى ضحك وتارة فى عبوس ، حركاتهم آلية وهم يوزعون الورق فى مهارة كمهارة الحواة والمهرجين .

إنى لأحسبهم قد سحروا صوراً كتلك الصور الأنيقة الملونة التى تحلى ورق اللعب ، صور الملوك عليهم تيجان مذهبة ، والصبايا تزدان بالزهر الناضر ...

ضجرتُ هؤلاء اللاعبين فى موقف جِد، فنهضتُ أتلفتُ حولى ، لأشغلَ نفسى بشىء ، فألفيتُ نثاراً من المجلات ، فأقبلتُ أقرأ ...

ثمةَ مقالٌ تلوح طرافتُه، قصةُ صحفى أمريكى، يصفُ ما شهد فى زَوْرةٍ لإحدى المناطق الألمانيةِ الخاضعةِ للاحتلال الروسى.

إنّ الصحفىّ ليطنبُ فى الإشادةِ بما يلقى به الروسىّ ضيفه من كرم وحفاوة...

إنه لكرم يذكّرُنا سماحةَ العربىّ فى كُتُبِ الأولين.

أولئك الروسيونَ يُقيمون مأدُبةً لذلك الصحفىّ الأمريكى ومَن معه فى التاسعةِ صباحاً ، مأدُبةً تزخرُ باللحوم والألبان والأشربة. فلما أكلوا حتى أُتخِمُوا أخبرهُم مُضيفُهم القائدُ الروسىّ أن ليس هـذا إلا تصبيحةً وعُجالةً ، فأما الفطورُ التام فهو فى الحاديةَ عشرة ... فى الحاديةَ عشرة !

أمامكِ ساعتان أيتُها المعدةُ ، لكى تهضمى ما أُلقىَ إليك من لحم ولبن وخمر ، وتُشمرى لِما تفجؤُكِ به المائدةُ الجديدة بعدُ.

لقد مضى اليومُ سلسلةً من المآدبِ موصولةَ الحلقاتِ. وكان مِسْكُ الختامِ عشاءً حافِلاً فى الساعة الأولى بعد منتصفِ الليل !

أما ألوانُ الطعامِ فكثيرةٌ ، لا ينتهى لصحافها عرَض .

وكانت معاركُ الطعامِ تدورُ على نغماتِ الموسيقى ، ومطايبات الأحاديث .

« أوربا » اليوم بين منتصرٍ ومنهزم ... أما المنتصرُ فيقضى يومَه يفكرُ متى يهضِمُ ما أكلَ ليستزيدَ ؟ ! وأما المنهزِمُ فيقضى يومَه يفكر متى يتبلّغُ بشىء يُسكِتُ به سُعارَ الجوعِ ؟ !

حقّا إنّ « أوربا » اليومَ مجالٌ لمجاعةٍ شاملةٍ ، وإنّ هذه المجاعة لتتمثّلُ فى نهمِ المنتصرِ ، كما تتمثلُ فى حِرمانِ المهزوم ... !

كان طريفاً أن يَجرىَ الصحفىّ الأمريكىّ على أُسلوبِ الأرقامِ والإحصاء فى التعقيبِ على تلك الضيافة .. وقد خرَج من الحسابِ بأنه أنفقَ خمسينَ فى المِائة من يومِه آكِلاً ، وثلاثين فى المائة نائماً ، وخمسةَ عشرَ فى المِائة متنقلاً ، وخمسةً فى المائة مُقبلاً على مُهمته المجيدة التى رحل من أجْلها فى همةٍ ونشاطٍ !

وأنبهنى مضخّمُ الصوت يقول :

رُكابُ « شمروخ » يستعدّون للسفر .

فالقيتُ بنظرةٍ على الساعة فى معصمى ، فإذا بها قُبيل السابعةِ مساء .

غَيَّبنا جوفُ «شمروخ»، واعتلى بنا صهوةَ الرياح يستقبلُ المحيطَ، ويتأهبُ لاجتيازه قُدُماً لا ريثَ ولا هدوءَ، وكان الضبابُ ما برحَ مركوماً، والرذاذُ يداعبُ زجاجَ الطاقات، ولكن «شمروخ» مضى يَشُقُّ ذلك الحِجابَ الثقيلَ المعتِمَ، ويسمو إلى آفاقِ الصفاء والنور.

وإذا بنا نلمحُ تحتَنا بساطاً ناصعَ البياض، كأنه غواربُ موجٍ، أو بطاحٌ مترامِيةٌ من جليد لا يُدرِكُ نهايتها الطَّرْفُ، وعلى حواشي السماء يزهو وشيٌ أُرجُوانيٌّ من صِبغةِ الشمس في ابُوسِ المغيب ...

كان «شمروخ» رشيقاً في طيرانه، فلبثْنا نعبُرالمحيطَ في سكينة وأمان، وتراخت الأعصابُ بعدَ توتر، فتهالكْتُ على ذلك المقعدِ الطيِّع، وقد أردْتُه أن يكونَ مِهاداً، فكانَ.

وجذبتُ الدِّثارَ على ركبتيّ، وأسلمتُ للنومِ جفنيّ .. وسُرعانَ ما استجابَ لِيَ السُّبات.

وفي منتصفِ الخامسة صباحاً، صحوت من نومي، فألفيْتُ الطائرة على مقربةٍ من مطارِ «شانون»، مُوشكةً على التصويب.

كان أوّل صنيعٍ لنا في مطارِ «شانون»، أن نصلحَ من

ساعاتنا ، فتقدَّمْنا بها نحواً من ثلاثِ ساعات!

أنت فى رحلاتِ الجوِّ كما تدينُ تُدان ...

هذه ساعاتٌ من حياتِنا نخسَرُها اليومَ ، وما هى إلا تلك الساعاتُ التى استزدْناها يومَ ذهابِنا إلى العالمِ الجديد.

قضيْنا ساعةً فى المطار ، تناولْنا فيها طعامَ الإفطار ، وعُدْنا إلى الطائرةِ نستأنِف الارتحالَ إلى « باريس » ...

وما هى إلا ثلاثُ ساعات حتى كنا فى مطارِ عاصمة الفرنسيِّين.

ها نحنُ أُولاءِ نثوبُ إليكِ يا « باريسُ » ، بعد غيبةِ أربعة أشهر ... فكيف أنت؟ وما حالُك الآن؟

لن تكونى إلا محطةَ استبدالِ مطيَّةٍ بمَطِيَّة ، فنصيبُك منا نظَراتُ المتعجِّلين ، ومرور الكرامِ!

٥ أغسطس

اليومَ يوم الرحيل عن « باريس »...

كنا نحسبُ أننا سنقضى فيها يوماً أو بعضَ يوم ، فإذا بها تأسرنا عشرةَ أيامٍ ثقال ...

إنى لأسائلُ نفسى الساعةَ :

كيف قضيتُ تلك الأيام ؟

لقد كانت مَثارَ إرهاقٍ وإجهاد ، لم نَطْعَم فيها الراحةَ إلا غِراراً . . .

جوٌّ أحمق ، كأنَّ به جِنَّةً ، لا قرارَ له على حال ، فمرّةً هو قَيظٌ متلهّب ، وحِيناً هو أهْوِيةٌ وأمطار .

وهذا الكدّ بين مكاتب العُملة وشركات الأسفار :

أعصابٌ متوتِّرة ، ونفس ثائرةٌ ، وحَيرة فى مَوعدِ الرّحلة ووسيلةِ الانتقال . . . هل نُسافرُ بالقطار ، أو بالطائرة ، أو بالسيارةِ ، أو مشياً على الأقدام ؟

يعلمُ الله !

فى تلك الأيامِ المضطربة التى عِشْناها ، كان لِزاماً علينا

أن نصطنع الحذر الشديد ، والتحيُّل الدائب .

وقد يغدو المرء على الرغم منه مُحتالاً كذوباً ، فأوضاعُ الحياة ثمَّة لا تعينُ على حق وصِدْق وتصريحٍ !

إن القيمَ الأخلاقيّة لتبدو لنا الآنَ غريبة الوجهِ ، لا تلائمُ مُلابسات العيش ، وسُوقَ الحياة !

هذه القيم تلينُ وتتلوّى إزاءَ ما تقتضيه الحالُ الراهنة في ذلك العهدِ العجيب .. لا طالَ عَهْده !

تبدو لنا « باريسُ » بعد أربعة أشهرُ ، كما هى « باريس » التى مررْنا بها مِن قبلُ ، إلاّ فيما ندَر منَ الظواهر ..

ولعلّ مؤتمر السّلام الذى اختارَ مقرَّهُ فى « باريس » قد أعانَ على أن تظهرَ المدينةُ على نحو لا يخلو من بَهاء .

فلقد تكاثرت سياراتُ الأجرةِ ، وعمرتْ الأنديةُ بالأجانب من أعضاء المؤتمرَ ومن إليهم من أعوان وصحفيين وزُوّار ، فكنْتَ تلمح فى « باريسْ » أطيافاً من رُوائها فى ماضيها البعيدِ .

ورُبما كان أوضحَ معالم « باريس » سُوقُها السوداء ، ولكنها اسمٌ على غيرِ مُسمّى ، فقد احتلت كلَّ مرافق الحياة ، وأصبحتْ هى السوقَ الحرّة التى لا مناص منها لمن يشترى ويبيعُ !

هذه السوقُ السوداء تتغلغلُ في كل شيء، وتنشبُ أظفارَها في كل مكان، حتى إنها لتتسلل إلى مؤتمر السلام ! ...

في المجالسِ الرسمية سوقٌ بيضاء، تُتناقلُ فيها الخطبُ والمشاورَاتُ، وتُتداولُ الآراء، ولكن بخُطاً بطيئةٍ، لا تبلغ غايةً، ولا تصيبُ هدفاً ... فالبضاعة في تلك المجالس الرسمية قليلةٌ تافهة، والعملة نادرةٌ. ولكنّ خلْف هذه السُّوق الحرّة الجامدة سُوقاً سوداءَ رائجة البضاعةِ متوافرَة العملةِ : تُعقد فيها الصفقاتُ الكبيرةُ من الاتفاقات والمحالفات والخططِ والمكايد، على حسابِ الشعوب التي أُلقيَتْ إليها كئُوسٌ من خمرِ المبادىء الرفيعةِ، والمُثلِ الإنسانيّة : تظل بها لاهيةً ساهية !

ويوماً وقع بصرُنا على صديقنا الحوذيّ المخمُورِ، وهو على عرشه المتزلزِل، وارِم الأنفِ، فسألناه جوْلةً في «غابة بولونيا».

إنه هُوَ هو : في دكتاتوريته الحمقاء، يفرضُ الأجرةَ كما يشاء. وراحتْ المركبةُ تكَرْكِرُ بنا في الطريق ...

لم يَنَلْ منجلُ الحربِ من «غابة بولونيا» إلا قليلا قليلا، ولكن شتّانَ بين الغابة أمس والغابةِ اليوم.

كأنّي بها طريحةُ المرضِ، مجهودةُ الأنفاس : يَعُودُها الناس

جوعاً وفُرَادَى ، فإنّ نظرةً واحدة إلى وجوهِهم وسِماتِهم وهيئاتهم لتوحى إلينا بما يكابدُونه من إقفار وإجداب وعبوس.

إنه حقًّا لعِراك عنيف ، ذلك الذى يَعتلِجُ اليومَ فى صدورِ أهلِ « باريسَ ».

إنها لحربٌ أخرى أشدّ من الحرب الماضيةِ هولا ، تَشنها « فرنسا » على البؤس والفاقة والهزيمة ...

ثمّةَ ابتساماتٌ تتخايَلُ على الوُجوه ، ولكنها ابتسامات مجتلَبةٌ مزوَّرةُ ، تشِفّ عن همومٍ وحسرات !

بدأ صديقنا الحوذىّ المخمور يتحدّث ويسترسِلُ فى الحديث ، كأنه يُناجى نفسَه ، وكنا على مقاعِدنا وراءه نُصغِى .

كان يشكو ويتذمر ، ويلتحِلُ المعاذير من دكتاتوريته فى المُغالاةِ فى الأجور ، وكأنما يأخذُ علينا استكثارنا لما فَرَض من أجرٍ ، على حين أننا لم نساوِمْه فى شىء ، ولم نُبْدِ أقلّ اعتراض .

إنه ليدافعُ عن نفسِه ، معاتِباً مرة ، مغلظاً فى القول مرة أخرى ...

إنّ روحَ التمردِ تشيعُ فى نفسه ، ولكنْ على أىّ شىء يتمرّد ؟

أمِنْ أجلنا ، وقد أذعَنّا لمطالبه ؟

إنه ليتسخطُ على الزمن ، على ذلك الغلاء المتمادِى ...

يشكو الاضطرابَ الذى تفشّى مرافقَ البلاد ، منذ أدركها عهد التحرّر من احتلال الألمان ، ودخلتْ فى ذلك العهد الجديد .

ليتَ شعرى ، ماذا يُريدُ أن يقول ذلك المأفونُ ؟

وأيّة فكرةٍ يرمى إليها ؟

لقد استرسَلَ فى الكلام مُشتَطا محتد اللهجة ...

إنه لقولٌ جرىءٌ وايْمُ الله !

حسبَ ذلك المأفونُ أنّ عهدَ التحرّر من رِبْقَةَ الألمان ، راجِع إليه بفيْضٍ من الخير غزير ، فروّعه ألاّ يتحققّ له من ذلك شىء ...

إنه لا يتورّعُ عن أنْ يترحّمَ على ذلك العهد السابقِ البغيض .

كان فى ذلك العهدِ يملأ كَرِشَه ، و يحصُلُ على النبيذِ بثمنٍ حاضر ، فيطعَمُ هنيئاً ، ويشربُ مريئاً .

بهذا القولِ كان يثرثرُ ، والعهدةُ عليه ، أخزاهُ الله !

لقد كانت مركَبَةُ الأجرة هى الوسيلةَ الأولى للانتقال فى « باريسَ » عصرَ الاحتلالِ ، وكان سائقُها « سيدَ الموقف » غيرَ منازَع !

لم يكن أمامه منافسٌ فى الميدان ؛ فراحَ يصولُ ويجول ، وقد خلا له الجوّ . فكيف لا يتغنى بمغانمِ تلك الأيامِ ؟ وكيف لا يُتبِعُها واسِعَ الرحَمات ؟

لم يكن الحوذىُّ نفسُه هو الذى يتكلم ويتألم ويتندّمُ ، وإنما كان بطنُه الخاوى هو الذى يَعوى ...

انسرحت أفكّر فيما يقول الرجلُ ...

أهكذا تذوبُ الوطنيّةُ فى أتون الأحشاء المتوقّد ؟

أهكذا تتحللُ المُثُل العالية فى قِدْر الجوع هذا التحلُّل الزّرِى ؟

ليس البَشرُ جميعاً قِدّيسين وأصحابَ مُثل رفيعة ، فإنّ الدنيا تموج بتلك الحشراتِ التى تعيشُ لتاكلَ ، حتى تنبعجَ البُطون !

ومهما يكن من أمرٍ ، ففى حديثِ هذا الرجل معنًى يجب ألاّ يكونَ نصيبه منا الغفْلةُ أو الإغفال .

ليس لنا أن نزدَرِىَ فلسفةَ البُطون .

إن اللقمة لها مكانتُها المرموقةُ فى تاريخِ البشرية .

وإنها لن تفقِدَ هذه المكانةَ على مرّ الأحقابِ والدهور .

إنى لأرى فلسفةَ البطونِ تتدسّسُ إلى كل شىء ، وإنى لأراها تدفع بالأفرادِ كما تدفع بالشعوب ...

ليس الجوعُ أو خوفُ الجوع وما يتفرّع عنه من التشهّى والنّهم والجشع إلا المحرّكَ الأوّلَ في قيادةِ الأممِ وسياسةِ الدول .

ولقد تحوّلت تلك الكلمات فى معجمِ الساسة اليومَ إلى كلمات : « المجال الحيوىّ » و « المنافذ على البحار الدافئة » و « المواقعِ الاستراتيجيّة » و « حرّية مسالك المياه » وما إليها ...!

وتفسيرُ هذه الكلماتِ الجديدةِ فى مُعجَمِ الحقائقِ المستورة هو مَعِدة طاوية خاوية تبحثُ عما يملؤها ، فإن امتلأت اشتد كلَبُها ، وتطلبت المزيدَ ، وكأنما تخشى أن يَعَضها سُعارُ الجوع من بعدُ ، فهى تتمادى فى الأكلِ ، لا فتورَ ولا وَناء !

وقد أدرك بعض عقلاء الساسةِ أثرَ البطون فى حكمِ الشعوب ، فاستبدلوا بالحكمة التليدةِ :

« جوّع كلبَك يتبعْكَ » .

تلك الحكمةَ الجديدةَ :

« أَشبع كلبَك يحبّك » .

فالحاكمُ الحصيف الذى يريد أن يسيطر وأن يتأمّر ويأمنَ الخروجَ والعصيانَ ، يتوخّى دائماً إشباعَ البطون !

فالتُّخمةُ تورثُ الكسلَ والفتورَ والتبلدَ ، وليس بعدَ امتلاء البطون إلا الجمودُ والخمود ، فيخبو الذَّكاءُ والحميَّة ، وتتعطَّل الفطنةُ والتَّحمُّس ، وتُستحبُّ الراحةُ والدَّعةُ والاستسلام !

لا طاقةَ لِبطينٍ على ثورةٍ ، ولا صيحةَ لِمُتْخمٍ وخيم …

تركنا « باريسَ » لِحُوذيِّها يُوازنُ بينَ الحرِّيَّة والرَّغيفِ !

وأقلتْنا الطائرةُ إلى « جنيف » بعــد طَيَرانِ ساعة ونصف ساعة …

رحلة كان مقدَّراً لنا أن يقطعَها بنا القطارُ في عشرِ ساعاتٍ ، ولم يكن لنا بُدٌّ من أن نُمضِيَها وقوفاً في ممرَّاتِ القطارِ ، مرهقينَ بالزِّحام بين كُوماتٍ من الأمتعةِ والأناسِيِّ ، لا نكاد نظفرُ بكسْرةٍ من خبزٍ أو جُرعةٍ من ماء !

بُورِكَ فيكِ يانسورَ الجوِّ ، مِن خلْقِ الإنسانِ …

وإن كانت عثراتُكِ لا تُقال !

١٥ أكتوبر

أىْ بُنَىّ :

إنى لأكتب إليكَ هذه الرسالة ، مزمعاً أن تكون خاتمةَ رسائلى إليكَ من بلاد الغُرْبةِ .

أكتُبُها قُبَيل اوْبَتى إلى أرضِ الوطن ، فلم يبْق على موعد الارتحالِ إلا يومٌ وبعضُ يوم .

أكتُبُها وأنا فى جلسةٍ رَخيّةٍ تجاهَ بُحَيرةِ « ليمان » فى « أوشى » أو بالأحْرَى فى « لوزانَ » تلك المدينةِ التى خَطَوْتَ أنتَ على أديمها مرةً طفلا ، وزُرْتَها مرةً أخرى وقد أيفَعْتَ ، وكان بِودّى أن تَراها وأنتَ فى مُكْتَمَلِ رجولتك .

لمدينةِ « لوزانَ » ، ولأخَوَاتِها من المواطنِ السويسرية مكانُ التقديس من قلبى ، فأنا احُجُّ إليها أستعيدُ فيها ذكرياتك ، وأبتعِثُ أطيافك ...

إنى لأدَعُ نفسى الزمنَ الأطول ، فى غفَوَاتٍ طيبة ، سَبَّاحاً فى أعماقِ الماضى ...

فى هذه الغفَوات اراكَ صبيًّا كما كنتَ واحسُّ وجودَكَ ،

واستمعُ إلى صوتكَ ، وأجدُنى آخذاً بيدِكَ البضّةِ الغضّةِ ، مجتازاً بك المسالك والطرق ، مُطوّفاً بك فى المكتبات نختارُ الكتبَ لى ولك ، ونلتقى من الرسوم وطوابعِ البريدِ الغريبة ما يَبهجكَ ، جالساً إليك فى الأنديةِ والمشاربِ ، نرتّب ما جمعنا من كتب وطوابعَ ، على حينِ اصغى إلى ثرثرةِ طفولتِك الحبيبة ، وإلى فيضِ أسئلتكِ الساذجةِ تُغدِقُها علىّ !

هنا فى كلّ ركنٍ منك أثر ، وفى كلّ مشهدٍ طيف ، وفى كلّ نسيم نفحة ...

فى ذلك الحانوتِ دخلت بك أشترى لكَ أولَ مرة حُلّةَ الرِّجال !

أمامَ هذه البحيرةِ جلسنا يوماً نتأمّلُ مفاتنَ الطبيعةِ ، فجعلت تعدُّ لى قِمَمَ الجبال وتُسمِّيها ، لا تُخطِىء منها جبلاً !

على ذلك الجسر العظيم ، تحدّثتُ إليكَ أولَ حديثٍ عن عظمة الإنسانِ فى تطلّعه إلى التحضُّر والتّعمير !

ماذا أنا الساعةَ كاتبٌ إليك ؟

إنك لتعلمُ من معالِمِ هذه المواطنِ وزواياها فوقَ ما أعلمُ ولقد كنتَ تجوبُ مع أختيكَ من دُروبِ الجبال وشِعابها ما لم تضربْ فيه قدماىَ ، وتعتلى معهما هِضاباً يتعذَّرُ علىَ مثلى

أن يعتليها . وطالما ركبتَ الزلاّجةَ تندفعُ بها على مزالق الجليد فلا أستطيعُ اللحاقَ بكَ إلا بعد لأْىٍ !

أنتَ بكلِّ ما في هذه البلاد خبير ...

وإني إذْ أتحدثُ إليكَ الساعةَ في شأنها ، وأنا من الرحيلِ قاب قوسين . فإنما هي تعِلَّةٌ ألتمِسُها لأنالك الحديثَ في شيء الفناءُ جميعاً ، فنحن نستعيدُ مرائيَه وذكرياته ، فكأننا نجدِّدُ بتلك الاستعادةِ مرحلةً من العيشِ معاً ...

مهما أقل فما أنا بكاشف لكَ جديداً ، فحديثي مُعاد ، ولكن قد يتذوَّقُ المرءُ في بعضِ الأحاديثِ المعادةِ لذةً لا تعدِلها لذةُ الجديدِ من الحديث ...

لقد سلختُ من صيفي هذا العامَ شهرَين في هذا البلد ، وتلك فترة ضئيلة لا يقاس بها ما قضيناه هنا معاً في سوالفِ السنين . ولقد زُرْتُ مواطنَ قليلةً لا تعدُّ شيئاً مذكوراً بالنسبةِ للمواطنِ التي اشتركْنا في زيارتها في تلك الحِقبِ الخوالي...

لقد كنّا ننزِلُ هذا البلدَ رُوّاداً سائحين ، تتضرَّمُ بين جنوبنا نزعة الكشف والارتياد ، فلا نحُلُّ مثابةً حتى نكتنهَ خفاياها ،

ونعتصر زبدَها ، ثم ندعها إلى أخرى بشوقٍ جديد ، وطموحٍ إلى المزيد ...

أما اليوم فإني رحلتُ بهذا البلدِ لا لكشفٍ أو ارتياد ، بل لألتمس الدعة ، وأتطلب التراخي ، وأظفر بسكينة النفس ، وطمأنينة الأعصاب .

كنا في « أمريكا » كأننا مشدودون إلى طاحون ، ندور حوله ، ولا نفتأ ندور ؛ فجئنا هنا لنقف ، لنجالس ، لنهدأ ، لننام ! . .

إذا قلتَ «سويسرا» فقلْ من فورك :

بحيْرات ورواسِى وأدغالاً ومسايلَ ماء ..

ما أحفل هذا البلدَ بمثاوى الاستجْمام !

بلدٌ عجيب هذا الوطن السويسرىّ .

يجمعُ بين روعةِ القديم ، وفتنة الجدِيد .

تلك «لوزان» أقوى رمز لذلك الجمع بين المظهرَين .

هنا طُرقٌ فِساحٌ ، تَصْطفُّ على حِفافها شوامخُ الأبنية ، وتقومُ على حواشِيها أبهى المتاجرِ والحوانيت ، تعرِضُ أحدث النماذجِ من السِّلع . . .

وعن كثَبٍ من هذه الطرق المعبَّدةِ تطالعك مسالِكُ ضيقةٌ متداخلة ، يفترش أديمَها باعةٌ زخرَتْ سِلالُهم بالخضَرِ والفاكهة والرياحين ، فكأنك تجوسُ خلالَ مدينةٍ من مدُنِ «أوربا» فى عصورها الوسْطى .

وإنّ هذه المسالك لتتبرَّجُ وتتخذُ زينتها الكبرى فى الأعياد القوميَّة ، إذ تبدو فى تقاليدِها المتوارَثة حاشدةً بالناس فى أزيائهم الوطنية ، وقد حُجِبت فيها السماء عن ناظريك بالأعلام الملوَّنةِ التى تمثل شِعارَ الولايات . . .

وأنتَ حين ترْجعُ البصر بين هذه الأسواق الشعبية وبين تلك المتاجرِ العصرية تراك تُؤثر شراءَ سِلَعِك من هذه الأسواق، مأخوذاً بما لها من سذاجة، وبما تنْفحُه من عطْرِ العصور السوالِف!

هذا المبنى الأثرىُّ المتواضِعُ يحتفظ بعِزَّته وجلالِه إزاءَ ذلك الصَّرْح المُمرد من نِتاجِ المدينة الحديثة. وقد تتأمَّل جِسراً عظيماً وليدَ الحاضر القريبِ، مبهوراً بما له من عظمة وروعة، فيأخذُ بصرَك دونه جِسرٌ آخر يزحمُه، جسرٌ عتيق ترادفتْ عليه مِئُونَ من السنين، فتحسُّ بأنك مشغولُ الخاطِر مقيَّد الناظِر به عن ذلك الجسر الحديثِ العظيم، ترى فى طِراز صُنْعه والتواءِ جوانبه وما حُلِّيَتْ به جدرانُه من رسوم ملوَّنة وزخارفَ بهيَّة ضرْباً من العظمة له مِيزَته وخِلابتُه... والقوم هنالك لا يجِدون فى الإبقاءِ على مِثل هذا الجسر تشْويهاً للتناسُق العُمرانىّ، بل يلتمسون من وجوده وسيلةً من وسائل التجميل.

قلبُ السويسرىّ تتنازعه عاطفتان قويَّتان:

الأنسُ بالماضى، والتشبُّثُ بمعالمه ما وَسِعَتْه الحيلة.

ومتابعة الرقىّ والتحضُّر فى خُطاً سِراع.

وإنهما لعاطفتان تتكاملان في نفسية الأمة السويسرية ، وتتجليان في وضح النهار ، فهما للسويسري قوام الحياة وأساس الوجود !

نزلنا « سويسرا » فكأننا حللنا جنة زهراء تحف بها ألسنة من لهب ..

حول « سويسرا » خرائب أشتات : خرائب في الأبنية ، في الأسواق ، في الأوضاع ... في النفوس !

إن للأقدار يداً تتلاعب بمصاير الدول ، كما تتلاعب بمصاير الأناسي ...

لم يكن محالاً أن تغدو « سويسرا » وقوداً للحرب ، فتمسي طعمة للخراب ، كما كان شأن جاراتها من الدول الأوربية ، ولكن يد الأقدار ارتفعت تجنبها ويلات الحرب والخراب ، فتفيأت وحدها ظلال السلام !

هو القدر لا عاصم غيره ولا دافع ، تخل عنك حيلة السياسة ، وعدة الكفاح ، وما تزينه العقول من أسباب للهزيمة أو للانتصار !

إن « سويسرا » بلد ظريف حقاً .

. طريفٌ هذا البلدُ في مصايفِه ومَشاتيه التي يتودَّد لها الناسُ من أقطارِ الأرض جميعا . في مَشاتيه تمتعُ بمسارح الثلوج ، وفي مَصايفِه تبهجُ بالغابات والبحيرات .

. طريف هذا البلد في ضآلتِه مساحةً وعددَ سكان . . . فهذه الضئيلة قد تقِف بجانب أعظم الدُوَل شأنا وأكبرها خطراً تساميها وتطاوِلها ، حتي تبلغَ ما تصبو إليه من معاملة النِّدِّ للنِّدِّ .

. طريفٌ هذا البلدُ في نظمِه السياسية ، فلقد ابتدعَ لنفسِه وضعاً من أوضاع الحكم الديمقراطيّ الأصيل ، كلما تراخى به الزمنُ تماسكَ وتوثَّق ...

. طريفٌ هذا البلدُ في فلسفته السياسية ، وفهمِه للسعادةِ الاجتماعية بمعناها الحق . فهو دليلٌ ساطعٌ على أن كلَّ بلد في مُكنتِه أن يعيش رخيًّا هانئاً بمواردِه الطبيعيةِ في حدودِه الأصلية ، ما دام له تفطُّنٌ وذكاءٌ وعبقريةٌ في استغلال تلك الموارد ، وما دام أهلوه قوًى عاملة تؤدى الواجبَ العامَّ وهو برهانٌ دامغٌ على فسادِ نظرية « المجال الحيوى » و « التوسُّع الإمبراطوري » ، وهو حجةٌ قائمةٌ تثبتُ أن الأمةَ يمكنُ أن تعيش حرةً موفورةَ الكرامة ملحوظةَ المكانةِ ، دون أن تعتلى

ظهورَ أمم أخرى لتطيلَ قامتها بعواملَ مصنوعة متكلّفة ، وتستطيع أن تُشبِعَ نَهَمها دون أن تنتزعَ من الأمم الأخرى ما بينَ يديها من لُقَيمات !

لا يتطلّعُ السويسرى إلى شِبْرٍ من أرضِ غيره، ولا يُعَنِّى نفسَه بمشكلاتِ آبارِ البترول والمضايق والمسالك البَحريّة والنُّقَط العسكرية . فهو رافِه النفس ، ناعم البال ، داخلَ حدودِهِ . وإن طمَحَ إلى شىء فطمُوحه يرمى إلى الإذكاء من نشاطِه ، والانتفاع بمواردِه على خيرِ الوجوه ، وأساس اقتصادِه هو تبادُل المنفعةِ دون جَوْر أو اعْتساف .

إننا لنَجِدُ « الوطنيةَ » تحظى أولَ مرة فى هذا البلدِ بمعنًى جليل غيرِ معناها الشائع ، فإن السويسرى ليرى أن الوطنيةَ قد تنشأ وتستفحل وتتوقّدُ دون أن ترتكِن إلى اتحادٍ فى اللغة أو الدين أو الثقافةِ أو نزَعاتِ الشعوب ...

هذه « سويسرا » مناطقَ ثلاثاً أصلية :

منطقةً ألمانيةً وثانيةً فرنسيّةً ، أما الثالثة الأخرى فإيطالية . لكل منها كيانها الداخلى ، وخصائصها القومية ، من عقلية وثقافة ونشاطٍ اجتماعىّ . ولكنها تتجمعُ أمةً واحدةً ووطناً فرْداً وراءَ الحدود السويسرية !

يحق لنا أن نتساءلَ :

ما هى مُقوِّمات الوطن على وجهِ التحقيق ؟

تُعدُّ اللغة والدينُ والثقافةُ والدم ، وما إليها من عواملِ جغرافية واجتماعية واقتصادية — مقومات للوطنيّة .

ولكنْ ثمة عاملٌ أصيلٌ هو رُوح تلك المقوِّماتِ ، ذلك هو عامل المنفعةِ ، اتحادُ المصالح ، توافق الأهداف ، تَلاقى المشاعر ...

قد تختلفُ فئةٌ من الناس أجناساً وأدياناً ولغات : فإذا همْ قد جمعتْ بينهم الأقدار فى رقعةٍ من الأرض ، واضطرّتهم ملابَساتُ العيش أن يحيوا فى هذه الرُّقعة مُجْتمعى الشمْل ، فاستقر بهم هنالك المُقام : وراحوا يتظاهرون على إسعادِ مجتمعهم وحياطته من المتالِف والأخطار ، فتوثّقت بينهم روابطُ العملِ فى سبيل المصلحة المشتركة ، والهدفِ الواحد . فكلما تشابكت المصلحة وعَظُمَ الهدف اشتدّت وشائجُ الاتحاد .

وإن ما يخشَونه من خطرٍ خارجىّ داهمٍ ليؤلّف بين قلوبهم

ويجعلهم بنياناً مرصوصاً تجاه ذلك الخطر ، إذ يستشعرون أنهم سواسية فيما يكون لهم من نفع ، أو ما ينوبهم من الضرّاء .

وليس عسيراً أن تبين هذه الظاهرة جلية في أصغر المجتمعات عددَ أنفسٍ . فأنت على ظهر الباخرة فوق العُباب ، وقد أخذت بك الباخرة تنأى عن الشاطئ ، وتضرب في الأثباج ، تحس من فورك عاطفة ألفة وترابطٍ بينك وبين رفقة السفر ، على الرّغم مما يكون من تغايُرٍ في اللغة والجنس والدّين والبلد .

ذلك لأن مصلحة مشتركة نشأت بينك وبين رفقتك ، ولأن هدفاً واحداً قد أصبح نُصْب أعينكم جميعاً ، هو الوصول إلى البرّ في أمن وسلام .

وإذن فتلك الباخرة وطن وقتيّ لك تحيا فيه مع مواطنيك بضعة أيام ، وما شعورك آنئذ إلا وطنية عارضة تجند لها ما تملك من يقظة واهتمام .

فإذا جازت بك باخرة أخرى أحسست أنها وطن غريب عنك ، يؤوى مواطنين لا يعنيك من أمرهم إلا علاقات المجاملة وحسن الجوار ، وربما كان في رفقة تلك الباخرة الأخرى

من همْ أقربُ إليك رُحماً وأوثقُ بك صلات من رُفقتك فى يا خرتك التى تحملك .

فالوطنية الحقّةُ بِذْرتها عامل المنفعة وتوحُّد الأهداف .

وعلى مرّ الأيامِ تنشأ حولَ هذا العامل عاطفة الألْفة التى هى التعوُّد . وكلما تراخى بها الزمن ازدادت رُسوخاً فى النفس ، وصادفتْ هوًى فى الفؤاد . فإنك تألفُ المكان لاعتيادك إياه ، ومن ثمَّ تحوطُه بإعزازٍ وإجلال .

ولا مِرْية أن أثرَ التعوُّد فى النفس البشريةِ أثرٌ قوىٌّ بالغ الخطر ، فهذه النفسُ يَلذ لها أن تركن بالتعوُّد إلى الأشياءِ ماديةً كانت أو معنويةً ، وذلك الركونُ مبْعثه الطمأنينة والثقةُ ، لأن فى مواجهة الجديد مغامرةٌ مُحجَّبةَ المصير ، تبعث فى النفس مشاعر الحذَارِ والرَّهْبة والانكماش .

ليست الألفةُ مقصورةً على الأحياءِ ، فإننا لنألَفُ من الماديَّات توافِه لا يُؤْبهُ لها ، فنحسُّ وجودها ، ونحيا معها ، ونأنسُ بها ، كأنَّ لها رُوحاً يُبادلُنا الأنْس والحياة .

ألم تقف مرةً أمام عشير لك من قلمٍ أو دمْية أو ثوبٍ

اضطررت إلى التخلّي عنه ، وقفة مودّعٍ محزون القلب يشيعُ في أوصاله أسفٌ لذّاع ؟

ألستَ تجد نفسك كأنك تودّع عزيزاً عليك لا تبخل عليه بقبلة حرى ، أو نظرة حسّرى ؟

هي خطراتٌ تحوّم في الرأس ، وأنا جالسٌ جِلستي المتراخية ، مشرِفاً على بحيرةِ « لِيمان » أتطلّعُ إلى ذلك المشهدِ الخلاّبِ الذي يتألّقُ لعيْني تحت أشعّةِ الشمس ، وأرى القرى تتناثر على الشواطىء ممتدّةً في صعودِها على سفوح الجبال ، تكتنفها المروجُ والغابات ...

لبحيرة « ليمان » خصائص عجيبة ... إنها متحولة متبدلة لا يستقر لها حال ، فهى تتشكل وتتلون وفقاً للجو فى تطوره واختلافه . وإن مشهد البحيرة فى كل طور ليختلف أبين اختلاف عنه فى سائر الأطوار ، حتى إنك لتنكر بصرك أو تستريب بمشاعرك ، فيخيل إليك أنك بين يدى بحيرة سحرية يتلعب بها جنى عتى

هى فى بواكير الشرق غيرها فى وهج الظهيرة .

وهى فى ذلك الوهج غيرها فى فترة الأصيل .

وكأنما هى تخلق خلقاً جديداً حين تنسدل أستار الظلام ، أو تتكاثف أطباق الغيم والضباب .

ليست البحيرة إلا لوحاً فنياً رائعاً يتجدد فى كل وقت ، فإذا صفا الجو ، وسطعت الشمس قوية الشعاع ، وصحت السماء صافية الزرقة ، لا تشوبها رقعة من السحب ، برزت تلك الجبال جلية المعالم ، ناطقة الملامح ، كأنك تشهدها خلف مجهر ، وتوضحت تلك الألوان نيرة مشرقة . فهذه خضرة ناضرة ، وذلك صقع قاحل نائى الصخور والأحجار ، وتلك قمة ثلجية ناصعة .

ودونك صفحةَ الماءِ ملتمعةً لناظريك كمرآة مصقولةٍ مجلوة، تهتز صفحتها بين الحين والحين تحتَ الشمسِ الساطعة، كأنها حسناءُ متجردةٌ تهتز خفراً واستحياءً إذْ يباغتُها ضوءٌ كشّاف!

إن صورةَ البحيرة فى هذه الحالةِ هى صورةٌ للسُّفور والوضوح فى أجلَى مظاهره ...

فإذا تلفّعتْ السماء بغيومها، وتهاوت السحُبُ على هامِ الجبالِ تخْفى قممَها، وشحّ الضوءُ، وشاعتْ فى الجوّ سارِيةٌ من القُرّ تحمِلُ معها الغموض والخفاء؛ ألفيْتَ صورةَ البحيرة قد شحُبَت ألوانها، وغشِيَتْها وحشةٌ ورهبة وانقباضٌ.

امواجٌ رجْراجة تعلُو وتهبطُ عليها غبرَةٌ، وجبالٌ قد اختلطت معالِمها لا تدْرى أمورِقةٌ الجنَبات هى أم ماحِلةٌ جدباء؟

وقد يحُطّ الظلام على هذا المشهدِ فإذا الرّهبة تتثاقَلُ، فتُحس كأنّ الأدغال قد عمرَتْ بأساطيرها القديمةِ وراحت تعِج بالهولات والأشباحِ، منَ العماليق والأقزام. وترَى صفحةَ الماء كأنما غصّتْ بسفائِنِ الأقدمينَ تشتبِكُ فى حربٍ وقتالٍ.

وإذا بشبحِ «وليم تل» المرهوبِ ذى اللحيةِ الكثّة والشعَر المُسترسل يروحُ ويجىءُ سابحاً فى الجوّ بقامتِه المبسوطة، مُتنكباً

قوسه التليدة ، وقد دوت من حوله الأناشيد الوطنية دخاناً يعقد سحائبه فى الآفاق ...

وثمة صورة ثالثة أخرى لتلك البحيرة ، هى مزاج من الصورتين السالفتين ، مزاج من الوضوح والخفاء ... شمس ساطعة تحس حرارتها وقوة ضوئها ، ورقيق من الضباب تكسو غلالته مسرح النظر . فأنت ترمى بعينيك كأنك تبصر من وراء منظار علاه الغبار .. فالبحيرة قبالتك لا تستبين لها معالم فى ذلك الفيض المختلط من السنا والضباب . والماء لا تدرى أماء هو حقاً أم هواء ؟ والقوارب لا تعرف وهى تتراقص أقوارب هى حقاً أم ظلال هائمة شوارد ؟ فأما الشاطىء وما دونه من جبال وأدغال ، ومن صخور ومروج ، فقد امحت وتزايلت خلف تلك الغلالة البيضاء ، حتى إنك لتتوهم ألا شاطىء ثم ولا أصقاع !

إنك وأنت آخذ مجلسك تجاه البحيرة كل يوم لا تستشعر ضجراً ولا ملالة ، لأنك تجاه ألواح رائعة تتجدد ، أو فلم سينمائى للطبيعة الحية تتوالى مناظره فى بهاء ورواء .

وليست فتنة هذه البحيرة بمقصورة على ما يحبوها به

الجوّ وما تنفحها به السماء، وإنما هى فاتنة بسكانها السادة وأهليها الكرام...

وما أعنى بهؤلاء السكان إخواننا بنى آدم المقيمين فى تلك المنطقة، وإنما عنيت جماعة الإوز.. إنها صاحبة السلطان المطلق فى تلك البحيرة. وقد عرفت البحيرة بذلك الإوز منذ الغابر البعيد، فأصبح لها طابعاً أصيلاً لا يتم رسمها إلا به، فهو دائماً يوشيها ويتوجها ويجذب إليها أنظار المعجبين.

يسبح ذلك الإوز زرافات وفرادى على متن الماء، أو يدرج على الشاطىء متهادى المشية فى رقة ووداعة. وإنه إذ يلمحك ليسارع إلى أن يحييك من بعيد أو قريب تحية فضولى متطرف يتطلع إلى ما تجود به عليه من لقيمات!

وهو يتفطن إلى مواقيت النزهة، ومواعيد إقبال الناس على البحيرة. فيوزع أسرابه فئات تتقاسم جوانب الشاطىء، وتستقبل الزوار بأناشيد الحفاوة والترحاب.

وأنت ترى هذه الأسراب تشرئب بمناقيرها، وتدف بأجنحتها، تحاول أن تثير بهجتك وإيناسك بما تبديه من ألاعيب ومعابثات، ثم إذا بها تقبل عليك بعد قليل تتقاضاك

الأجرَ والجزاءَ ، فتلقى إليها القيماتك ، فلا تفتأ تلتقمها فى مهارةٍ ونشاط ...

كذلك لا يخطىء الإوزّ معرفةَ المواعيد التى تتنقل فيها البواخر ، فتراه يتأهب لتوديعها فى منصرفها يؤدّى لها تحيةَ التوديع ، فإذا تحركت باخرة «الفيتسر» سرباً من الإوزّ قد أحاط بها إحاطة كوكبة الفرسان بالمواكب الفخام ، ولا يزال متابعاً للباخرة وقتاً حتى ينالَ مكافأةَ الحفاوة ومقابلةَ الجميل بالجميل ... فيرتد إلى قواعده تشيع فيه الغبطة والمراح !

سَجّل هذا الإوزّ لنفسه موقفاً مشهوداً فى الحرب العالمية الماضية ، وسينسى السويسريّون كثيراً من مواقف تلك الحرب ولكنهم لن ينسَوْا ذلك الموقف الطريف أبدَ الدهر ...

يعوّل هذا الإوزّ فى جانب كبير من عيشه على ما تقدمه له الحكومة من الزاد ، وما يبذله له الزوار من عطايا الخبز . وكان بديهاً أن تُشغل الحكومة عن ذلك الإوزّ إبانَ سِنى الحرب ، إيثاراً للآدميين بما تستطيع الحصولَ عليه

من غذاء ، واقترن ذلك بقلّة الزوار ، أو على الأصحّ الزوار الكرام ! ...

فابتلى الإوزّ بمحنة عسراء ، ولم تعد صغار السمك تكفيه قوتاً ، وربما أحسّ هذا السمك أنه أصبح الطعام الوحيد للإوزّ ، فأمعن في الفرار والاختباء ، نجاة بنفسه من الهلاك ...

فاشتدّت الضائقة بالإوز ، وتوالت عليه أيام صعاب ، وطال انتظاره على الشواطىء يتلمّس ما كان يُلقى إليه من اللقيمات دون جدوى !

فاجتمع بعضه إلى بعض يتشاكى سعار الجوع ولهب السّغب ، ولم يجد بُدّاً من أن يأتمر توسّلا للخلاص . فأجمع أمره أخيراً على أن يخرج في مظاهرة ثائرة يعلن فيها مطالبه .

وما هي إلا أن رأى سكان مدينة «أوشي» جمع الإوزّ يغادر البحيرة ، وقد تقدّمه قائد مهيب ، متخذاً سبيله في الطريق العامّ . مرتّباً صفوفه على نسق يحسده عليه الإنسان ، وهو يمشي في تؤدة ووقار ، ويجأر بصوته يناشد الناس عدلاً وإنصافاً !

وتابع الإوزّ سيره ... ولكن إلى أينَ ؟

أكان يعرفُ له وِجهةَ سيرٍ، وخُطّةَ مطاف ؟

وإلى مَنْ يتوجّه بالظُّلامة والشكاة ؟

لو عُلِّم الإنسانُ منطقَ الطير وأوتى معجِزَةَ « سليمان »

لاشْتبك مع هذا الإوزّ فى مُرافعة ودفاعٍ ، وجعل يفاوضُه

ويناقلُه الحديث ، حتى يفضى الأمر إلى سلامٍ ووفاق !

ولكنّ الإنسان الغشوم استطال بسطوتِه وقوّتِه ، فشهر

على الإوزّ السلاحَ الذى كان طابَع التفاهم الدولىّ فى ذلك

الوقتِ ، فردهُ إلى مغارِقه ، يشكو البغىَ والحرمانَ !

ليست البحيرةُ أثمن شيء فى المواطن السويسرية ، فثمة الجبلُ : تاجُها الذهبيّ ، وهو ثروةٌ ضخمة لهذا البلدِ لا تعدلها ثروةٌ أخرى ، هو ثروة طبيعية لا تتمثل فى معادنٍ نفيسةٍ ، أو وَقود منشود . فالجبلُ هناك كنزٌ غيرُ مستورٍ ، غير مقصور على إنسان دون إنسان .

إنه ثروة شائعة لكلّ من يُريد الانتفاعَ بها ...

ولقد حبَتْ الطبيعة « سويسرا » بهذا الجبل متفرّداً بجمالِه ، متميزاً بما يحويه من أشتات المُتع ...

ولم يعزبْ عن السويسريّ ما فى الجبل مِن ذخائرَ ، فنشط يستغلُّها أتمّ استغلال ولذلك ترى الجبل قد عملت فيه يدُ التجميل ما شاءت لها العبقرية أن تعملَ ، فبدا مسرحاً لمختلف ضروب الرياضة والألعاب الملائمةِ لفصول السنةِ على تنوّعها : طرقٌ معبّدة ، ووسائل انتقال منظمة على أحدث طِراز ، وتيسيرٌ أكمل تيسير لتسلّق القمم ، والانزلاق على الجليـــد ، والتنزّه فى الغابات ، والإقامة فى مراقِى الجبل وفقَ مطالبِ الاستشفاء .

فلا غرْوَ أن ترَى الجبل السويسريّ نصب الأعين من

أقطار العالم المسكونِ ، يلوذ به طلاّب المُتعة والرياضة والصحةِ من كلّ موطن وجنس .

ولا مِرْية أنّ من أروعِ المِهْرجانات وأبرعِها ذلك المهرجانَ الجليديّ الذى يتبارَى فيه المنزلقون بالمزالج ، يتحدّرون من القمم السامِقة إلى السّفوحِ الدُّنيا ، تحسبهم جِنا قد انفرجت عنهم أبراجُ السماء ، فتدفّقوا يمرُقون لا تكاد تقيّدُهم الأبصارُ .

وإننا لنذكرُ ما وَصف به « امرؤ القيْس » حصانه فى قوله :

مِكرّ مِفرّ مقبِلٍ مُدْبرٍ معاً
كجُلْمُود صخر حطهُ السيل من عل

فنسائلُ أنفسَنا : لو كان « امرؤ القيس » قد شهِدَ أحد هذه المهرجانات ، فبأىّ شىء كان يشبّه أولئك الجنّ مِن الآدميّين وهم فى هويّهم من حالق ، أعدَى من الرّيح ، وأسرع من وثبات الخيال ؟! ...

لقد كان كسبُ « سويسرا » من جبَلها ، وهى قابعةٌ لم تتخطّ حدودها ، ولمْ تشره عينها إلى سِواها ، أضعافَ ماتحاولُ أن تكسبه الدوَلُ بقوافل التجارة وأساطيل الاستعمار .

ولهذا الجبل كبيرُ الأثرِ فى حياةِ أهلِه ، فقد طبعهُم بطابعه. وليست قسمات السويسرى وِشيَمهُ إلا مستمدّةً مما للجبل مِن قسماتٍ وشِيَمٍ ...

السّويسرى بشرةٌ مشدودة معروقة ، صحّة سابغة ، قامة صلبة ، مشية متزنة تدُل على ثباتٍ وثقة ، فأمّا شِيمته فهى الصراحة والجدّ والاستقامة ...

هذا السّويسرى أظهر الغربيين سخاءَ نفس ، وكرمَ ضيافة. ولعله يحسّ أنّ حياته موصولةٌ بالنُزلاءِ والغرباء ، وأن له مِن ألفتهم إياهُ مغنماً جديراً بالرعايةِ والحِرْص !

أولئك السويسريون لا يحفِلون بزُخرفٍ أو تنميق ، فرجالهم ونساؤهم يبدون فى ثياب عليها طابعُ السّذاجة والاحتشامِ. وجمالُ المرأة السويسرية هو على وجهٍ عامّ مِنحَة الطبيعة ، وصِبغة الخِلقة ، لا يد فيه للصّنعةِ ووسائل التجميلِ ...

فهى تستمد مفاتنَ النّضرة والوسامة من وَفرةِ الصحّة وفوْرة النشاطِ .

شيئان في « سويسرا » يتماثلان عظمةً وقوة أثرٍ ، وإنْ اختلفا في الضخامةِ والكِبرَ .

الأوّل ضخم بعيد الأطراف ، مديدُ الأكنافِ ، يكلّ في جنَباته البصَرُ الحديد ، والآخر ضئيلٌ دقيق لا تكادُ تراهُ وإنْ أنعمْتَ النظرَ . .

في الأوّلِ تتجلى الطبيعةُ سَهلةً ميْسورَة ، وفي الآخَر تتمثل عبقريةُ الصّنعةِ في التركيب والتعْقيدِ .

حياةُ الأوّلِ انطلاقٌ وانسِراح لا حدودَ ولا قيُود ، وحياة الآخرِ نظامٌ مرسومٌ في دقّةٍ وضبْط وإحكام .

الأوّلُ : هو الجبل .

والآخرَ : هو السّاعة .

« سويسرا » منذُ الغابرِ البعيدِ موطنُ الساعاتِ ...

تطالعك السّاعةُ أينما سِرْتَ ، مختلِفةَ الألوانِ ، متباينةَ الأشكالِ ، لا تكاد تُحصيها أنواعاً وأفانينَ ! ...

وإنّ وجْهات المتاجرِ والمخازن لتزْخرُ بها ، وإنّ دقّاتها العالية

لتطرق سمْعك ، وقد تجاوبَتْ بها ذرا الأبراج في الميادينِ والسَّاحاتِ ، فكأنها تتبادل التَّحايا والمناجاةَ ...

أنتَ في أيّ وقت بَصيرٌ بِوقتِك ، تتعرَّفُه بتلك الدَّقَّاتِ التي تبلغ مسامعَك كل ربْعِ ساعة ، مصاحبةً لك طول النهار ، ساهرةً عليك آناءَ اللَّيل ، لا تَدعك حيثُ كنت !

إنها لتنفُذ إلى مَخدعِك ، وأنتَ أرقٌ ، تؤْنسك ، وتزْجى لك اللَّيل البطيء الكسولَ ...

وربما جلستَ إلى البُحيرةِ غافِيَ البالِ ، فإذا بتلك الرفيقةِ تسائِلك على استحياءٍ في أنغامها الرِّقاقِ :

أعلى موعدٍ أنتَ غفَلْت عنه ؟

أحان وقتُ الطعام وأنت عنه لاهٍ ؟

أطالت جلستك في مكانِك ، وآنَ لك أن تستمتِعَ في بقيَّة يومِك بنزْهة أخرى ؟

ليت شعرِي ، أكانت « سويسرا » منزِلَ الوحى « لشوقى » في بيتِه الخالد :

دقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له إنَّ الحياةَ دقائِقٌ وثوانِ ؟

وإنك لتجوز بالمسالك والدُّروبِ ، فإذا بالساعةِ تواجِهك في كل ناحيةٍ وركن ...

وقد يُعْييك في إحدَى القرَى أن تجد مطعماً تتبلَّغُ فيه بشيء من الزَّاد ، ولكنك لن تفقِدَ الساعةَ ما خطوْتَ !

لقد كانَ لاهتمام السويسريّ بصنْعِ الساعة ، وإقباله عليها ، وتفننه فيها ، أثرٌ بالغٌ في حياته .. فقد أشربتْه خلال الدقة والمثابرة والجَلَد والنظام والاتساق .

فالسويسريّ يعيش حياةَ الساعةٌ ، ولستَ تغلو إن قلتَ : إنّ السويسريّ ساعةٌ آدمية ... ساعةٌ سويسريّة !

نحنُ اليومَ في « سويسرا » تدقّ لنا فيها ساعة ودَاعٍ ، ويتعين بها وقت رحيل ..

٧ أكتوبر

أى بُنىَّ :

أبَقِىَ شىءٌ أناجيك به فى شأنِ تلك الرحلةِ التى نايت بها عن الوطن ستةَ أشهُر ؟

ثمةَ أشياء كثيرة جديرةٌ أن يجرى بها القلم ...

لقد كان هذا القلمُ سَهْلَ المقادةِ وثّابَ الخُطا فى مِضمار الصحائف ، وأنا ذاهبٌ عن الوطنِ ، فما باله اليوم يَعُقّنى ، وأنا فى يوم المآبِ ، فلا أجدُ منه إسلاساً ولا طواعيةً ؟!

ألا أحداثَ ؟

ألم نزعجْ عن فراشنا فى حِضنِ « جنيف » والساعة تدقّ دقتها الثانية بعد منتصف الليل ، لكىْ نُعِدَّ العُدّةَ للرحيل ؟

ألم نرُضْ أنفُسنا على فضيلةِ الصبرِ والانتظارِ فى المطار ، قبيلَ نهوضِ الطائرة ، كما حدثَ من قبلُ فى المطارات الأخرى ؟

ألم نلبث فى الطائرة اثنتىْ عشرةَ ساعةً بين « جنيف » و « القاهرة » ؟

ألم تكن هذه الساعات المتطاولة عامرةً بالأحداث

والمشاهد والصوَرِ ، بين عُلوٍّ وهبوطٍ ، وبُطء وإسراع ، ووقفات فى مختلفِ المطاراتِ كتنقّلِ الطير من فننٍ إلى فننٍ ؟

أليس فى ذلك كله مايهُزّ القلم إلى الملاحظةِ والوصفِ والتعقيب ؟

رُب قلمٍ جمدَ فى يدِ الكاتب لا يدرى لجمودهِ سبباً ، فإنْ راحَ يتفحّصُ سنّهُ ومِدادَه لم يَرِبْهِ منهما شىء ..

رُبّ كاتبٍ يرى صدرَه جيّاشاً بالعواطفِ والإحساسات والموضوعات ، ولكنه مع ذلك يظلّ عييًّا محصوراً ، كأنّ عائقاً مستوراً يسُدّ عليه منافِذَ الإفصاح ..

القلب البشرىّ شأنه كشأنِ ذلك القلمِ ، بينَا هو خفّاقٌ يستقبل الدم ويرسله فى حرارةٍ وقوّة ، إذا به يُحِسّ عجزاً عن مزاولةِ مهمتِه ، فيحتبِسُ الدم عن مجراه ، لِما قد يكونُ مِن عقبةٍ فى الطريقِ ، أو تقلصٍ فى الأوْرِدةِ ، ويظلّ القلب مضطرباً حيرانَ يتساءلُ عن سِرّ هذا الانقلاب !

نحن مقبلون على أرضِ الوطنِ بعد غيابٍ طال ...

ستكتحلُ أعيننا بعد ساعاتٍ بمرأى وجوه الأحياء من ذوىِ القربى ، وأطياف الراحلين الأعزّاء ...

ماذا أستطيعُ أن أجتلِىَ من المشاهد والأحداثِ التى تدوُر حولى خلال هذه الساعاتِ المطويَّة، وأنا معقودُ الناظرِ بأشتاتٍ من ذِكْرَياتٍ أثارَ ثائرتها فى نفسى شعورُ القُدوم إلى معاهد الذكريات ...

أنىَّ لنفسى أن تستجيبَ لما يكتنِفنى من الأحداثِ والمرئيّاتِ، وأنا حاضرٌ بجسدى وحدَه، على حينِ أنَّ روحى هائمة شرودٌ تسبِق الطائرةَ وتتعجل الوصولَ إلى غايةِ الطريق؟

فى هذه الساعاتِ الاثنتىْ عشرةَ تقلّبَتْ بنا الأجواءُ بين أطباق السماء، وتعاقبَتْ علينا أنسامٌ مختلفةٌ أيّما اختلاف، ولكنى على الرغمِ من تقلّب الأجواء وتعاقبِ الأنسامِ ظَللْت لا أستنشى إلا جوّاً واحداً ونسيماً واحداً، ما أطيبَ شذَاه، وما أكرَم ريّاه، ينفذُ إلى سُويداء القلب..

ذلك هو نسيمُ «مصرَ»، عطرُ الوطن!

ولكن مالى وقد رحلنا عن «أثينا»، واقتحمْنا سماء بحرِ الروم، واتجهْنا صوْب وادى النيل، أحِسّ وحشةً غريبةً تهبّ دفعةً واحدةً من جوف ذلك الغَسق الذى نشُقّ أستاره؟

إنها وحشةٌ غريبة يختلِط فيها السرورُ بالأسى، واللذّة بالألم،

أفصِح أيها القلبُ عما بك الساعة !

إنك لمُثقَلٌ بالمشاعر الغامضة المبهَمةِ ...

إنك لمختنِقٌ . .

إنك لتكادُ تتمزق ...

لا يسعِفكَ فى ضِيقتك إلا ساكِبُ الدمع.

ولكنْ أين غَوْثه وغيثُه ؟

ما برحَ النَّبْعُ غائراً غائضاً لا ينضحُ ولا يبضّ !

الطائرة تدِفّ .

والغسقُ يحتلِك .

والقلب يزداد من وَحشةٍ وضِيقةٍ وانقِباض !

٨ أبريل

أىْ بُنى :

ها أنذا أرجعُ الساعةَ إلى دارى ، بعد أن وقفتُ على قبرك ، وطوفت بمزارك ...

أرجعُ لأخُطّ إليك كلمات عِجالاً ، هى أخرى كلماتى إليك فى هذه الرسائل ...

كانت ليلتى الماضيةُ ليلةً حافلةً حائرة ، ليلةً قلقة أرِقة .

لم نكدْ نبارحُ الطائرة ، ونخطو بواكيرَ خُطانا على ثرَى الوطن ، حتى طالعتْنا وجوهٌ عزيزةٌ خفّتْ لِلقائنا . وكانت فرْحةٌ تجاوبَتْ بها القلوب كما تجاوبت الألسُن بعبارات التحيةِ والترحاب .

وبدَا من بين تلك الوُجوهِ وجهٌ محبّبٌ يتدانى إلينا ، ويهتِفُ باسمينا .

إنه وجهُ عزيزنا الصغير (١) الذى لم يعزُبْ عن ذاكرتِنا لحظةً واحدةً خلالَ تلك الغيبة الممدودة ...

(١) يعنى الكاتب ابن بنته

وإذا بهذا الوجه الصغير يعظُم حتى ليصبح شُغلنا الأكبر، لا نرى أحداً دونه .

ظللنا وقتاً فى ضجة من الحديث، وهيجة من المشاعر ...

وبينما نحنُ فى هذه الضجة والهيجة، إذ بشىءٍ يستيقظُ فى قرارة نفسى، وإذ بى أتلفتُ حولى باحثاً عن شخصٍ ...

وجعلتُ أُحدِّ بصرى، بل أحد بصيرتى . أتحسس وجودَهُ ... ولكننى لم أعثر عليه، فغشيتنى غاشيةٌ من التحسرِ والتفجعِ .

لم لا أجدُك يا بُنىَّ تستقبلُنى كما وجدتكَ معى تودعنى يومَ الرحيل ؟

أعدتك عن الحضور عوادٍ ؟

ليس لعاديةٍ أن تعدوكَ عن التصرف حيثُ تشاءُ ، فأنتَ اليومَ ربُّ معجزاتٍ تقصرُ دونها طاقاتُ الأحياءِ التافهين من بنى البشر ...

ليس ثمةَ من سلطانٍ عليكَ لتلك المظاهرِ من زمانٍ ومكانٍ وصعابٍ مادية ودنيوية !

لقد اختلقَ الإنسانُ الحىُّ هذه المظاهرَ، لكىْ يوازنَ بها ويقايسَ، ولكى يعبّد طريقَ المعاشِ والتقلبِ فى جنبات الأرض.

إنك لنحيا فى العالمِ الأَبديِّ السرمديِّ ، حيث لا حاجةَ بالروحِ إلى قيودٍ من زمان ومكان ، فهى تشيعُ فى الفضاءِ المطْلَقِ شيوعَ الضوء السيَّار .

ما بالك يا بُنىَّ تتخلفُ عن استقبالى ، وقد كنت آملاً أن أُحِسَّ مَقدَمَك فى تلك اللحظات ؟

أكبرُ الظنِّ أنك آثرْت التخلفَ إشفاقا علينا من أن تثيرَ بوُجودِك أشجاناً يضطرِم بها القلبُ فى ساعةِ الفرْحة بلِقاء الأحبابِ من الأحياء !

لقد كبرتْ نفسُك أن تزاحِمَ هذا الصغير المحبَّب فى خفته وسَعيه ، فتركْتَ له الميْدانَ يُبرِّز فيه !

على أنى ما كِدْتُ آخُذُ سبيلى إلى المنزل ، حتى هتَفَ بى هاتِفٌ كأنه يضرِب لى موعدَ زَوْرةٍ ، ويوجِّهنى وجْهةَ لِقاء !

وهأنذا يا بُنىَّ قصدْتُك ، دخلتُ خاشِعاً فى ذلك المزار الأعزِّ ، وجثوتُ أعفرُ جبهتى بترابِك المطهَّر ، وإذا انت تتراءى لى كما كنتَ دائما ، وضَّاح المحيَّا ، تتلألأ فى عينيك فوْرةُ الفتوَّةِ والشباب !

أقبلْت تضرِبُ الأرض بخُطاك فى ثقةٍ واطمئنانٍ ، أقبلتَ

تأخذُ بيدِى تُنْهِضُنى ، ثم انتحيْتَ بى ناحيةً جلستَ فيها إلىّ ، أحدّقُ فيك وتحدّقُ فىّ ...

ليس المقَامُ مقامَ كلامٍ ، إنه مقامُ السكونِ والصمتِ ، مقامُ التأمّل والنّجوَى ...

لقد أفضيتُ إليكَ بما عندى ، وأجبْتنِى إلى ما سألتك إياه .

ولكنْ هل كان فى النجوَى من جديد ؟

ألم نكنْ تعلمُ من شأنِى كل شىء ؟

ألم تكن رفيقِىَ فى كل مكان ؟

أخفَقَ قلبى خفْقةً لم يكن لك منها نصيبٌ ؟

لستَ ولدِى الذى قضى وغيبه الماضى فى ألفافِه ...

أنتَ فكرةٌ خالدة تعمُرُ جوانبَ القلب ، وتسيطِرُ على مناطِق التفكير ...

لا فِراقَ بينى وبينك أبدَ الدهرِ .

إنك لملازمى على النحو الذى تهْوَى :

شُعوراً مرة ، وصوتا تارة ، وطيْفاً تارة أخرى !

لم نَحْتَجْ بجديد ...

وأىّ جديد ننتظِرُ ؟

وأين الجديدُ فى هذا الوُجودِ ؟

ليست الحياةُ إلا حقيقةً واحدةً أزليةً أبديَّةً ، وإنْ تباينت صُوراً وألوانا ومظاهرَ . .

لا جديدَ فى الإنسان منذُ تقلُّبِه فى مَهْدِهِ إلى أن يُوارى فى ثرى رَمْسه ...

إنه ليظلُّ ذلك الوليدَ بما ركّب فيه من عناصرَ جوهرية . يظلُّ وليداً وإن اكتهلَ ، وإن تشيَّخ ، وإنْ رُدَّ إلى أرذل العمر . وليس ما يعتريه مما نتوهمُه تغيُّراً وتطوّراً إلا عوارض لا شأنَ لها بجوهرِ النفس ولُبابها الأصيل ...

منكَ ياربّ نستعير قبْسةَ تلك النفسِ حِقبةً من الزمن ، ثم نُرجعُ إليك لتشيعَ فى نورِك الشامل العظيم ...

أمَّا أنْ نسأل :

لماذا أعرْتَ ؟

ولماذا استردَدْت ؟

فهذا ما لا قبلَ لنا بجوابه !

ثمّة شىءٌ واحدٌ ، هو جوابُ السائل ، وملاذ الحائر .

هو الاستسلامُ ، ولا شىءَ غيرُ الاستسلام !

إنه يا بنىّ سبيلى الذى أترامَى فيه ...

أنْ أستسلم حتى يجتمعَ شملنا غداً فى فيْض نور الله !

إليـــكِ

إليكِ ياشريكتى فى العمُر ، ويا رفيقتى فى السفر والحضَر .

إليكِ أكتُب هذه الأسطرَ ، تسجيلاً لما كان من جميلكِ علىّ .

هذا كتابٌ ماكانَ أخلقهُ أن يُوسم باسمكِ ، فإنه أثرٌ منك وحدَكِ ، لولا أنتِ لم أخطّ منه حرفاً ، ولم يظهر له وجودٌ .

لقد صحِبتُكِ إلى العالم الجديد ، وما كنتُ لأطأ أرضه لولا ما كان من رغبتكِ فى الانتقال إليه ، طلباً لعلاجٍ واستشفاء .

وما رِحلتنا هذه إلى العالم الجديدِ ، إلا مرحلةٌ من رِحلتنا معاً فى هذه الدُّنيا ، جنباً إلى جنب .

وما رحلةُ الدُّنيا التى نتزاملُ فيها بأقلّ روعةً من تلك الأسفار التى قمنا بها ، نرتادُ الأصقاعَ والآفاق ، ونستمتع بالضرب فى أرض الله الواسعةِ !

إننا دوماً على سفرٍ ...

هى رحلة ممدودةٌ ، تتقلّبُ فيها الأيام بنا بين سرّاء وضرّاء ، وكلما اجتزنا منها مرحلةً ، أحسسنا قوّة الألفةِ والتعاطف تتأصّل وتتأثلُ ...

وإنى لأرَى طيفَ ابننا العزيزِ ينظر إلينا من وراء الغمام

السرمديّ ، مقتفياً خطانا فى الطريق . . .

لقد لاحَ بسمةٌ فى أفُق حياتِنا حيناً ، بسمةُ وَصل وميضُها القويّ بين رُوحينا ، وشدَّهما برباط وثيق . . .

ثم عاد حيناً آخرَ دمعةٌ تساقطتْ من عينينا معاً ، فازداد بها ذلك الرِّباطُ من توثقٍ واستحكامٍ . . .

ظَللْنا عُمرنا نتساقى أكْؤُسَ العيْش ، ونتقاسمُ أعباء الحياة فى تعاوُنٍ وتآزُر ، ومن هذا التعاونِ والتآزُر غدت للحياة قيمةٌ ومعنىً ، فقد أكرمَنا اللهُ بأن لم يجعل حياتَنا هباءً لا معنى لها ولا قيمة . . .

وحسبُنا من معنى الحياةِ جوهرُ الحبّ . . .

الحبّ فى صورته الشاملة الواسعة . .

الحبّ الذى يعيش وينمو ، تغذُوه السعادةُ طوْراً ويمده الألم أطواراً . . .

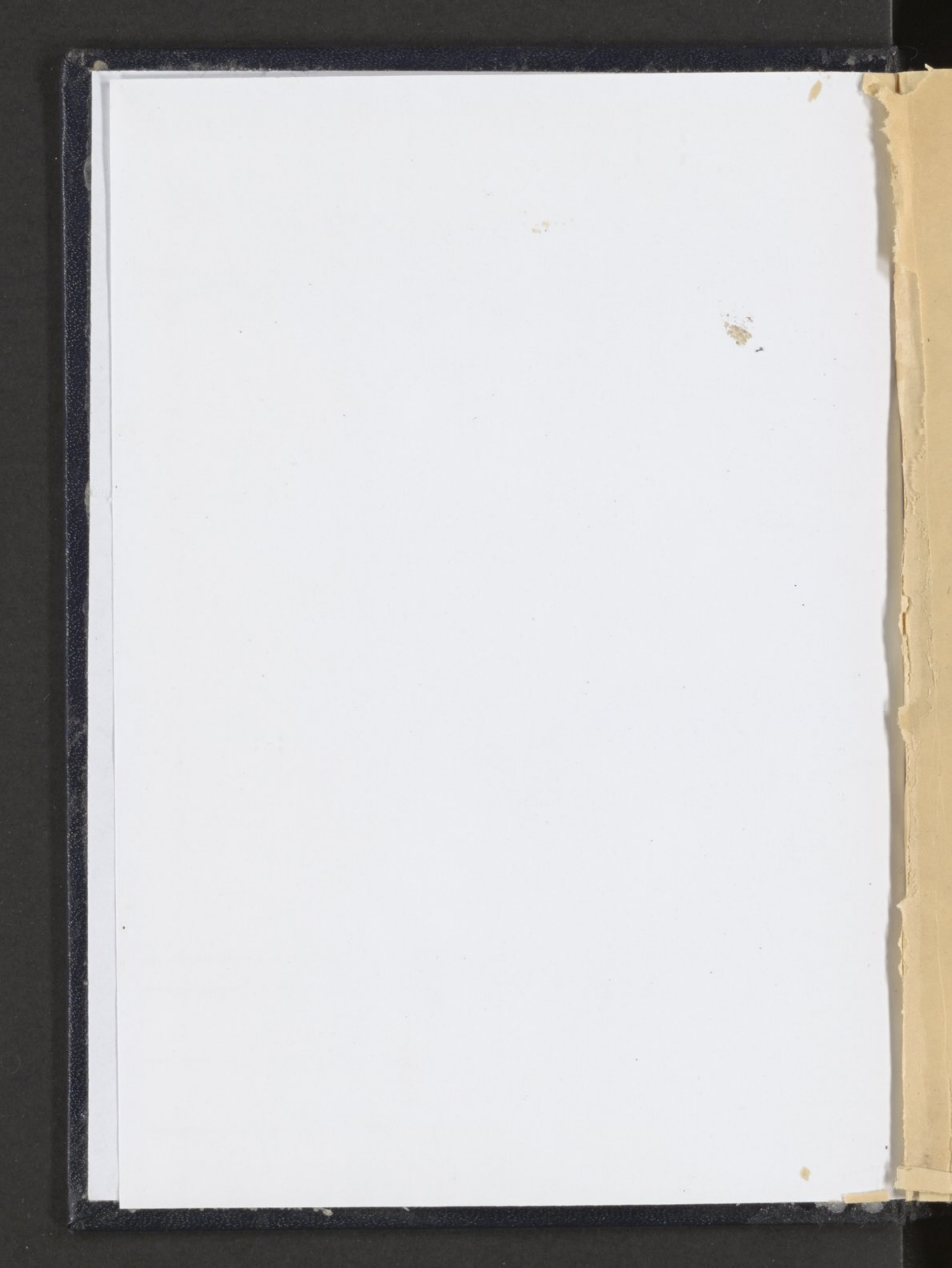
ذلك هو الحبّ الخالدُ الرّكينُ !

إليكِ شريكةَ حياتى :

تحيّةَ محبّةٍ .

ورمزَ تقديرٍ ؟

محمود تيمور






New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Phone Renewal:
212-998-2482
Web Renewal:
www.bobcatplus.nyu.edu

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL		

PHONE/WEB RENEWAL DATE

149613


NYU - BOBST
31142 03286 0689
PJ7864.A5 A38 1949
Abu al-Haw